كتاب العربي ٦٣

نبش الغراب

(المجموعة الثانية)

محمد مستجاب



ملاحظة:

لم أغير أي كلمة أو أعدل إنما نقلته من موقع مجلة العربي كما نشر.

للرجوع إلى المصدر www.alarabimag.com

فهرس

مقدمة

الإنسان وأشياؤه (المجموعة الثانية)

- ✓ القلب
- ✓ الدم
- ✓ الجلد
- ✓ الصدر
- ✓ العين
- ✓ الأذن من حالتها الموسيقية الـراقيــة إلى أذن قـطة الـملوخة
- ✓ اليد ذات الأصابع العبقرية في العزف والذبح والخطف والرسم الجميل
- ✓ القدم
- ✓ الحذاء
- ✓ مرة أخرى .. القلب.. من الحنان إلى الحجر
- ✓ السفر
- ✓ الجسر
- ✓ السوق
- ✓ البريد
- ✓ الفَصْل بين الخديعة والأدب والمناورة
- ✓ الحَرْث
- ✓ الذهب
- ✓ البيت
- ✓ الباب
- ✓ الصّحن
- ✓ العمود
- ✓ بسمة.. فابتسامة
- ✓ الكرم
- ✓ الصندوق
- ✓ النّوم
- ✓ العصر
- ✓ العيال
- ✓ فَرْفور
- ✓ لائحة اللوح واللوحة
- ✓ حـوافظ
- ✓ الخيط
- ✓ الخل
- ✓ الدّق.. الدقيق
- ✓ طبق... و... تطابق
- ✓ الخُبز.. إلى الأبد
- ✓ اللحـم
- ✓ الحبل
- ✓ العصا
- ✓ الحاسوب... والمؤامرة
- ✓ مرة أخرى .. السوق

طيور الواحة وحيواناتها (المجموعة الثانية)

- ✓ العُشّ والعشّة
- ✓ الحمام
- ✓ طريق البجع
- ✓ التجريد والجراد وهلم جرا
- ✓ الغراب
- ✓ الدودة
- ✓ الضفدع
- ✓ السلحفاة
- ✓ الثعبان
- ✓ الفأر
- ✓ الخروف ذو السر الباتع
- ✓ البقرة
- ✓ الثور.. وثورات أخرى
- ✓ البغل صفات حرجة وطهارة لا حيلة فيها
- ✓ الحمار صَاحب الحق الضَائع!..
- ✓ الحصان
- ✓ الجمل
- ✓ البغل...
- ✓ القرد
- ✓ القط مرة أخرى

مولانا مستجاب

(صورة عن قرب)

بقلم محمد مستجاب (الابن)

يا معشر القراء.. نقر - نحن (آل مستجاب) - بأننا تسلقنا أعلى ما في الأرض من جبال كي نخطب فيكم، لكي تنتبهوا لندائنا، وأول النداءات.. أن نقرأ الفاتحة.. على روح أبي - المغفور له - محمد مستجاب. وثاني تلك النداءات، أن تساعدونا لكي نقيم له مقاما محمودا ينافس مقامات أولياء الله الصالحين.

يا معشر القراء.. سيكون المقام المحمود، مقاما، ليس له مثيل في هذه الدنيا، مقامًا كبيرًا، في صحراء المهمشين والمكافحين والمناضلين، مقاما لم يتحقق لواحد شجاع باسل بليغ سوى (مولانا مستجاب)

يا معشر القراء.. أرجوكم لا تحسدونا - نحن (آل مستجاب) - على ذلك المقام ، لأنكم جميعًا، تعيشون فيه - رعاكم الله ورعانا، إلى النهاية الموفقة المأمولة - وسوف نضع على المقام حجرًا رخاميًا من المرمر الأحمر النادر، نقش عليه بالذهب وليس بماء الذهب - ينقش عليه أعتى الخطاطين العالميين، ويكتب عليه: هنا يرقد المغفور له.... (ولد ذكر من صلبك، تضيع عينه اليمنى جهلا واليسرى ثقافة، يهلك أطنانا من التبغ والورق وأبيات الشعر والشاي ومكعبات الثلج وآيات التكوين والمبادىء والملوك والخفراء والثرثرة والشعارات والوزراء، يكون رءومًا قلقًا جامحًا، جامعًا لصفات الكلاب والعصافير والحنظل والحشرات والأبقار، يداهمكم بقصصه القصيرة، حتى يقضي نحبه مجللا بآيات الفخار في العراء على قارعة الوطن)

(مولانا مستجاب)، والذي وهبه الله (القلم)، حيث القلم هبة إلهية، أداة الكتابه، وأقرب الأدوات جميعًا إلى قلب (مولانا مستجاب)، ومع صغر حجم قلم (مولانا مستجاب) بالنسبة للفأس والسيف والمدفع وكبشة الطبيخ، فإنه هو القادر على إضاءة المسافة بين السماء والأرض، يمتلك قلمًا شرسًا قويًا حزينًا ومراوغًا، يختصر تلك القدرة الهائله للعقل والقلب والجلباب الذي يرتديه ليصنع به الأعاجيب، وكلما سافر وتجول ولعب وضحك وتعارك ونام وقرأ وشاهد (انشحن القلم جيدًا) لكي تزيد رهافته وبصيرته وخطورته.

(مولانا مستجاب) - هذا الحاوي الصعيدي الغامض - المنساب في عروقنا وعقولنا ودمائنا ونفوسنا وأفكارنا، نارا وعشقا وهدوءا وصدقا وضجيجا ورغبة، وهو خادم أمين للغة العربية، وهو طاقة السعي والدأب والعناء والاسترخاء والاسترحام والأشواق والحب.

(مولانا مستجاب) الذي يحمينا ضد المتطفلين والغشاشين والجواسيس والخباصين والناكرين للجميل.

(مولانا مستجاب) الذي يحمل تضاريس جسده وعقله، الكثير من التهويمات، جسد ذو تضاريس تخترقها وديان وشرايين ومغارات وندوب وصخور وكسور وأحجار وقبور وبقايا أنهار وبحيرات جافة، وبين طيات الصدر كانت رئته اليسرى مصابة بتكهف مؤلم من أيام العمل الشاق في مشروع السد العالي، وهو ناجم عن الاستنشاق الضار والمكثف للغبار وأكاسيد المعادن. ولايحدث هياج في تلك الرئة إلا عندما يكتسحه البرد أو انفعال صارخ عن قصة رديئة أو رواية بديعة أو كحة حارقة من تلوث الهواء حولنا.

وإذا نظرنا إلى عيني (مولانا مستجاب) نجد أن العين اليمنى في الظاهر كانت تبدو سليمه واضحة التكوين، متألقة كعـــيون الغـــزلان، حتى ولو كانت تبدو مصابة بالحول، الذي لا يجعلها متوازنة مع العين اليسرى، ولكنه كان لا يرى بها إلا (الطشاش)، هذه العين اليمنى، والتي فقدها بسبب عدم الاستعمال خلال فترة (التلبيط) وهي فترة من فترات طفولة (مولانا العارف بالله مستجاب). أما عينه اليسرى - فقد أهلكتها الرؤية بسبب مداهمات الكتب والرسومات وسطور الكتابة ومسودات الأصدقاء والإمعان في لوحات المعارض ونقوش وطلاسم الآثار وعيون النساء وسحر الأجساد ومتعة عد النقود وعناوين الكتب ومانشتات الصحف القومية والمعارضة والأجنبية، ورؤية القتلة والمأجورين وقطاع الطرق وأعضاء مجلس الشعب والوزراء والقضاة والخفراء والكلاب والذئاب والسلعوة، والسياحة والتجوال في الآفاق الممتدة في الصحاري والوديان والجبال والبحيرات والأنهار، مع احتساب انفعال تلك العين اليسرى - السليمة - حين ترى ما تكره وما يضايقها في البيت والتليفزيون والشارع ومواد الدستور ومشاهد توقيع معاهدات الصداقه أو التحالف أو السلام أو منظر الأفواه والأيدي التي تختطف مأكولات الولائم أو الوجوة الماكرة العكرة التي تسعى بالفتنة والوقيعة والخبص واللمز، وأن أشد ما أرهق عين مولانا مستجاب في السنوات الأخيرة، مداهمة قوات عراقية للشقيقة الكويت واستمرار اكتساح المدرعة الإسرائيلية الأمريكية لأطفال فلسطين.

والأذن اليسرى (لمولانا مستجاب) - فقدت القدرة على العمل بانضباط بسبب ارتفاع ضغط الدم المفاجيء، بينما كانت المسئولية الأكبر للأذن اليمنى، لاستقبال كل الأوامر والتعليمات والهمس والفحيح ونباح الكلاب والكلام الطيب والموسيقى وصراخ ومشاجرات الجيران والأولاد، ونشرات الأخبار، وسماع القصائد لكبار الشعراء المشهورين والذين وصل أكثرهم شهرة وسوءًا إلى موقعه بوسائل لا علاقة لها بالشعر، هذا الشعر الرديء السيئ، لذوي الوسامة من نجومه، والذي بسببه حاول يومًا أن يطال عقل (مولانا مستجاب) ولكن الله الحفيظ، حفظه من ذلك السوء.

وإذا هبطنا إلى أسفل - حيث الجانب الأيمن من البطن، نرى أثرين لخياطة طبية إثر عملية جراحية لاستئصال المصران الأعور، قبل زواجه بأسابيع، وعملية جراحية أخرى لاستئصال جزء من الغلاف البريتوني حول الأمعاء بسبب تمزق والتهاب ناجم من النوم الدائم على الجانب الأيمن في مناطق وعرة - في العراء - حيث ظل (مولانا مستجاب) لا يعرف أن الخلق تنام على مراتب الأسرِّة، إلا بعد أن عمل في مشروع السد العالي.

وإذا اقتربنا من قلب (مولانا مستجاب) فإننا نرى فيه مومياوات وتجارب وفضائح وطيبة وحنو ودهاء وأجهزة كبيرة لتخزين الحزن، وبعض زجاجات للحب الطاهر الذي كان يفيض به علينا كثيرا. أما المخ، فلا داعي للحديث عنه في تلك السطور.

يا معشر القراء.. نقوم الآن بعمل جليل، نرجو أن تشاركونا فيه بل نطلب يد المساعدة والعون منكم، وهو جمع أعمال (مولانا مستجاب)، حيث إننا نعلم أنه عند قراءة الإبداع قراءة منتشرة ومتناثرة في جريدة أو مجلة لا يمكن لهذه القراءة المتناثرة المتباعدة أن تمنح، ما يمنحه نشرها في كتيب أو كتاب أو مجلد، حيث يظهر إبداع (مولانا مستجاب) داخل كتاب يحمل خطوطا متواصلة ومتقاطعة من فنه وإبداعه، والتي قد يكون عند أي واحد منكم مادة كتبها في صحيفة أو مجلة أو حتى رسالة شخصية يمكن أن تضاف لهذه الأعمال، التي ننوي إصدارها، ويمكن أن تتفضلوا بإرسالها إلى (آل مستجاب) في العنوان المرفق.

(مولانا مستجاب) تحس أنه يصلح زعيما لجماعة (عصابة أفضل) تقطع الطريق على فنون القول والحكي والرواية (والتي بدأ سحرها يضمحل تحت سطوة اللهجة التليفزيونية الركيكة المصطنعة) يكون زعيما لأسرة من عشاق الأدب والقصة الملفوفة بالفلكلور، أسرة يقودها (مولانا) بين الوهاد والوديان والجبال، وعلى ضفاف القنوات وظلال القناطر والأهوسة (جمع هويس) بين خيام الغجر والحلب وسراديب الأديرة وساحات الجوامع، تحت وقع التصفيق وشدو المرتحلين والمغادرين والقادمين من أغوار سحيقة، وشجن المخنوقين، على امتداد هامات النخيل وانبساط مساحات النجيل، بين فتحات المقابر وقباب المشايخ والأولياء، في تحليل سموم الاغتيال وتمائم المكائد وأحجبة بث القوى الساحرة في الأجهزة الضامرة، مع عساسي البهائم وصناع هوادج العرائس ونصوص التغسيل والتكفين، بين أفراح العبابدة وألعاب البشارية ونحيب الغربان، أو نعيقها، تحت إيقاعات الدفوف والربابة والسمسمية وطبول الزار والختان والإفراج عن المساجين والكيد للأعداء.

وقد أعطى القدر (لمولانا مستجاب) أياما ثقيلة خشنة، منها ذلك اليوم الرهيب، عندما أخرج جسد ابنه الكبير (أحمد) من بين عجلات قطار الصعيد الثقيل، وخلال أربعة أعوام ظل (مولانا مستجاب) في عمل تهذيب وتقويم لعجلات القطار لكي يسير على قضبان مرسومة له بدقة، لكي لا يمزق مرة أخرى جزءًا من جسد (مولانا مستجاب) ولكن القدر كان له بالمرصاد عندما حمل جسد ابنته الصغرى (سوسن) ليحملها ثلاث سنوات مدافعًا ومكافحًا ومتسلحًا ضد هذا المرض الشرس العنيد المتمسك بجسدها لكي يفقدها الحركة والوعي، حتى انتصر مولانا عليه، لكي يعلمنا كيف نصبر ونبتسم في وجه المحن والشدائد، وأحفاد (مولانا مستجاب) في تزايد مستمر، وهم القادرون على تغفيله والتعارك معه على هدايا المواسم والأعياد، وهم الوحيدون القادرون على تلويث جلبابه ببقع الشيكولاتة وأقراص الطعمية وتمزيق جسده وعقله عندما يلعب معهم بالكرة أو) الاستغماية)، لكي يظل يصرخ فيهم (خلاص) بينما هم في حب يقولون (لسه).

يا (مولانا مستجاب).. نحن نشهد ونتعاهد ونعاهدك، بأننا سنظل نقف حراسًا أشداء لواحتكم العربية الطاهرة الجميلة، حراسًا ضد فقر الفكر والملكية والتوجس والشر والرعب والاعتزال، سوف تظل واحتك، كما هي، كما كانت كل بلاد الله والقرى والمدن، ملكًا مشاعًا لخيالك الفسيح الرحب، بتكوينك الفاتن المتفرد أينما ظهرت.

(مولانا مستجاب) نحن نعرف انك تعرف أننا نعاني الآن من الانقراض، انقراض الحب، والفكر الجميل والابتسامة الراقية الطاهرة المرعبة، والنظرة المتبصرة للأشياء والوحدة والانعزال والاغتراب.

(مولانا مستجاب) أحد ينابيع الحب والفكر والعمل والرجولة والطفولة والشهامة والكلمة الطيبة القاسية سيظل ينبوعك يا (مولانا) يسكن قلوبنا ويفيض علينا بالأمل والابتسامة والسخرية والحرية والتجوال في الآفاق الممتدة، امتداد العمر والزمان والمكان، ولكننا نعرف أن روحك الطاهرة ترعانا وتوجهنا وتحول بيننا وبين انحراف السبل بنا في تلك الأيام الصعبة.

ونحن نعاهدك يا (مولانا مستجاب) على أننا سوف نحمل رايتك، ونسير على مبادئك وأحكامك والتي تنص على أننا يجب أن نثق، أن السمك يعيش في الماء، والوطواط في الخرائب، والمدرسين في المدارس، والطمأنينة في الموت، والثعالب في المزارع، والرهبان في الأديرة، والخداع في الكتب، والحب في الشقوق، والسم في دم الحيض، والحكمة في مؤخرات الأحداث.

الإنسان وأشياؤه (المجموعة الثانية)

القلب

ظللت الأحقاب الطويلة - الأولى - من عمري المديد - رعاكم الله - أحظى بلقب (قلب أمي)، ولاسيما في لحظات عنفوان استرحامها الساخن، ضاربة صدرها بكف يدها، كلما حاق بي أذى السقوط بين الطوب والحصا والأعشاب وجذوع النخيل، لتصرخ: يا قلبي، وهو تعبير يعلو - حتى على أفخم الألقاب، استطعنا استغلال ما يثمره من تدليل، بالذات نحن طائفة الذكور الذين وفدوا إلى الدنيا بعد عدد من البنات، هذا التدليل الذي أود أن يقوم واحد من الباحثين في علم الاجتماع بدراسة نتائجه المعهودة - والمنتشرة - في بلادنا، ليصل إلى تحديد ارتفاع نسبة الذين أفلحوا - من أمثالنا - في الحياة بعد ذلك، ولم أكن أدرك أن ريتشارد الأول ملك إنجلترا - قبلنا بثمانية قرون - حظي بلقب قلب الأسد، إنه رمز للشجاعة أو القدرة على الهجوم المباغت، فيما وصفه المؤرخون القريبون منه، دون تحديد لموقع مولده بالنسبة لأخواته البنات.

إلا أنّ القلب الأعظم ظل هذا العضو الكامن داخل القفص الصدري في الإنسان - مع إضافة عدد كبير من الحيوانات أيضا، ليتدفق الدم النقي من بطيناته وأذيناته - بعد تحليلات معملية دقيقة - ليصب حرارته ذات الشجن في العلاقات وقصائد الشعر والنثر والإحساس بالوجود، حتى أن المخ - أقصد العقل - الكامن في أعلى الجمجمة - يضطرب ويتراجع تاركًا أمورا - كثيرة ومعقدة - تحت سطوة الوجدان المتفاعل ملتهبًا خارج المنطق، ليظهر هذا الإبداع في الفن والأدب والمناجزات الرياضية، واختراق المناطق الغامضة في المغامرات والرحلات، ليستيقظ العقل بين وقت وآخر ليمارس الإمعان والتحليل وترتيب حيثيات المقدمات والأسباب والنتائج في المعامل وشئون التربية والتدريب والتعليم وصناعة الورق والقماش والتلفزيونات وكيمياء الدهانات والألوان، استقبالا لما يجيش به القلب، هذا - القلب - الذي بدأ - في عصرنا الحديث - يضطرب تحت ضغوط الصواريخ والطوربيدات والدبابات والسموم والمداهمات، دون أن يعترف القلب أن معظم ما حاق به من أخطار وكوارث تولدت من الانقلابات التي جاءت حروف تكويناتها من حمق القلب.. يا قلبي!!..

وقد استحوذت النجوم - في السماء - على لقب: قلب العقرب لواحد منها أحمر اللون ذي وميض سريع يرصده علماء الفلك بدقة أكثر منا، كما أن نباتًا معمرًا - أي ذا عمر طويل - موطنه اليابان حصل على لقب (قلب مريم)، نوع من نباتات الحدائق، زهوره قلبية الشكل، تتدلى في حنان قرمزي أحمر، له قدرة فائقة على جذب العيون نظرًا، والأنوف شمّا، رائحته زكية، لكني لا أعرف لماذا أطلق عليه (قلب مريم) بالذات، أما القلب المقدس فهو ما أطلق على كنيسة - مسيحية بالطبع حتى لا تختلط مع لفظ الكنيست اليهودي - أقيمت في باريس فوق ربوة مونمارتر على الطراز البيزنطي بعد الحرب الفرنسية البروسية، ولها قبة ضخمة خلفها برج شامخ.

وقد صبّ القلب - في لغته ومشاعره - أنواعًا من القوالب، دعك الآن من قوالب الطين التي استأثرت بفن المباني في مباراة تاريخية بينها وبين الأحجار، كما أرجو ألا نقف طويلاً أمام القوالب التي تستخدم في عمليات صناعية متعددة، مثل صب المعادن وقطع الألواح وسحب الأسلاك وصناعة العملات المعدنية والميداليات والحلي، إنما الذي يهمني الآن - ومع الأسف لاستبعاد العملات النقدية وما يحلّ بي - وبك - نتيجة لذلك - هو القوالب الفنية في الموسيقى الشرقية بالتحديد، وتشمل الألحان العربية والفارسية والتركية والشامية، (والهندية مع اختلاف قوالبها)، حيث تتألق في مقامات راست وحجاز وسيكا ونهاوند وصبا، تمامًا كما قام الشعر العربي بالتعبير في قوالبه التي أطلق عليها علماء اللغة العربية: البحور، من الطويل والمديد والوافر والكامل إلى البسيط والرجز والمنسرح، على أي حال فإن هذه القوالب الشعرية الثابتة - والموروثة - حملت على أكتافها، وفي وجدانها - كل نظم الإبداع العربي الرئيسي، وتجارب الأفراد والجماعات والأمم، أكثر من أي فن آخر، أقصد ليس منفردًا عن الموسيقى والنثر والرسم والقصّ والحكايات، لكنه تحمل في تقلباته وأهوائه ومراوحته الدائمة للمشاعر، كل ما نسعى إلى فهمه وإدراكه والوعي به في تاريخنا العربي، حتى لو جاء العصر الحديث بتياراته المناوئة والضاغطة علينا بمصطلحاتها ذات القولبة العلمية والفنية الجارفة، أو الانقلابات العسكرية والسياسية، أو المقالب الذكية الشريرة التي تبدو جميلة بعض الوقت في الحياة أو على شاشة التلفزيون، حتى أن الأجيال التي وفدت إلى الدنيا في الثلاثين عامًا الأخيرة لم تجرب أنواعًا من المعرفة الخاصة، والتي في أجمل حالاتها: الوصول إلى قلب النخيل، هذه الأشجار الشامخة العالية في الوديان والصحراوات، حيث كنا نعالج الأرق بما في هذا القلب من (جُمّار) - رجاء ضم الجيم وتشديد الميم كي تنطق هذه الشرائح البيضاء ذات الطعم الخفي حلاوة ومضغًا، إنها متعة قصوى دون أي تقليب على النار، ودون أي تقلّب في المذاق، ودون أن يترك في القلب أي قُلاب: والقلاب داء يستقر في القلب ويؤذيه، مع مراعاة أن ذلك غير القُلّب، تلك الصفة التي تطلق على الكائن كثير التقلّب، والذي لا يستقر على حال. إنها ليست صفة حيوية فقط، إنها سياسية أيضًا يتحمل الإنسان المساءلة أو المسئولية عنها، حتى أن الفأس التي تقلّب بها الأرض للزراعة فقدت لقب (المِقْلب) بكسر الميم وتسكين القاف، كي لا تقع في مأزق التقلبات القائمة سياسيًا وجويًا وسلوكيًا، وكادت تقع في قاع القليب - بفتح القاف وكسر اللام - إنه البئر الضاغط بعمقه المظلم على الذاكرة، والتي تدعونا الآن ألاّ نقوم بتقليب أمورنا اكتفاء بسلوان قصائد وأغاني وأفلام وحكايات الأمور القلبية، ذات الهمس الدافئ والذي - في رفق ورقة - يضيء القلب، ويتيح لنا استقبال الصباح.

كلمات لها معنى

- **إني أعتذر عن كل ما يبدر مني، دون التنازل عن الفتك بك عما قد يبدر منك .**
- **تصور أننا نواجه الآن كارثتين: الأولى سببها الجهل، والأخرى: سببها العلم .**
- **أجمل ما فيك قدرتك الفائقة على الابتعاد عن الوقوع في المشاكل، غير أن هذا الابتعاد تمارسه سيرا بظهرك إلى الخلف، لتقع دون أي مشاكل .**
- **عندما ظهرت أزرار الأجراس فوق الأبواب، فقدت كفوف الأيدي حرارة الاستئذان تمهيدا للقاء .**
- **شجاعة السباع تنفلص بسرعة غريبة أمام عقربة تتثنى في دلال رافعة ذنبها .**
- **الليل يعسعس هادئًا رفيقًا في حواس المخلوقات، نادرا ما يكتب الشاعر قصيدة في النهار .**
- **بعد أن نجحت - خلال الجزء الماضي من العمر - في مساواة التعامل بين أنجالي الذكور مع الإناث، بدأت أحاول إقناعهم بضرورة مساواتي معهم .**

الدم

حامل اللوعة والشوق والجراثيم والحمق والسكر والبولينا هو هذا السحر اللأرجواني الغامض، المنساب في العروق ناراً وعشقاً وهدوءاً وصدقاً ورغبة، وخادماً أمينا يحمل لكل أعضاء الجسد القوت والشراب، يتدفق من القلب في نبضات هي منبع بحور الشعر، ومصدر آهة الألم الكبرى، وطاقة السعي والدأب والعناد والاسترخاء والاسترحام والأشواق، ومع ذلك فكثيرون يمكنهم الحياة دون أن يكون لديهم ذرة من الدم: المتطفلون والمتنطعون والغشاشون والجواسيس والخباصون والناكرون للجميل، وهؤلاء يختلفون عن ذوي الدم البارد مثل الحلاقين والضفادع وخدم الحانات وقاذفي القنابل والأسماك وكتبة النصوص الأدبية الرديئة أو المذكرات الشخصية التي تنال من شخصيات نظيفة، وحرّاس ثلاجات الموتى، وفاقدي الاتجاه الهائمين في محطات السكك الحديدية والمطارات والأمم المتحدة والبرك والمستنقعات والمتلاعبين فيما لا يصح التلاعب فيه، ويقابلهم ذوو الدم الحار الذين يلتهبون في المواقف حمقاً، أو كرامة، أو جهلاً، أو اختناقاً، ويقعون في منطقة الغرق بين ما يريدون وما يستطيعون، ونماذجهم من الكثرة والخطورة حتى أني أخشى أن أكون منهم مالكاً لدم صعيدي مصري عربي - ثلاث تركيبات مرعبة ومعقدة من الدم الأهوج الحار!!

والدم في أجمل حالاته هو إشارة الطبيعة للأنثى منبهاً أنها وصلت إلى المنطقة الحرجة في تكويناتها، ثم.. وحين تتورد خدودها خفراً وحياء، وحين - فوق كل ذلك - يسيل الدم هادراً مدفئاً مولودها الصارخ خارج إطار سجن التسعة شهور الأولى مضمخاً بكل حنان الدنيا، وكأنه لم يكن وراء كل النار الدموية التي صنعت التاريخ والمواقع والتقدم والمشانق والفلسفة والطب والحروب والأوبئة، ولذا فإن الناس يتعاملون في لغة الدم متناقضين: بينك وبيني دم، أي ثأر لا علاج له إلا بالقتل، وبيني وبينك دم، أي علاقة قرابة وثيقة، في حين أن لغة الدم تعني سقوط لغة الدبلوماسية، وهي لغة عالمية مفهومة ومشروحة دروسها في فلسطين والصومال ودويلات يوغوسلافيا، وغير ذلك من دروس يلعق التاريخ في دمها دون أن يصل أحد إلى مرحلة الاتعاظ.

والدم أول المحرمات شرعاً قبل الميتة ولحم الخنزير، لكنه يظل أشهى ما يتغذى عليه الحقد، وأثمن ما تسبح فيه الجراثيم، وأخطر ما يمكن الطعن به في نقاء أصل صاحبه، ودم الغزال أجمل ما يمكن به وصف كعب فتاة كاعب، والتي تتأود صابغة بالحناء قدميها، ودم التمساح استخدم فترة لإصلاح أمور العشق بعد عوائق الزواج، وتأكل بعض الجماعات التي تعيش على الفطرة الكبد الدافئة الطازجة بديلا عن عادة مذمومة ومحرمة كانوا يتوسلون بها للحصول على الشجاعة المبكرة من شرب الدم. وقد ظلت دورة الدم في الجسم غامضة حتى كشف عنها ابن النفيس المصري (ت 1288 م)، لكن الغربيين يسقطونه من تاريخ التشريح ليحل مكانه مايكل سرفتوس الإسباني الذي مات محترقا على الخازوق عام 1553 م حتى لا تنسكب منه قطرة دم واحدة، ويردفون عليه وليم هارفي المتوفى عام1657 م.

والعدو الأكبر للدم: الكذب والغرام والخداع، يضطرب بسببهما اضطرابا كبيراً، ونقص أو ارتفاع السكر، وازدياد البولينا، والمفاجآت غير المتوقعة في الأموال والإنجاب والخيانة والسكاكين والطعن من الخلف - بالكلام أو بالحراب - وتفسده السيولة الشديدة أو الكثافة الشديدة، لكنه يعود إلى طبيعته حينما يهدأ على وقع ابتسامة متألقة، أو نص أدبي ساحر، أو منظر غروب الشمس تسعى لآخر خطوط الأفق، أو مستقبلة في الصباح أول خطوط الأمل.

كلمات لها معنى

- **رأيتها في المنام - اللهم اجعله خيرا - تجري وتصرخ، أسرعت خلفها لأنقذها، لم أكن أعلم أ ا تستغيث باحثة عمن ينقذني .**
- **متعة اختزان النقود تعلو عليها لذة تبديد هذه النقود ذا ا .**
- **نعم توقفت عن الكتابة إليك يا حبيبتي، فقد اكتشفت أن كثرة الشرح تفسد الانشراح .**
- **لم أقل هذه لكني استوليت عليها: لا يعوقك عن صعود الجبل ارتفاعه، بل حصاة صغيرة في حذائك .**
- **الشجاع يواجه خطرا واحدا، أما الجبان فهو أكثر حظًا لأنه يواجه خطرين: أحدهما خارجه والثاني بداخله .**

الجلد

الجلد هو الكساء الحيوي الخارجي للجسد، وموطن نقل الإحساس من الخارج إلى الداخل، وعليه مسئولية جمالية وأخلاقية تنظم الكثير من علاقات التفاهم والتواجد والتواصل والرفض والاستحسان. وذو الجلد البارد لا يختلف كثيرا عن ذوي الدم البارد وذوي الإيقاع البطيء وذوي الفهم المتعثر والذين تضمهم صفة إنسانية واحدة: البلادة، والجلد الحي موصل جيد للمشاعر، فإذا عولج بالجير الحي وثمار القرظ يصبح الجلد قابلا لنقل الماء وحفظ اللبن.

وبعض علماء الأحياء يعتبرون الجلد عضواً كاليد واللسان والبنكرياس، وفي فصيلة الحماريات يتلقى الجلد كل أنواع العقاب باليد (صفعا) وبا لعصا (ضربا (وبالقدم (ركلا) وبالسيخ المحمى (كياً)، كما يقوم الجلد بإخفاء المشاعر أمام الآباء والرؤساء والأزواج والأطفال، وكلما تهذب الجلد ازدادت درجة شفافيته الحلوة حتى يكاد في بعض الحالات الغامضة أن يعجز عن حجز لون الدم خلفه، وفي حالات أرقى يمكنك أن ترى العظام. جرب هذا مع يد جميلة مرفوعة في مسار الضوء، على ألا تكون يد زوجتك.

وفي أقوال السلف: (ما حك جلدك مثل ظفرك)، والمعنى واضح على الرغم من سخفه وهبوطه، إذ إن حك الجلد بالظفر عادة يكشف عن الوسط الذي جاء منه الحكاك .والجلاد كل من يوقع عقابا على الجلد في الزمن الغابر، أما الجلاد العصري فهو تاجر الجلود في معناه المحدود، وفي المعنى الشامل ينسحب الجلاد على النظم السياسية والمصارف ودور التربية والمسلسلات التلفزيونية.

والفراء هو الجلد الأشعر، ولا قيمة له في الإنسان والحمار والبغل والحصان، وتبدأ قيمة الجلد الأشعر (قبل أن يصبح فراء) في وبر الجمل وصوف الغنم، فإذا أصبح الجلد الأشعر فراء فهو شيء نادر وثمين، مثل جلود أنواع من الثعالب والسنجاب والسمور والمنك، (وقد توقف فهمي عند حدود الثعالب والسنجاب دون السمور والمنك)، وكثير من الروايات البوليسية المبكرة - أي التي قرأناها مبكرا - كانت تقوم على تهريب الفراء، هذا النوع من الجلود ولو كان ثمينا، فلم أكن أتصور أن تحدث مخاطر ومؤامرات ومغامرات من أجل هذه الجلود، مع أن الجلود - بجميع أنواعها - لا تزال هي العملة السائدة في بلاد الإسكيمو وألاسكا، جلود الدببة والذئاب القطبية على وجه الخصوص.

ويمتاز الجلد الإنساني بقدرته الفائقة على أن يكون رَمْزًا للهوية والفصيلة، بل وإن جلد أطراف الأصابع أصبح أول ما يتم تصويره وحفظه بصفته بصمتك الخاصة التي لا مماثل لها، وهو ما يهم السلطات وهي تتعقبك، لأنك نَادِرًا ما تستطيع تشويه أطراف أصابعك، لكِنَّك تستطيع تغيير كل ملامح صورتك بسهولة بطريقة جراحية بسيطة)، ليس فقط بصمة أصابع اليدين أو القدمين، بل وبصمة الشفاه أيضا (قرأت ذلك من زمن لا أعرف أين.(

وكلما كان الجلد متماسكا أصبح صاحبه صبورا، أي قادرا على التحمل، أي شديد الجلد- بفتح الجيم واللام - أو متجلدا، يمكنك أن تتحمل الأعاصير بصلابة باردة، وذوو الجلد الرقيق هم الشعراء وعازفو البيانو واليتامى والكلاب المدللة، أما ذوو الجلد السميك أو الثخين فهم السياسيون والحلاقون وخدم المطاعم والجاموس وضباط المباحث والقنافذ والأفيال، ولم يتم تصنيف جلود الجواسيس والمرتشين وكتاب القصة حتى الآن.

والتجليد هو فن تَغْشِيَةِ الكتب بالجلد، ومنها جاء إضفاء اسم المجلد على الكتاب الكبير، أما إذا قلت: هذا الرجل من بني جلدتنا فأنت تعني أنه من عشيرتكم وقبيلتكم، أما إذا قلت هذا الرجل جلدة فقط فهي تعني أنه بخيل جدا لا يمكن استقطار جيبه، أما الجلدة الخالصة - بفتح الجيم هذه المرة - فهو أن تجلد في دار حاكم أو في قراءة مقال صحفي ساذج.

كلمات لها معنى

- **لها عينان عينا الغزال، فماذا عن ساقيها؟**
- **إن الفساد استشرى بعد أن نجح الكثيرون في الزواج من الحبيبة الأولى .**
- **لن تسمع أبدا عن قرحة في القلب، لأنه يتولى علاج الجراح بنفسه سرا .**
- **كان وجهها قد ازداد اطمئنانا ورونقًا، فقرأنا الفاتحة على روحها .**
- **كثير من الكتاب فقدوا رشاقة الأسلوب، لأ م لا يخاطبونك، بل يخاطبون شخصا غامضا يهتم بصياغة الكمبيالات .**
- **كان باحثًا أدبيا وناقـ ـ ـ ـ ـ ـدا أريبا، ما ترك نصا أدبيا يسـ ـ ـ ـ ـير أمامه إلا وقـ ـ ـ ـ ـ ـ ـاده إلى بيـ ـ ـت صاحبه، وفـ ـ ـي آخر مرة قـ ـ ـاده النص الأدبي إلى عدة بيوت متنافرة، ولا يزال كلاهما في الشارع .**
- **حتى السماء أصا ا التهتك، آخر تفسير لثقب الأوزون .**

الصدر

الصدر هو مقدمة الجسد، وبئر النفس، تتلوى داخله سراديب تعج بالرغبات والمثل والوساوس والجراثيم والورد، والبؤس والأضواء والدخان والعتمة، قد يوجد عقل فارغ لكن الصدر لا يفرغ أبدا، والصدر الأعظم نوعان: واحد كان رئيسا لوزراء الباب العالي بالدولة العثمانية، وواحد عند جين راسل فاتنة السينما الأمريكية في الخمسينيات، أما أطعم الصدور الحديثة وألذها في الديك الرومي والغزال والحمام والسمان والمها والنادر من القصائد العمودية، والأكثر ثقافة يضيف بعض المقدمات الموسيقية لأغاني أم كلثوم، وصدر الدين خان هو الممثل التنفيذي لسكرتير عام الأمم المتحدة، وصدر البيت القاعة الأمامية - بافتراض أن بالبيت قاعة خلفية، وصدر الصحيفة موضوعها الأصلي المفروش على الصفحة الأولى، وذات الصدر اسم لمرض أصيبت به عدة غادات سينمائيات في أدوار منسوخة من غادة الكاميليا، أما ذات الصدور فهي خفايا النفس التي لا يعلمها إلا الله، ويتغطى الصدر بالصديري، تلك القطعة من الملبس الأنيقة في الرجال، والتي تتألق بالألوان على صدور الإناث، وتتألق بالحديد المضاد للرصاص على صدور ذوي الشأن، وصدر القرآن الكريم سورة الفاتحة، وصدر الأمة الجيش، أما صدر الحكومة فهو الشرطة، وصدر القوم بطلهم، وهو غير رأس القوم الذي هو كبيرهم، وصدر السفينة: أقوى ما فيها، وصدر الطائرة أضعف ما فيها، وصدر الأم حصن الحنان، أما صدر الأب فهو قلعة الأمان، والصادر والوارد لغة في النظام الإداري الشرقي لقطاع عمل ينقل إليه ذوو الطموح الخامل والذكاء الرتيب، أما في الغرب فالصادر والوارد هو الجهاز العصبي للأداء الإداري الحديث، وهو أول قطاع استفاد من الكمبيوتر، وتأتي المصادرة تعبيرا عن معان ثورية معاصرة تستولي فيها العقول الفقيرة على القصور الثمينة لتشخبط بالشعارات على جدرانها، وهي غير المصادرة الجنائية التي كثيرا ما تضيع فيها شحنات المخدرات، وغير المصادرة الكلامية والتي أسبقك فيها للتعبير عما تقصده لأفسد عليك نواياك، وأيضا غير المصادرة النفسية التي أقطع فيها عليك الطريق لأصيبك بالإحباط والقهر، أما أقسى أنواع المصادرة فهي التي يحل فيها الجسد محل القصور والرياش - وفي التاريخ، غير المكتوب نماذج تحترق بسببها الصدور والعقول والسيقان، ولنا الصدارة في ذلك، وفي المأثور: أطعمهم حتى أصدرهم، أي أشبعهم لدرجة الخمول، ولذا سمي اليوم الرابع في عيد الأضحى: يوم الصدر (بفتح الدال) حيث يبلغ الشبع أوجه، وقيل إنه سمي بذلك لأن الناس يصدرون فيه عن مكة - أي ينصرفون إلى بلادهم، أما المصدر فهو أنواع: في اللغة صيغة اسمية مشتقة من الفعل وأشهرها المصدر الميمي والصناعي، وفي الحياة العامة: المصدر هو الشخص الغامض الذي يشار إليه في التصريحات التي تبدو مهمة بقولهم: صرح مصدر مطلع، وعلق مصدر موثوق به، وأشار مصدر سياسي، وفي حالات كثيرة لا يكون المصدر شخصا غامضا بل شخصا معروفا لا يحب أن يتحمل المسئولية، وغالبية ما ينسب لهذه المصادر من تصريحات تكون ساذجة لا يعول عليها كثيرا، ولعل المصدر الرسمي يكون مصدورا أو بصدره اختناق، أو بصدره لغط، أو بصدره بعض الأدران، والله عليم بذات الصدور.

كلمات لها معنى

- يتكلمون كثيرا عن الكتب.. العوانس والأدباء .
- همس لها: اخرجي من قلبي، صرخت فيه: اطلع من نافوخي، ولذا لجأ للشاكوش .
- إنه يمد يده بالإجابة قاصدا أن يمدها بالسؤال، إنه أرعن .
- كلمته عن نزوات أصدقائه معها، فوقع في هوة الأخلاق الفاضلة، ومات فيها .
- كان جسدها قد تجاوز المساحة التي حددها فستا ا .
- كانت قادرة على أن تضغط على الرجل حتى يتحول إلى قصيدة مهشمة القوافي .
- إ ا مثل الجريمة، تظل أمتع ما يمكن مشاهدته .

العين

في الألفباء العربية: العين هو الحرف الثامن عشر، ويعد أنصع الحروف في الجرس اللغوي وألذها سمعا، وفي علم وظائف الأعضاء: العين هي جهاز الإبصار في الكائنات الحية، وأجمل عيون في الظباء والمها وصغار الأبقار والفتيات الصحراويات، وأكثرها اتساعا وحدة عين النسر وعين الثعبان وعين العدل وعين الفن، والعيون قادرة على الإفصاح عما يعجز عنه العقل، وقادرة على أن تفيض بالدموع حزنا أو تشكيا أو امتنانا أو مراوغة، وأبو العيون: شيخ صالح تولى شئون الأزهر وعندما توفاه الله أقام له أهله في دشلوط (أسيوط) مقاما أصبح مزارا للعامة، وعين المحب عن كل عيب كليلة وتبدأ تستعيد لياقتها بعد أن ينتهي الحب، والعين من أهم مدن دولة الإمارات العربية المتحدة، والعين أول معجم عربي وهو الذي ألفه الخليل بن أحمد، والعين نبع الماء يأتي من جوف الأرض، والعين كبير القوم ومنها جاء الجمع المصري لعين القوم بالأعيان، أما عين الحياة فلا أعرف معناها، وعين جالوت موضع بفلسطين هزم فيها السلطان قطز والقائد بيبرس جحافل التتار والمغول عام 1260م، وعيون الشعر هي القصائد التي أجمع النقاد على تفردها منذ العصر الجاهلي حتى الآن، وعين العفريت مركز العاصفة أو الإعصار، وعين الجمل من أجمل أنواع المكسرات، وعين الذئب تعبير جاء في مسرحية شكسبير (عطيل) ويعني الرؤية حتى مع إغلاق العين تظاهرا بالنوم، والنداء على العين في اللهجات العربية: يا عيني - تعني اللوعة والوجل، وهي غير ياليل ياعين التي تعني بداية شكوى المحب من الزمان، ويطلق تجار اللحوم - والجزارون - الجوهرة على العين، وكذلك أطباء العيون أيضا، لكن أخطر مرض يمكن أن يصيب العيون وصاحبها هو التطفل .وأوسع عيون هي عيون القناطر، وأكثرها ضيقا عيون شعوب غرب وجنوب آسيا، وعين الموضوع النقطة الأساسية فيه ويطلق عليها مربط الفرس، والعيون الكواحل من المواضع المحببة في الغناء وتراها في آثار المصريين القدماء وقد رسمت بتحديدات بالغة الروعة، وترتكز العيون بأطرافها على المدامع وهي التي تستجيب لما يداهم العين من حالات الحزن أو الأذى، وأرق نقطة دمع تلك التي تتعلق على أهداب أنثى في لحظة فراق، والغزلان مشهورة بانسكاب - أو انهمار- الدمع لحظة حصار الصياد لها، وكان على العين حارس خاص غير منظور يحميها من الأذى، وقد ضاع الحارس الآن تحت وطأة العصر وحوادثه التي لا تقيم وزنا للعيون.

كلمات لها معنى

- **الفرص الجميلة تمر علينا دون أن نستوقفها، لأ ا تندس داخل ملابس بالية اسمها العمل الشاق .**
- **نزل من سيارته الحديثة، ثم وقف على المسرح يغني: يا عم يا جمال .**
- **الشعب الذي يستطيع الإنصات لأغنية مد ا ساعة ونصف الساعة، يمكنه أن يفعل الأعاجيب بسلاح الصبر، إن فعل .**
- **هالني هذا التغير الذي أصاب حبيبتي الأولى، مع أ ا كانت شديدة الود وهي تقترح أن أستعين بالعكازة في السير .**
- **سبحان الله: لا الطيور المغردة من الجوارح، ولا الجوارح من الطيور المغردة .**
- **ضاع المثل المصري: ظل رجل خير من ظل حائط، فقد أصبح الرجال يهابون الشمس ويجلسون في ظل الحوائط .**
- **س: هل تناقش زوجتك في المصروفات اليومية للبيت؟**
- **جـ: لا بالطبع، هي التي تناقشني .**
- **محاولة الفهم: فهم كامل .**
- **أعمق حالات الامتثال تكون أمام الصراف .**
- **أشد الكائنات قبحا: وجه غاضب .**

الأذن من حالتها الموسيقية الراقية إلى أذن قطة الملوخة

الأذن: جهاز السمع في المخلوقات الحية، وباب الجحيم - وأحيانا الفردوس - للإنسان، يمكنها - بالطنين أو الإنصات الشديد - أن تقودك إلى حيث تجد نهايتك الموفقة، ويطرب الأذن جرس الكلمة الحلوة، ولحن المجاملة، ونغمة المغازلة، وما إلى ذلك من فنون الخداع الجميل والكذب اللين الطري، لكنها - هذه الأذن - تستفيق على الدعاء بالستر، والأوامر والنواهي والزجر، وآهة الاسترحام، وحقوق الزوجات، ومصاريف المدارس، وغنة الوليد، وأذان الفجر، وصوت الديك، والأذن الحساسة الرقيقة عمرها قصير، يدمرها ارتفاع ضغط الدم، وتعليمات وزراء الإعلام، وصراخ الطفل الأول من الزوجة الأولى، وضجيج الموسيقى ذات النشاز الحديث، وانفجار القنابل، والكلام الراضخ مدة طويلة مع من تكره، أو الكلام فيما لا تحب، أو الإنصات إلى ما لا تتمنى، ولذا فإن الأذن تميل - أحيانا- إلى أشياء كثيرة يرفضها العقل، لتحدث الوقيعة بينهما، فتسمع الأذن أشياء لا علاقة لها بما يختمر في العقل، وهو انفصام يتميز به المواطن المعاصر، حالة (سرحان) يهيم فيها العقل متعالياً عما ينصب في الأذن، لكن الأذن تجبر على مراعاة لياقة الإنصات فتضطرب، تتقلص حتى تصبح أذنا لضفدع، أو تستطيل حتى تمسي أذنا لحمار، فتدفع بالدموع للعيون أو الضحكات إلى الأفواه دون اهتمام بأن ما يحدث لا يؤدي إلى ذلك، ويمكنك أن تتأكد من الأمر لو أمعنت في وجوه القوم المحاصرين في المسرح، أو الموقع الوضيع للمتعة الرخيصة، أو افتعالا للاستماع للخطب الرسمية، أو انسحاقاً تحت سطوة حاكم همام، أو انتظارا لنقود تلقي بها السماء، أو إنصاتاً لحركة شفتي قاض في حالة تأهب لإصدار الحكم.

لكن - هذه الأذن - تستطيع أن تتحرر من الواقع والذي وقع والمتوقع وقوعه، تقفز فوق العوائق والضواغط وتتسلل إلى الأمنيات العذبة فتجمعها في انسياب موسيقي بالغ الانسجام والامتزاج، وهو ما أدى إلى هبوط نسبة السمع عند أشهر مستمع موسيقي في عصرنا: د.حسين فوزي، وانخفاضها - ربما لأسباب أخرى - عند أشهر روائي عربي: نجيب محفوظ، وانسحاقها تماما عند أشهر مؤلف موسيقي عالمي: بيتهوفن، ولا علاقة لذلك بحادث انتزاع الفنان التشكيلي فان جوخ أذنه وأهدائها لواحدة من بنات جزيرة هاييتي.

وإذا كانت أطول أذن نجدها في الحمار، وأعرضها في الفيل، وأجملها في الزرافة والجمل والكلاب والقطط، فإن أضخم أذن على الإطلاق هي لجهاز المخابرات الأمريكية، (وأكبر عين أيضا)، وما يتفرع عن ذلك من أذان دولية صغيرة، أو محلية، في الصحافة، والشرطة، وجماعات الغجر، والفيران، والرجل غير الموفق مع زوجته الجميلة، والوزير ذي المقعد المضطرب، والموظفين آخر الشهر، والجبان غير القادر على المواجهة، والذئاب (الأنف أقوى)، وكلاب الصيد، وباعة الصور غير المهذبة، والطيارين، والعشاق في المرحلة الأولى، والعبيد، والسياسي غير المحنك، والمسجون المتوقع الإفراج عنه.

أما أشهر أذن شعبية فهي أذن القطة: وهي طريقة تلف بها لقمة الخبز في الملوخية، وأذن الظفر: تلك الجزئية الباقية في ركن الظفر وتحدث ألماً مروعاً عند نزعها، وتطلق على من ينزعون منه أخطر أعوانه، هذا دون أن نغامر بذكر تفاصيل أذان جميلة لنساء جميلات يتألقن بها وضاءة ولو كانت خالية من الحلي.

كلمات لها معنى

- **الطيور التي تحط على الحوائط المتجهمة وتقيم في أوكارها المظلمة: لا تغرد، أنا لا أقصد الطيور بالمرة .**
- **معظم السكاكين التي يشتريها الناس من أجل المطبخ: ينتهي ا الأمر أحرازا مختومة بالشمع الأحمر في يد الشرطة .**
- **خذ الحكمة من أفواه ا انين، وبعد أن أخذ ا لم أعرف ماذا أفعل ا .**
- **قصة الحب التي تجري على الورق والمراسلات، نادرا ما تجد لها أقداما تسير ا على الأرض .**
- **نيرون أحرق روما وجلس - كما يشاع - يعزف أو يغني على الجيتار، فماذا عن الذي استطاع أن يحرق وطنا كاملاً دون أي آلة موسيقية؟**

اليد ذات الأصابع العبقرية في العزف والذبح والخطف والرسم الجميل

تعتبر اليد أخطر جهاز تنفيذي في الإنسان وبعض الأحياء الأخرى، وهي بأصابعها تختصر سماته الأساسية من جمال وشراسة ونظافة ونعومة وخفة وذكاء، تحدد المجال الجغرافي الذي يمكن للإنسان أن يعمل فيه، وعندما تصيبها العوائق تبدأ الأجهزة (الإنسانية) الأخرى في إعادة صياغة نفسها، وقد يقضي الإنسان عمره كله تحت وطأة إعادة الصياغة وستظل اليد العليا تعبيرا أثيرا عن النظافة والفضل والأخلاق الكريمة، وأخطر يد تلك التي تفتل أصابعها خيوط المشانق أو تشعل النيران أو تمتد إلى دمعة تمسحها من فوق خدّ محزون، لكنها - هذه اليد - تصل إلى شموخها حينما ترتفع إلى أعلى الأعلى رافعة لواء الوطن، أو متوسلة الطريق إلى اجتزاء المصدر الداخلي للألم، أو متـلـمسة أوتـــار الموســيقـى، أو معترفة بالإقرار كتابة عن حق لا يعرف طريقه أحد، أو مشيرة إلى ما قد يغيب عن الآخرين من أخطار.

وعبقرية اليد في أصابعها، ولها سحرها في الرسم والنحت والتدوين وكتابة الخط الجميل، وفي النشل من الجيوب، وفي التشبث بالصيد، وفي حياكة الملابس والمؤامرات وخدع السحرة والذبح والسلخ وخلع ذوي المناصب الكبرى، وهي قادرة على إبراز الإعجاب والاستحسان والرفض والقبول والتصفيق، ودرايتها معروفة في حك مصباح علاء الدين لإطلاق العفاريت والصواريخ والهيمنة على عجلات قيادة الطائرات، والسيارات، والجماعات والأفراد وسفن الفضاء، وخيول الأرض، والتقاط الديدان، وحفر القبور، واقتطاف الورد، وبعثرة الأموال، ونقب الحوائط، وتغيير صمامات القلوب، والسطوة على النساء والقوانين، وقطع الحبل السري للولائد، وتصل إلى قمة براعتها في التدليس والتزوير وبناء الشواهد وفقء العيون وإعادة صياغة التاريخ.

وأشهر الأيدي: استعمالا للسيوف عند خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص، وفي إطلاق النار عند أرسين لوبين (اللص الظريف)، وفي تقليب جيوب الآخرين عند على الزيبق، وفي فتح مغاليق الغموض عند شرلوك هولمز، وفي العزف عند روبنشتين شيطان البيانو، وعند الريس متقال في العزف على الربابة، وفي العزف على الكمان عند الإيطالي فيفالدي والمصري أحمد الحفناوي، وفي العزف على العود عند الإسباني رودريجو والعربي الشهير فريد الأطرش وجورج ميشيل، وفي الإمساك بعصا قيادة الأوركسترا عند الأرمني كرايان.

وقد انقضى العصر الذي كانت اليد فيه ترتاح لتضميخها بالحناء في الليلة السابقة على ليلة الهنا، وأصبحت نظيفة كريمة خاوية كيد حاتم الطائي، وانتهى بها الأمر إلى نوع من المبارزة أو المصارعة أو الملاكمة، حتى ولو كانت منسابة كأيدي راقصي الباليه وممثلي البانتوميم (التمثيل الصامت)، أو رءوما كالأيدى الممسكة بالطباشير تخط على السبورة السوداء ألف باء للأطفال، أو معقدة كتلك التي تستخرج من الكمبيوتر معلومات وبيانات مجهدة للعقل، أو هذه التي تمارس في عبقرية مستترة: إخراج الصفحات المطبوعة كل ساعة في جميع أنحاء الأرض، وهي التي تسبغ على حياتنا نوعا من الجمال اليومي المريح، لقد نجحت أحبار وألوان المطابع في احتلال المساحة التي كانت متاحة من اليد للحناء، دون اهتمام بفلسفة ليلة الهنا المأمولة دائما.

كلمات لها معنى

- **كلما اتسعت دائرة المحظورات حول المرأة، أصبح سهلاً على الرجل الانسلال إليها .**
- **المشاعر المرهفة: جحيم العصر الحديث .**
- **الأكوام التي نستتر ا تخفي عنا جمال الجبال والوديان .**
- **كثيرا ما يختلط الأمر عما إذا كان ناتجًا من تباين وجهات النظر، أو اختلال في النظر ذاته .**
- **ينتهي الموضوع الديمقراطي - دائما - بأن تقبل ما تقدمه إليك زوجة أبيك، وبنفس راضية .**
- **نتقبل الفرص الضائعة بالندم المغموس في الفضائل .**
- **كلما ازداد عدد الدجاجات انكشفت عيوب الديك .**
- **لاتزال الموائد العامرة ألذ مناسبة لحياكة المؤامرات المرعبة .**
- **مسألة لا اختيار لنا فيها: أن نستقبل شروق الشمس معا، ونواجه غرو ا بمفردنا .**
- **عندما تغمض المرأة عينيها، فإ ا تكون قد وهبتك فرصة الإمساك بأول خيوط المؤامرة .**

القدم

من قدم غراب هابيل، حتى أقدام مارلين وتيمورلنك وعبدالفتاح القصري وتشرشل وعبد الناصر

تقع القدم في نهاية الساق عند فصيلة الثدييات العليا - والتي ننتمي إليها نحن، ونهاية القوائم عند الفقاريات ذوات الأربع، وهي مركز الارتكاز والرقص والركل والحركة والتحرك، لكنها تستخدم - في كثير من الأحيان - في إبراز الكبرياء) وضع الساق على الساق مع هز القدم)، وفي التفكير (مخه في قدمه)، وفي التلامس الحذر للأمور الأنثوية الحرجة، كما أن بعض الأقدام تدر على أصحابها عيشهم: في الرياضيين ومحركي أنوال النسيج - من الطراز القديم - ودواليب القلل الفخارية، والمتراقصين أمام الأفراح، والضاربين الأرض بأقدامهم اعتزازا بالقانون والدستور، والمتربصين صمتا في التواءة مظلمة وبأيديهم السلاح، وفي هذه الحالة بالذات - التربص للقتل- نجد الوجه جامدا والأصبع مهيأ لتحريك الزناد في ثبات، أما القدم فتضطرب اضطراب الوتر، إنها تشي عما يعتمل أكثر من بقية أعضاء الجسد.

وأقدم قدم تاريخية هي للغراب الذي نبش الأرض ليحفر حفرة لجثمان هابيل بن آدم كأول درس لنا في الدفن، وقدم سراقة بن مالك التي ساخت في الرمال بعد أن ساخت قدما جواده حينما أسرع مبلغا قريشا عن اكتشافه مكان الرسول الكريم خلال هجرته، وقدم نابليون التي كانت تزداد اضطرابا حينما يواجه الأهوال، حتى أن البعض كان يظنه أعرج، وقدم المغني المصري عبدالعزيز محمود - وكانت من الخشب- وقد حاولنا استكشاف أيهما من قدميه دون جدوى، وقدم الممثلة مارلين ديتريش ذات الساق المتألقة والتي فتنت مشاهديها أعواما لابأس بها من القرن العشرين، وهناك أقدام تاريخية أخرى أقل أهمية عند تيمورلنك وعشيق الجاسوسة الشهيرة ماتا هاري، والمواطن الذي قاد الشرطة إلى مدافن ضحايا ريا وسكينة في الإسكندرية.

وأكثر الأقدام قوة ونحافة تجدها عند قادة الأوركسترا والسقائين والحمير والنشالين والنعام والخطافين وسقاة المطاعم وأبي قردان وحصان الفوارس - أي قبل أن يصل إلى مرحلة جر العربات - وأكثرها بطئا وهدوءا أقدام السفراء والأوز والبغال ومسترقي السمع وجامعي الأخبار وبائعي الكوارع وملاحي السفن حينما يصلون إلى البر. أما أكثر الأقدام مرونة ورهافة ودقة ورقة ونعومة فنجدها عند هواة استخراج الثعابين والعقارب، وراقصات الباليه، ولصوص تسلق الحوائط، وأبطال القفز الثلاثي والرباعي، والخصيان من حرس النساء في الأيام السالفة، والثعالب، وسندريللا، وأبي فصادة، ووزير الدولة المختص بأختام الملكة، واليمام - دون الحمام - والمصابين بالأنيميا الحادة، والشعراء الصعاليك - تأبط شرا والشنفرى - والغزلان، وقصاصي الأثر، وكلاب الصيد، والذين يفسحون الطريق لمواكب السلطة، والزنابير، وموظفي البنوك والمصارف المالية، وراقصات الأفراح المبتدئات.

أما أضخم الأقدام فيمتلكها المصابون بالنقرس والأفيال والخراتيت، ومضحكو الكبراء، ومديرو مكاتب ذوي الشأن، وأرامل الأثرياء، والعاملون في عصارات القصب والسمسم، وقراء المآتم، وكبار رجال الشرطة، وجمال الحقول - دون جمال الصحراء - والملك فاروق ، والذكر الأول المولود على خمس بنات، والخنزير، وعيدي أمين. أما الذين أجسادهم ضخمة دون أقدامهم فمنهم تشرشل والخليفة عبد الملك بن مروان والممثل عبدالفتاح القصري وكافور الإخشيدي والممثل تشارلز لوتون والشاعر كامل الشناوي وكلاب البوكسر الألمانية والإمبراطورية العثمانية. في حين أن الذين اشتهروا بصغر أقدامهم) الأقدام اليابانية) بما لا يتناسب مع حجم أجسادهم فمنهم بيرم التونسي وفكري أباظة وأم كلثوم ومكرم عبيد وماوتسي تونج وفاطمة رشدي وجان دارك والخبازون والعجانون والطائر أبيس. وهناك الذين يملكون أقداما قوية عريضة تتناسب مع هياكلهم (وتتجاوز مقاس 44) مثل ديجول وتاليران وليندون جونسون وجمال عبدالناصر ويوليوس قيصر وعبدالحكيم عامر ويحيى شاهين وعباس فارس وإيف مونتان وأنطوني كوين وعباس العقاد وعبدالمنعم القيسوني وموسوليني وجورج أبيض ويوسف وهبي.ولا توجد من النساء من تجاوزت قدماها هذا المقاس لأنهن لا يعترفن بذلك.

ولقدم الأنثى سحر معروف ينبع من قدرة القدم على اختزال كل جمال الجسد، مثل مارلين مونرو وجريتا جاربو، وأميرات الأساطير وحوريات النحل والفراشات والبنات الصغيرات قبل أن تداهمهن عوامل الطقس والتقلص والتمدد، وهو ما يسميه الجغرافيون :عوامل التعرية، ولعل ذلك ما أدى إلى هذه القيود المعدنية التي زين بها الشرقيون أقدام إناثهم - الخلاخيل - زمنا طويلا، ليس شكا في حركتهن بل إعلانا عن سحرهن، أو الشك والإعلان معا.

كلمات لها معنى

- **المنارات التي تسترشد ا السفن، تقام دائما على الصخور الشرسة .**
- **يبدأ الحب بحرفين يحللان الحمق والبراءة، ولا توجد حروف بعد ذلك تفسر ما سيحدث .**
- **أتود أن تستمتع؟ أنظر لوجه زوجتك حين تتكلم في حزن عن زلة أنثى أخرى .**
- **لكي ترتاح اجمع كل الورق الذي عندك والذي يأتيك، في ملف واحد: وثيقة الزواج وشهادات الميلاد وفواتير استهلاك الكهرباء والغاز والماء وإيصالات الضرائب والإيجار وصكوك التقسيط وشرائح ورق التنظيم وخطابات الغرام السابق واللاحق، بعدها يمكن لأحدكما أن يلقي بنفسه إلى البحر: أنت أو الملف .**
- **لاتنعلق بالحقائق الكبيرة، لأ ا كالأفيال، ذيولها رفيعة لاتصلح لذلك .**
- **بدأت تظهر ملابس عصرية لا تتقيد بالانضباط مع مقاييس الأجساد، استرشادا بالمشانق، لكي تعمل في حرية .**
- **كلما جالست مثقفًا ذا منصب، تذكرت وجوه العوانس .**
- **الشيوع الذي استشرى في الوجدان من أغنية فيروز التي أحبته فيها صيفًا، لم تمنعني من اختراق لذة الخريف .**

الحذاء

سيرا ورقصا وفنا وتسلقا للجبال

لعل الحذاء، والذي يرتدى في القدم، هو الجزء الوحيد من كل الملابس الإنسانية الذي خرج عن دوره الساتر ليصبح أداة اعتداء يعاقب عليها القانون، حتى ولو لم يحدث ذلك بالفعل اكتفاء بالنطق، أو اكتفاء بالإشارة التي تفسر النوايا.

والحذاء من أقدم ما استخدمه الإنسان حماية لقدمه أيام كان يتسلل فوق حشائش الغابات باحثا عن ثمار الشجر. وقد يكون الصندل هو الحذاء البدائي المناسب أيامها، والصندل الذي يرتديه تمثال رمسيس الثاني الضخم في (أبو سنبل) يعطيك إحساسا بأن تطورا واضحا - وطويل الأمد - قد تحقق منذ أن كان الصندل مجرد (مداس) منتزع من جلد مؤخرة الديناصور، ولا يزال لفظ المداس مستخدما في مواقع عربية كثيرة مصدرا من) الدوس)، ولغة سليمة تشمل جميع أنواع الأحذية، بصفتها غطاء واقيا للقدم، وكان يصنع منذ بكوره من الجلد، قبل أن يداهمه العصر الحديث بالمواد البلاستيكية، واستخدم - مع مصر - في حضارة ما بين النهرين ثم في بلاد الإغريق والرومان. وجاء أيضا إشارة للزراية والاحتقار في أغاني الرعاة القدماء الذين اجتاحوا أوربا، وهناك أنواع من أحذية الركوب (ركابات) استخدمها الهكسوس والجرمان والوندال وأهل النوبة في التعامل الخاص مع الحصان أو الحمار، ويظهر في السينما الأمريكية اهتمام واضح بنوعية متألقة - وبسيطة - كان يرتديها أعضاء مجلس السناتو (الشيوخ) الروماني في (يوليوس قيصر(، كما أن اليزابيث تايلور أدت دور كليوباترا وفي قدميها (شبشب) خفيف ورقيق مما يصلح لإثارة الوصل والود بين العرسان المعاصرين - في الريف المصري بالذات، ومن قديم الزمان استخدم ذو الرقبة للسفر والصيد، كما استعمله ممثلو المسرح الإغريقي، وكانت ذات نعال سميكة لتصبح معمرة، وفي أدوار الآلهة والعواهل والعظماء كانوا يبالغون في ارتفاع رقبة الحذاء، والتي تصل إلى ما ترتديه فصائل معينة من الشرطة وعمال رفع قروانات مواد البناء (يسمى الحذاء هنا الكذلك)، كما أن أنواعا من الأحذية الخشبية عرفت مبكرا، واستخدمها الفلاحون في شرق أوربا في القرن السادس عشر، ومع مرور الزمن تم تثبيت الصندل الخشبي في الحذاء الجلدي، ومن هنا ظهرت فكرة الأحذية ذات الكعوب، والتي فيما يظن كانت ترتدى لأسباب طبية حتى تحافظ على الاتزان الجسدي للبشر ذوي الخلفيات السمينة، كما أن تحويرات كثيرة واجهت الحذاء كي يصلح لاختراق المستنقعات، وصل ارتفاع بعض الأحذية مثلا إلى الأفخاذ، ومنها أحذية مدببة من الأمام، وبعضها ذو بوز طويل لدرجة أن مقدمها كان يربط بركبة صاحبها بسلسلة، وهناك أحذية عريضة المقدم، وأخرى ذات نعل سميك مبالغ في سمكه، كما أن الفرنسيين وفي وقت مبكر - قبل الثورة الفرنسية بقرنين - صنعوا الحذاء ذا الكعب العالي للنساء والذي يكشف عن مدى خفتهن ورقتهن. كذلك ظهرت اتجاهات تجميل الأحذية بالحلي والمعادن الثمينة، والمواد البللورية العاكسة للضوء، كما حليت بالأشرطة والزهور، وثمة أنواع مصنوعة أصلا من الفراء ولم يكن يستعملها في أوربا إلا أهل الشمال سكان مناطق الجليد، والأثرياء من اللوردات والدوقات ونساؤهم من أهل وسط وجنوب أوربا. وفي شمال أمريكا استخدم الهنود الحمر أحذية من جلد الغزال مصنوعة من قطعة واحدة تسمى (موكاسين)، وفي المغرب - وكان أيضا في مصر منذ ثلاثين عاما، كانوا يستخدمون أحذية من قطعة واحدة من جلد الجمل، تعالج بالدباغة وتعيش طويلا ولها أناقتها الخاصة، حمراء أو في لون الحناء بالمغرب، وزيتية أو ذات لون بني محروق في مصر، وتسمى بالمركوب، وجمعها مراكيب، ومنها جاء حذاء متسلقي الجبال، والذين يحدون الجمال مسافات طويلة.

وفي منتصف القرن التاسع عشر ابتكرت آلات صناعة الأحذية التي اختصرت جهود الحذائين أو (الجزمجية) باللهجة المصرية الدارجة، كما استطاع ليمان بلاك الإنجليزي تطوير الآلة وجعلها تخيط نعل الحذاء - ذي الجلد السميك - مع وجهه ذي الجلد الأرق مما أحدث تغييرا في صناعة الأحذية، جعل إنتاجها الوفير يتوجه إلى الفقراء الذين كانوا - عادة - لا يرتدونها، لاسيما من كانوا من طبقة العمال، وبمرور الوقت تطورت هذه الصناعة حتى وصلت إلى نماذج سائدة تكاد تنتج بكيفية واحدة في معظم أنحاء العالم (ستاندرد). غير أن ذلك لا يحول دون أنواع من الأحذية لها وقعها التاريخي في نفوس البشر، حذاء سندريللا الذي انخلع من قدمها عندما أزفت الساعة التي حددتها الساحرة لانتهاء الوقت المناسب للرقص، وقيام الأمير - الذي هام بها حبا - للبحث عنها وفي يده فردة حذائها، كذلك مجموعة القباقيب - بصفتها أحذية بدائية - التي استعملتها جماعة (أم علي) من المماليك لقتل شجرة الدر، والتي سبق لها أن قتلت زوجها الحاكم في نفس المكان (الحمام). وهناك - خارج التاريخ - وداخل مملكة النباتات نجد حذاء الست : زهرة برية من جنس الأوركيدا ذات أزهار صفر أو بيض أو وردية، وتعيش في الشمال الأمريكي، وفي المملكة الاجتماعية نجد أحذية خاصة كانت تستخدم لحلقات) الزار) في مصر، وفي المقابل أحذية ذات تكوين رقيق خالص تستخدمها راقصات الباليه، وظهرت أحذية أخرى للمبارزة وللسير على الشاطئ وراقصات قاعات اللهو ولاعبات الجمباز ومتسلقات سلالم السيرك، كما أن في الشارع المصري أنواعا من الشبشب البلاستيك المدلل بـ (زنوبة)، وكان المحكوم عليهم بالإعدام - في القرون الماضية - يستخدمون نوعا من الأحذية الواسعة حتى لا تسيل نقطة دم واحدة من الرقبة إلى الأرض، وكانوا يسمونها) الجزمة) والتي يخلو منها القاموس العربي، لكن اللفظ تسلل من غرفة الإعدام حتى أصبحت الجزمة اسما لجنس الأحذية، دون اهتمام بحكاية التسجيل في القواميس.

كلمات لها معنى

- **أصبحت الاستعادة مؤلمة ومستحيلة: للكتب والذكريات من الماضي، وللابتسامات في الحاضر .**
- **الأخلاق الكريمة تأخذ استمرارها من المنطقة الدافئة للمشاعر :الحب .**
- **المبالغة في الثقافة مثلها في النظافة: مرض .**
- **الضباب: غيم غرير مراهق...يحول دون الرؤية الصحيحة .**
- **الجبانة هي المكان الواسع الذي تدفن فيه الأجساد دون النظر إلى أ ا لشجعان يخلون من الجبن .**
- **لايزال السلام يعني عند المقهورين مجرد توقف المدافع .**
- **الصداقة كالكلاب: تتعدد أنواعها وأحجامها وتفاصيل أجسادها وتنوع عادا ا، وتتحد في لغة المخاطبة: نباح واحد غليظًا كان أو رفيعا .**

مرة أخرى .. القلب.. من الحنان إلى الحجر

مع أن علماء التشريح والنفس نقلوا مراكز الإحساس إلى المخ، واعتبروا القلب جهازًا لضخ الدم له ردود أفعال فقط، فإنني اعتبر القلب موضع كل إحساس من الحب إلى الغيرة إلى الحقد إلى الرغبة الجارفة التي تؤدي إلى الهلاك، انظر إلى قلب العجل في الطاسة محاطا بالفلفل الأخضر والسمن البلدي وأنصت جيدا إلى طشطشته عندما تداهمه النار، إن قدراً هائلاً من الأحاسيس يتسامى في رائحته الشهية، ولذا فإن الأطباء ينصحون مرضى الكولسترول والنقرس بعدم أكل القلب تخفيفاً عن باقي مشاعرهم القديمة، وأعظم قلب هو قلب الأم - وأحيانا قلب الجدة والجد، ويأتي قلب الأب في المرتبة الرابعة ويحتل قلب الزوجة المرتبة الثالثة في الشهور الأولى من الزواج، ثم يتراجع في سرعة محسوبة ينظمها القانون الذي اكتشف حديثًا: وزن القلب - طول اللسان - حجم العيون والناتج يقسم على حاصل ضرب طول زمن العِشرة - المرتب الشهري، ويميل مدرسو علم الأحياء إلى التعامل مع قلوب الضفادع بديلا لعموم القلوب، لأنها أرخص من قلوب القرود، وقلب الأوضاع هو قيام جماعة مسلحة بقلب الأوضاع في سبيل العدل، حيث يظل الكل مقلوبا: الأوضاع والعدل والجماعة المسلحة، والقلب الكبير هو قلب الجمل - يمكنه أن يشبع تسعة من أفراد قبيلتك الجائعة، وقلب فريد الأطرش، وصغار الأطباء في بداية حياتهم المهنية، والمرابين حينما يغسلون مكاسبهم الضخمة بمياه التبرع للفقراء، والقلب واحد من ثلاثة يصابون بالتضخم وهم الاقتصاد والقلب والكبد، فتداهم الثلاثة أمراض تصلب الشرايين والحب المفرط والحقد الأسود، كما أن القلب هو أول أهداف رصاص الاغتيال، وأول ما ينصت إليه طبيب المشنقة فور الإعدام، وأول ما يتلمس العاشق من دقات التجربة الأولى، وأول ما يدخل عناوين القصص والقصائد المبكرة دقات قلب وقصة قلبين وقلب من حرير - مع أن هذا التعبير مجازي رديء ومثله قلب من ذهب - ويطلق عادة على رؤساء التحرير دون انتباه لبرودة الحرير والذهب، أما ذوو القلوب التي من حجر فهم سائقو القطارات، وباعة عظام جثث الموتى لطلبة الطب، والسفاحون، والضبع، وبعض الذئاب، وتمورجية (ممرضو) المستشفيات، وحراس أديرة الرهبان، ونظار العزب، ووكلاء الأثرياء، والعقيمون من البشر: إنجاباً أو إنتاجاً أو موهبة. أما ذو القلب الواسع فهو الحليم الذي نادرا ما يغضب حيث يصبح قلبه كالفندق يكثر رواده ومستعملوه، وكان معن ابن زائدة ذا قلب من فئة خمس نجوم، ويليه من فئة أربع نجوم: حاتم الطائي، ثم ثلاث نجوم: زكريا الحجاوي، أما أصحاب النجمة الواحدة والاثنتين فهم كل القلوب الغلبانة المتناثرة على أرصفة الثقافة المعاصرة.

كلمات لها معنى

- **كل ارات العالم لا يمكنها أن تصلح من شأن طعام تعده نفس غبية .**
- **إن عذاب الدنيا لا يقل هوانا عن عقاب الآخرة: حكمة جاءت متأخرة من بغداد .**
- **للشر جمع: شرور، وهذا قدره .**
- **ذات أمسية ذكرها بأول لقاء لهما، فانتابتها سعادة طفولية أسقطت طقم الأسنان من فمها .**
- **ارتطمت يده بصدرها، فتفجرت حكاية طويلة استغرقت خمسة أطفال وثلاثمائة جنيه نفقة شهرية .**
- **والكارثة أن الجميع يعلمون أن النساء تشتعل ذاتيا لسوء التخزين .**
- **لم يكن بائسا بالقدر الذي يجعله يستمر، فقد مات دون أن يكمل العام متزوجا .**
- **مخالب حدأة وأنياب ضبع وحركة ثعلب، ملخص كامل لمذكراته .**
- **لا تقلق فكل الأزواج ينظرون أولاً في عيون زوجا م، بعدها تتجمد نظرا م طويلاً حول رقا ن .**

السفر

إنه السفر: هذا الارتحال من مكان لآخر، بالأقدام أو على جمل أو فيل أو حوت أو سيارة أو سفينة أو طائرة أو صاروخ، أو حتى - رعاك الله - على الأكتاف، من بيت لبيت أو من خيمة لخيمة أو من بلدة لبلدة أو من قارة لقارة، وقد بدأ يزحف على السفر الارتحال من كوكب لآخر، ولن يكون مدهشاً أن تكون أنت من كوكب الأرض وأصهارك - أهل زوجتك - من زحل، وربما يكون مرهقاً أن يكون ابنك الأكبر يعمل في المشتري بعد أن واجه بعض المتاعب في كوكب نيبتون، ولذا، فسوف يظل السفر وراء الخيال الخصب في الشعر والرواية وشجن الموسيقى المتوائم مع تداخل خيوط القماش واستدارات القباب وشموخ المآذن وأوار النار شواء لحمل أو جدي أو حتى أرنب، وما يكاد هذا الشواء ذو الرائحة المثيرة للاشتهاء حتى يتحول السَّفَر إلى سُفْرة: تلك المائدة اللذيذة التي أخذت اسمها - السُّفْرة - من التحية الكريمة والهانئة من الإحساس الغامر بما يعانيه المسافر، لكن أمر السُّفرة يتسع حتى يشمل ما على المائدة من طعام، وكلما ازدادت أنواعها تألق الكرم دون أن ينتبه أن السفرة هي الجزء الخلفي أعلى الثوب في الزي القروي بالجلباب، وهو ما بدأ يندثر تحت سطوة أزياء وافدة تتلاءم مع الحداثة ومع الأغاني الراقصة الضاجة المتقافزة دون ثبات شكل معين - ولو بعض الوقت.

إلا أن السفر - بمعنى الارتحال - ظل منذ فجر الحركة الإنسانية الحيوية في الانتقال وراء لقب السفير: ذلك الشخص الذي يمثل الجماعة البشرية لدى جماعة أخرى، ليتطور الأمر به ليصبح الدبلوماسي في العالم العصري المتّسع في الدبلوماسية، أو السّلك الدبلوماسي، والذي يدرس في قواعده وأعرافه وتقاليده والصفات الخاصة لمن يعملون داخل مجاله في أرقى أنواع الكليات والمعاهد، وربما يكون ذلك وراء اختباء السفر وراء السفور، والمعنى المعروف للسفور هو أن تكشف المرأة عن وجهها، ويقال: سفر الصبح: أضاء وأشرق، وسفرت الشمس: طلعت وبدأت تضيء الكون بأشعتها في وقت مبكر، وأسفر وجهها - أي وجه الأنثى حُسْناً: أشرق وعلاه جمال، أما إذا أسفر الرجل فهذا يعني أنه خرج للارتحال، فإن قامت الريح بسفر الغيم عن وجه السماء فإنها تكون قد كشطته وكشفت عن الصفاء، فإن حدث هذا السفر للبيت فإن السفر هنا يعني الكنس والتنظيف، ومنه جاءت السفارة: أي الكناسة، وإن ارتبط فعل السفر بالكتاب فيعني أنه تم كتابته، ومن هنا جاء السِّفرْ، والذي منه تقسيمات التوراة - كتاب اليهود المقدّس - إلى أسفار: سفْر التكوين وسفر الرؤيا وسفر الخروج... إلخ، لكن مقدم الرأس - إذا انسفر من الشعر فإن صاحبه يصبح أصلع، أما السافر - اسم الفاعل من السفر - فهو المسافر، والكاتب، كما أن السافر هو الملاك المكلف بإحصاء أعمالنا تمهيداً للحساب في الآخرة، وفي التنزيل العزيز بأيدي سفرة، كرام بررة، أما إذا جاءت سافر صفة لكائن مثل الخروف فإنها تعني نحوله ونقص اللحوم في جسده، والسافير: الياقوت الأزرق، أي معدن (الكوراندوم) المركب من أكسيد الألمونيوم، ويعد من الجواهر النفيسة، وأنا شخصياً - الذي يكتب الآن - أسمع وللمرة الأولى عن هذا الياقوت الأزرق الملقب بالسافير، والذي موطن تعدينه: سيام والهند وبورما وأستراليا، إلا أن أنواعاً جديدة من فعل السفر تدخل الساحة متجاوزة هذا المعدن الغامض المشار إليه، فقد تجاوز لقب السفير الرسولَ بين قومين، والمصلح بين مجموعة متخاصمة، ليعني: السمسار (أليس السمسار وسيطاً في التسويق؟)، ثم: السفير هو العالم بالأصوات والحاذق في إدراك قدراتها وتكويناتها، والسفير - أيضاً - هو الظريف العبقري، ولعلّ ذلك يدفعنا أن نمنح لقب سفير لهذا النوع من الظرفاء العباقرة الذين لا أميل إلى ذكرهم - الآن - هنا، لكن السفير لا يلبث أن يصبح معناه: أسافل الزرع، أو ما سقط من ورق الشجر، ولعل ذلك وراء إطلاق كلمة السفير على ما تحمله سنبلة القمح من قش يحفظ حبوبها قبل أن يتم حصادها، فإذا تم تأنيث هذا السفير بمعناه المتوالي فإن السفيرة تعني القلادة العارية دون أي غطاء زخرفي - وتكون عادة من الذهب أو الفضة.

ومع كل ذلك فسوف يظل للسفر أرقى ثلاثة معانٍ بين كل هذا الحشد، المختصر، السفر بمعنى الارتحال وهو متعة عصرية يفتقدها ولا يدركها كثيرون ممن يسافرون من أجل المهام العسرة والقضايا المرهقة، ثم السفر الذي يتوالد منه معنى الأسفار ليصبح فاعلها سفيراً، لكن السفر يعلو حين يصبح - بعد تسكين الفاء - كتاباً راقياً يكون سلواناً لك في عالم معاصر بالغ الضجيج والعداء لكل ما هو هادئ، والذي نصبو إليه - هذا الهدوء - بتناول ثمر السَّفَرجل كي يتم تنظيم الهضم وتسهيل عمل الأمعاء، أو أوراقه التي يكون غليانها على النار هو التمهيد لنوع من الاستشفاء من أمراض عديدة في الجهاز الهضمي والأعصاب ودورة الدم، لا يمكن لنا أن نقوم بالسفر - أو القراءة - أو الكتابة - أو الإمعان في الكون إذا ما وقعنا فريسة له، أما السفرجل ذاته فيمكن لك سؤال أهلك وذوي التجارب من قومك عنه، إذ إن المخ الحديث يسعى - جاداً - نحو عالم مضطرب لا يصلح فيه جمال السفر، أو متعة احتساء شراب السفرجل.

كلمات لها معنى

- **الوحيد الذي أتغاضى عن وجهه العبوس :**
- **الصراف الذي يبدأ فيجهز لي مرتبي .**
- **الذئب لا يعوي رد المرح .**
- **انظر إلى عيون القناطر حين يتوقف وميض الماء فيها وتسعى للسكون، أنا لا أقصد الأنثى .**
- **القيمة الأساسية للذهول تعني أن ثمة مخّاً يعمل قد أصابته بعض العوائق، كثيرون يبتسمون دون أن يذهلوا ولو مرة واحدة ..**
- **النجيل أكثر ذكاء من النخيل، يكفيه أن يظل مستفيداً من ظله الممتد دون أن ينتبه إلى أن النخيل يظل يفتخر بشموخه في الصهد الحارق، دعك من أنه يتعرض للدهس بالأقدام .**

الجسر

ظللت المليون عام الأولى من عمري، والتي قضيتها في قريتي، لا أجسر على أن أتصور أن كلمة (جسر) تعني المعبر أو الممر أو القنطرة، والتي تكثر في منطقتنا، حيث تلف وتدور وتخترقها: ترع الديروطية والشريفية، ثم شرقاً الإبراهيمية، وغرباً بحر يوسف، إنها منطقة زاخرة بالجداول والترع والقناطر والكباري، غير أننا حين نستخدم كلمة (جسر) فإنها تعني مباشرة: المنطقة المجاورة للشاطئ، غرب الجسر - بالنسبة لنا - هي تلك المساحة الشاسعة بالغة الشاعرية من وادي بحر يوسف، والتي تقع فيها عدة قرى أشهرها دشلوط التي ينتمي إليها الشيخ محمود أبو العيون شيخ الأزهر الشريف في أواخر الأربعينيات، لكني - حين تحركت من قريتي إلى القارات المصرية الأخرى، فوجئت بأن الجسر يعني المعبر والممر من شاطئ إلى آخر، ليبدو سهلاً أن أفهم - في حدود عمري ذاك الوقت - رواية (جسر على نهر درينا) لليوغسلافي إيفواندريتش، والتي حاز بها جائزة نوبل العالمية في الأدب عام 1961، لاحظ أن تصنيف أندريتش بأنه يوغسلافي قد أصبح مجازياً بعد أن تفككت يوغسلافيا الآن وعادت إلى تصارعها الدموي بين مختلف القوميات والعقائد، ثم هناك العمل الروائي السينمائي الشرس والجميل: (جسر على نهر كواي) والذي أخرجه دافيد لين الشرس، وقام بالدور الأول الأمريكي وليم هولدن، مع أن الدور الأول الحقيقي كان للممثل الإنجليزي إليك جينيس الذي قاد فيلق الجيش الغربي المحاصر - في جنوب آسيا - بالجيش الياباني، حيث - بصفتهم أسرى في المعسكر المختنق - نفذوا إنشاء جسر على نهر كواي، وكان هؤلاء الجنود البريطانيون هم الذين استخدموا في التجربة الأولى لعبور النهر فوق الجسر، ذلك الذي قامت القوات الغربية بمهاجمته وتدميره دون اهتمام بأهلهم ومواطنيهم العابرين عليه، والفيلم ضد الحروب ونواتجها المروعة. أما الجسر الآخر - الشهير جدا - فقد كان الخاص بموقعة)وولترلو) في الحرب العالمية الثانية، والذي قام بتمثيله النجم - الشهير جدا أيضا - روبرت تايلور، وقد أنتج هذا العمل عام 1940 في أثناء الحرب العالمية الثانية، أما) جسر الأشرار) فهو فيلم لا يذكره أحد، أنتجته سورية عام 1972، وقام بأداء أدواره طاقم مصري على رأسهم الراحل فريد شوقي، لاحظ أن الذاكرة السينمائية - والتلفزيونية أيضا - التي تهيمن على أنواع الجسور هي الظاهرة المعاصرة التي وقعت فيها - أنا - دون أن أستدرجك - يا صديقي - إلى جسر قصر النيل في القاهرة، حيث لا أحد يربطه بكلمة جسر، إنه الكوبري الذي يربط وسط العاصمة بحديقة الأندلس، والتي قامت فيها الآن دار الأوبرا المصرية ذات الجمال المتألق، وخلفها مباشرة جسر صغير: كوبري الجلاء، الذي يربط مدينة القاهرة بالجيزة لتصبح (العاصمة الكبرى)، هذا الجسر كان يحمل اسم الراقصة الشامية (بديعة مصابني) والتي لا تعرفها الأجيال التي جاءت بعد ذلك، وكانت ذات شهرة في إقامة الحفلات، إلا أن كوبري قصر النيل كان أكثر وقعاً في فؤادي شخصياً، حينما عانيت من فشل - أو خيانة - لبطلة قصة حبي المبكرة في العاصمة خلال الخمسينيات، كانت حالات الانتظار الفقير - والرومانسي - هي الجسر الحقيقي الذي دفع بالرؤى والأمنيات إلى القفز في الهواء لتسقط في النهر، إلا أن السلوان كان في كوبري المعاهدة، وهو الجسر الذي أقيم عام 1936 فوق ترعة بحر يوسف ليربط منطقة قريتي غرباً وشرقاً، وقريباً منه تشمخ قناطر ديروط بالغة الجمال الهندسي المتعدد الترع والجداول التي تتفرع منها شمالاً وغرباً وشرقاً، كي أذهب إلى هذه القناطر - حتى الآن - كي أستقبل شروق شمس ديروط، مع قليل من ذكريات مراحل الصبيانية، والتي كانت أكثر دسامة ونشاطا وتواصلاً من مرحلة القاهرة، حتى الآن، لقد كانت أم الجسور التي عبرت عليها، وامتلكت موقعا للإقامة قريباً منها...

كلمات لها معنى

- **سوف أنصحك نصيحة هي الحاسمة في حياتك، تلك التي أثرت في حياتي بشكل عميق ومؤثر، آهـ.... لقد نسيتها الآن، سأحاول أن أتذكرها .**
- **-حاول - حين تسترخي فوق مقعد على الشاطئ - أن تظل عيونك تتهادى فوق المياه ذات الأمواج الناعمة، ثم عليك أن تنتبه أن ذلك لن يستمر طويلاً، دعك من العواصف والأعاصير وعيون زوجتك، أنا لا أقصد ذلك، ارجع إلى فراشك أفضل .**
- **دعك من إحصاء ثروتك من نقود، وكن مثلي، أي تستر في ظلال الصفر، الرقم الوحيد الذي لا ظلال له .**

السوق

التي تتحكم في أسعار الغذاء والفخار والنساء والرجال والبترول والسلاح وقصائد الشعر، وأشياء عديدة أخرى.

كانت أختي الكبرى ترتب أرديتها ـ الشال بالذات فوق الرأس ـ وتسحبني من يدي لأهبط معها في الطريق المؤدي إلى السوق، وأظل أتصادم في سيقان وأذرع الناس المتجمعين زحاماً ونقاشاً وهمساً ـ مع استهلاك كمية وافرة من أصوات الحلف والقسم لتأكيد الثقة، كان سوق القرية مفعماً ـ في يومه الأثير ـ بالجبن والزبد واللحوم وليف النخل والحصر (جمع حصيرة) والكليم (السجاد البلدي) والأواني والبقر والبلح والغرابيل والماعز والفلفل والكمون والملح والأرانب والدواجن ومسحوق قرون الخراف) لعلاج البواسير) وقطرة العين والغلال وعلب دهن إحليل التمساح والجلود والقرب (جمع قربة) والجحوش وبقول الفول والبصل والأمشاط والفلايات (تسريح الشعر) وأكواب الصفيح والزجاج وغلايات الشاي وكنكة القهوة وزيوت دهان الجلد (تخفيف الجرب) والحلبة والعدس، ومواد أخرى عديدة لترويق الماء، ومناديل أحمر الخدود والكحل ومشدات الصدور والبامية الناشفة وشخاليل العيال ومناديل الرأس وألواح تعليم الكتابة في الكتاتيب، ثم الجوارب الشرابات (الجوارب) والصنادل والقباقيب وسكر النبات والينسون وشباك الصيد والكركم (يعطى المأكولات لوناً أصفر مبهجاً وطعماً خاصاً ـ كما يستعمل لعلاج دود البطن)، والعقود والحلقان (جمع حلق وهو القرط) والأساور (كانت نحاسية أوبرونزية) والحناء والبطاطا وقراميط السمك، وبذور الفجل والثوم، ثم أكوام البصل ـ والثوم أيضا ـ والردة والنخالة وحبوب البرسيم والجير النقي (لمعالجة شعر الجلود مع القرظ) والتلافيح وقماش الغزول (نوع رخيص ومتين في قلوع المراكب)، وغير ذلك من أشياء وعناصر وتكوينات ومسائل تتسامى رائحتها فتصنع للسوق ـ مع الغبار المثار بين الأقدام ـ شذى خاصاً لا يتكرر في أي موقع في قريتنا، ولا في أي يوم آخر، وعلى رأسها جوال صغير مليء بالبطاطا والبرتقال، لنعود إلى البيت. ومنذ ذلك الحين ظل شذى سوق قريتي ينخر في أنفي ـ وجمجمتي، ويصل أوجه آخر النهار حينما تشتعل الكوانين تحت أواني الطبيخ ـ باللحوم أو دونها، حيث تخترقني رائحة قدحة الملوخية لتطش في مركز ذكرياتي. إنني الآن أجلس خارج القرية أكاد أمد يدي إلى أي أخت في العالم كي تسحبني ـ طفلا ـ إلى بطن السوق، التي كنت أعتقد أنه لا يوجد سوق سواها (على فكرة: السوق تذكر وتؤنث) غير أن الأسواق كانت خارج سوق قريتي، سوق غير معلنة (لم أقل سوقاً سرية) تقوم بتسهيل أو تنشيط التزاوج، ثم هناك السوق المقامة طوال العام لترويج المخدرات والمؤثرات في العقل والأعصاب، وسوق الخبص واللمز والنميمة التي تعنى بنشر الكراهية والشائعات وعناصر الأخلاق السيئة، والعواصم ـ كل العواصم ـ تكون مركزا لتسويق السيارات ونجوم التمثيل والآراء الهدامة والجرارات والأفكار المناوئة لأي نظام قائم والتليفزيونات واستخراج تقرير طبي يساعد على الهروب القانوني من الخدمة العسكرية، كما أن للأشياء القديمة ـ الملبوسات بالذات ـ أسواقها الخاصة، في القاهرة، مثلا ـ سوق الكانتو في العتبة وهي التي يلجأ إليها كثير من منتجي الأفلام السينمائية للحصول على الملابس المناسبة بسعر رخيص وسوق السبتية ـ وراء بولاق ـ وتتعامل في كل شيء تقريبا، من الملابس ومواد التجميل حتى أجزاء من السيارات والقاطرات والطيارات ومدافع الهاون.

وتكاد كل قرى مصر تنظر بعيونها يوميا نحو الأسواق، فقد اعتادت أن تنسق بين أيام أسواقها حتى لا يتطابق سوقان لقريتين قريبتين في يوم واحد، وهو ما يساعد ـ بالطبع ـ على ترتيب الحصول على المراد دون اضطراب، وخصوصا أن كل سوق ـ مهما اكتملت ـ تكون قاصرة في نوع ما، فمثلا قريتنا ـ ديروط الشريف ـ تقوم بها سوق للفخاريات، وكانت تهتم بهذه الصناعة دون باقي القرى القريبة، ولا تزال أطلال (الفواخير) قائمة قريبة من السوق حتى الآن بالرغم مما أحدثته التطورات الأخيرة من تقليص التعامل في هذا الصنف من المشغولات اليدوية المشكلة من طمي النيل بمواصفات خاصة وإضافات خاصة أيضا، وكانت سوق الفخار تشع بالجمال الناجم عن ترتيب الوحدات المتماثلة في تشكيلات ذوقية، الأزيار الكبيرة تحوطها أزيار صغيرة، القلل الحمراء، وهي غير القلل البيضاء) القناوية) وقد برزت زخارف رقابها الممتدة إلى أعلى، أو زخارف أجسادها المتكورة إلى أسفل رسوم بالسليقة لزهور ورءوس طيور، ثم المناطيل (جمع منطال: أوان فخارية يستخدم بدلها الآن الأكواب) مرصوصة قريبة من الأزيار تمعن فيها وتحاول أن تقترب منها في حب أبوي أو أموي ـ أيهما أعمق وأدفأ ـ المواجير (جمع ما جور) الخاصة بالعجين، وقد احتوى الأوسع الأقل وسعاً في جوفه حتى يبدأ صف المتارد (جمع مترد ـ ماجور صغير (ومنها جاء اسم مأكول الثريد الموروث، صحاف سمك الفرن بالبرغل (نوع من الفريك المصنع من حبوب القمح) زلعة تخزين السمن وبجوارها الزبدية التي يتوقف عملها عند التعامل بالزبد، أنواع أخرى عديدة من الأواني تساقطت أسماؤها من الذاكرة لكنها لا تزال حية :قدرة تدميس الفول أو انضاج اللحم الجملي تلك التي كانت تدفن في تراب الفرن فور انتهاء الخبيز ولا يتم الاقتراب منها إلا بعد نصف يوم، وأجمل عدس بالبصل والزبد والثوم والفلفل تذوقناه منها، ثم صفوف من أزيار صغيرة يحفظ فيها اللبن الحامض عاماً كاملاً حتى يصبح لبناً معتقاً هو العنصر الأساسي في صناعة الكشك، بلاليص تعتيق الجبن وحفظ اللفت والعسل الأسود، جرار نقل الماء وأباريق تبريدها وتثليجها، ثم هناك الأواني الفخارية المفلطحة التي يسهل على الجمال والأبقار والشياه والماعز والأرانب والدواجن تناول المياه منها. سوق الفخار هذه ثابتة تلحق بالسوق الأصلية، ويعاد تنظيمها كلما هل يوم السوق الأسبوعية، ويكو ن معظم عملائها من النساء الريفيات. كان ذلك قبل أن تنتشر وسائل النقل وتتطور وسائل تسويق البضائع، وقد اندثرت أنواع كثيرة من بضائع هذه الأسواق وظهرت بدائل بعضها في أكياس بمحلات (السوبرماركت) والمحلات المتخصصة في الأواني، لا سيما أن التغييرات التي داهمت العادات كان لها تأثير كبير في ذلك. وقد كانت الأسواق جزءاً من تاريخ أية أمة ـ حتى ولو لم يتم تسجيلها في كتب التاريخ، لكن أشهرها ـ بالطبع سوق عكاظ التي اشتهرت في الجاهلية، وموضعها بين نخلة والطائف وذي المجاز، وكانت تجتمع فيها القبائل عشرين يوماً من بداية هلال ذي القعدة، وسبب شهرة هذه السوق ـ كما هو معروف قيام الشعراء بإنشاد الشعر وإلقاء ما استحدثوه من التفاخر والحماسة والمجادلة وقد تطور ذلك إلى المؤتمرات الأدبية المنتشرة في ربوع العالم العربي ـ سوق للشعر فقط دون الأشياء الأخرى، ذلك ما بدا منفصلا عن السياسة مثل سوق ليبزج في أوربا، وكونتيكت في أمريكا، ومونتريال في كندا، أو ما كان قائما على مباديء سياسية بحتة كالسوق الأوربية المشتركة، وأخطر الأسواق هي أسواق البترول وأنشطة البورصات العالمية، وأسواق السلاح، والسوق السوداء التي تنشأ موازية للسوق المعلنة وتقضي عليها، ثم أسواق العبيد التي اندثرت تحت سطوة استعباد اقتصادي من نوع آخر.

كلمات لها معنى

- **تصادم الأكتاف ليس بسبب الزحام، إنه التفاتل .**
- **لماذا نشأت السلالم؟ الإجابة: للصعود إلى أعلى حتى السطح، لا أحد يذكر في إجابته الهبوط .**
- **أخطر ما في المرض ليس الألم، إنما الإنصات الشديد لما يحدث .**
- **كلما شاهدت قردا يقفز فوق الأغصان، روعني ما حدث لي .**
- **الطمي مغرم بالزرع، الرمل مغرم بالأجساد، ولكل مشاربه .**
- **الأخبار التي تأتينا من عمق الليل، نادرا ما تتسم باللياقة .**
- **كل إناء ينضح بما فيه، فماذا بعد أن أصبحت كل الأواني معدنية؟ !**

البريد

هذا الذي يحتوي النشاط الإنساني من عصور الحمام الزاجل حتى مرحلة الفاكس.. وأمورا أخرى

البريد - في اللهجات العربية المتأثرة بالوافد من لغات أجنبية البوستة، والطاء أكثر صدقا من التاء. البوسطة، وفي حقبة الأربعينيات من هذا القرن انتشرت أغنية شهيرة على كل الألسنة حيث كانت تشدو رجاء عبده (البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلي)، أي أن عمال البريد أرهقوا إرهاقا قاسيا - إلى حد التشكي - من كثرة مراسلاتها إلى ذي القلب الجامد، القاسي، ولعل شكري سرحان - الممثل الراحل - أدى أجمل أدواره في فيلم يحي حقي الرائع: البوسطجي هذا الذي كان قدره في صعيد مصر في عصور مصادرة العواطف وأحاسيس الغرام كما يعتقد كثير من الذين لا يفهمون الصعيد - حيث أودى به السأم والملل إلى التسلل لمضمون بعض الرسائل، والتي كان من بينها رسالة تكشف عن أخطر ما يمكن أن يحدث في هذه النواحي: الغرام، لتكون النهاية المقومة: ضياع طرفي العلاقة، وأقدم نص لغوي وردت فيه لفظة البريد كانت فيما روي عن الرسول الكريم أنه - صلى الله عليه وسلم قال: إذا أبردتم إلى بريدا فاجعلوه حسن الوجه، حسن الاسم، ولعل البريد هنا تعني- كما هو واضح- حامل الرسالة - شفوية أو مكتوبة، وجاء في الموروث من الأقدمين أن الحمي بريد الموت، وهو ما يوازي قولهم الآن: جوابك تحت جلدك، والجواب هو الرسالة كما هو معروف، وسيظل الحمام الزاجل مرتبطا بالبريد المبكر في التاريخ، عرفه الملوك والجيوش والأفراد، وظل نشاطا حتى بعد استخدام اللاسلكي وانتشاره في الحرب العالمية الثانية وقد أودي بالبريد المنقول عن طريق الحمام الزاجل التطور المروع في التخابر العلمي الذي شاع في (الفاكس) أخيراً - وهو النوع المعلن منه حتى الآن.

وفي كل التجمعات العربية التقليدية يصعب التراسل الغرامي عن طريق البريد، فنشأ نشاط لم ينتبه إليه أحد، وهو حامل الرسالة السرية- أي الغرامية- بين الطرفين، وفي العادة يكون هذا الوسيط امرأة لسهولة اتصالها بالطرفين، وكثيرا ما وقع العاشقان في حالة ابتزاز من (حامل أو حاملة) الخطابات، وهو أمر لم ينتبه إليه كثير من ذوي الاهتمام بمثل هذه الأمور الاجتماعية، وهم (مراسيل الغرام) والذين تجد صداهم في كثير من الأغاني والمواويل لقد وقعت- أنا- في هذا المأزق في أسوان.

وكل النظم والدول تراقب بريدها، مع أن الأقمار الصناعية والتصوير عن بعد قطع أبعاداً واخترق أغوارا- لا يصلها البريد العادي، لكن دولا عديدة تعتبر الخطابات مسألة شخصية لا يصح الاطلاع عليها إلا بإذن قضائي، وهناك وقائع عن أفراد رفعوا دعاوى للحصول على تعويض بسبب اطلاع السلطات على رسائلهم الخاصة، بل إن القانون في بعض الولايات الأمريكية والمقاطعات الأوربية يبيح لأصحاب الرسائل المطالبة بالتعويض لو أن رسائلهم تعرضت للتلف أو التمزق دون ثبوت الاطلاع عليها، وهناك واقعة نشرتها فيما أظن مجلة المختار (ريدرز دريجست) الأمريكية الشهيرة عن زوج فتح رسالة قادمة لزوجته، فاتضح له أنها مليئة بما يثبت أثباتا قاطعا خيانتها له، فتقدم بالرسالة إلى المحكمة التي استجابت إلى طلباته بطلاقها دون أي حقوق للزوجة، وفي إجراء متواز قامت الزوجة بإقامة الدعوى ضد زوجها لقيامه بالاطلاع على رسائلها دون إذن منها، وحكمت لها المحكمة بالتعويض المناسب.

ومن قصص العصور الوسطى التي كنا مغرمين بها في السنوات المتألقة بالبريد الغرامي النادر - أي منذ ما يقرب من أقل من نصف قرن، كانت حكاية ذلك الشاب الذي جاءته رسائل تهديد إن لم يدفع ما يطلبونه من أموال، وارتاع والده الذي كان ثريا مما قد يحيق بابنه، فدفع مرات لابنه ما يقوم بتسليمه لهؤلاء المبتزين الغامضين، ولاحظ الأب أن ثمة تغييرا أصاب ابنه في الشهور الأخيرة، كثرة الانتقال والسهر في المدينة القريبة مع ارتداء ملابس ليس سهلاً الحصول عليها دون معونة مباشرة منه، ثم تطورت الأحداث ليكتشف الأب أن ابنه يكتب الرسائل بخطه ويسلمها لصديقته التي تقوم بإعادة كتابتها بخطها، ليعيش الاثنان في ترف ما يحصلان عليه من الأب.

ويمتلئ الأدب - بعيداً عن أمور المغامرات ووقائع القصص البوليسية - بفن كتابة الرسائل أشهرها في الأدب العربي رسالة الغفران ثم رسالة إلى أهل روما التي أرسلها القديس بولس في العهد المسيحي المبكر طالباً نشر المحبة بين الرومان، وهناك رسالة الإمام الشافعي وهو مؤلف وضعه الإمام الشافعي في أصول الفقه الإسلامي وقبل ذلك رسائل تل العمارنة والتي تحمل أنواعا من الود السياسي بين أخناتون فرعون مصر إلى حكم الشام وأمرائه، في القرن 14 قبل الميلاد، وهي منقوشة بالخط المسماري الشهير، وعليك أن تضيف المجلدات التي ظهرت في نصف القرن العشرين - النصف الأخير والتي احتوت على كثير من مراسلات هيمنجواي ونيتشه واينشتين ويحي حقي وآخرين.

غير أن أخطر رسالة في الشهور الأخيرة كانت هذه البقعة المرسومة بأناقة وتلقائية من السيدة مونيكا إلى السيد الرئيس كلينتون وكان كلينتون لايزال على عرض الولايات المتحدة حين كتابة هذه السطور.

كلمات لها معنى

- **الذهل ليس فيما تعرفه أو تجهله، إنه - هذا الذهل - يظل خارج دوائر المعرفة والجهل أيضا .**
- **لا أعرف لماذا يتوافق المعنى المباشر لكلمة (الواقع) مع أول معنى للا يار .**
- **لا صوت يعلو فوق أي سوط .**
- **إننا أمة مجاهدة، ومجهدة .**
- **لا يقتل القلب فقط، إنما يدمر العقل أيضا: ملل الانتظار .**
- **والدليل على أن الإنسان كان حيوانا ذات عصر، أنه لايزال يعود كل ليلة إلى المكان نفسه الذي ينام فيه، زوجته بالتحديد .**

الفَصْـل بين الخديعة والأدب والمناورة

أشدّ الأمور صعوبة في حياتك - دعك من حياتي الآن - تلك المحاولة الدائبة كي تنفصل عمّا يحدث حولك بعض الوقت، ثريّاً كنت أو فقيراً، بسبب هذه الفصائل المداهمة - أو المحاصرة - لك: عيال وأصوات ومسلسلات تلفزيونية وفصول باردة من أصدقاء ذوي نوايا حسنة دائماً، غير أن الأمر لن يكون بالغ الجودة إذا ما انتحيت جانباً ليغمرك السكون الهادئ، على ضفة نهر أو بحر أو محيط أو كتاب أو موسيقى أو إمعان في لوحة بالغة الرواء، أو وجه - ذي عيون متألقة لأنثى تود أن تسمع رأيك - وهي تتراقص - في تفصيل فستانها أو فصلها الدقيق بين حركة أهدابها، وما يدور في ذهنك، وهذا الفصل الدقيق هو نوع من الشحن الإنساني الحيوي الذي يصل أوجه الفن في انتقال حركة الحياة أو المسرحية - أو الرواية - أو الأمنيات من فصل إلى فصل، ولا تستطيع الجيوش - بأساطيلها ومدافعها وقنابلها وصواريخها وقدراتها المروعة أن تأخذ من الفصل: سوى الفصيلة - بعدها يمكن استخدام الفصل المُتعسّف - حين تريد القوى المسلحة -بين الشعوب وأمنياتها، أو حين يجد قائدها نفسه معزولاً أو مفصولاً يسعى لكتابة مذكراته بعد ذلك بعدة قرون، لتتحول الفصيلة - إلى فرقة أو لواء أو أي حشد عسكري من هذا القبيل.

وأول من وقع في مأزق الفصل (البارد) أبونا آدم مما أودى به - مع زوجته أمنّا حواء - إلى الهبوط من الفردوس الجميل إلى عالمنا الدنيوي المرهق، ثم ما كان بعد ذلك من فصول توالت ساخنة - ودموية أحياناً: فصل دماغ هابيل بيد أخيه قابيل حسداً أو حقداً أو غيظاً (وتفصيل الأمر لايزال مركّزاً في فعل القتل فقط، مما يعطيني حق التصوّر الأكثر عنفاً أو دموية، ولاسيما أنني من أبناء صعيد مصر)، وهناك الفصل التاريخي المؤثر - والذي مازالت أمة المسلمين تدفع ثمنه حتى الآن - حين قام عمرو بن العاص بدوره الماكر في التحكيم الذي خلع فيه أبو موسى الأشعري سيدنا علي بن أبي طالب، لكن ابن العاص قام بتثبيت معاوية بن أبي سفيان، وربما كان هذا الفصل هو جوهر كثير من العلاقات الدولية وموائد المباحثات، فقد كان السفير الياباني - في أواخر الحرب العالمية الثانية - يقدم حسن النوايا للرئيس الأمريكي في واشنطن، في الوقت الذي كانت الطائرات اليابانية تدمّر ميناء بيرل هاربور. كما أن إسرائيل ظلت تصرخ في أنحاء العالم طالبة إنقاذها من عبدالناصر، حتى أنها أقامت مجموعة من الخيام في بعض الأقطار الأوربية - والأمريكية - أشهرها مخيّم كندا في أوتاوا ومونتريال، في الوقت الذي شنّت فيه قواتها المسلحة هجومها الشهير على مصر ثم سوريا في 5 يونيو1967 ، وقبل ذلك يظل مكر شيلوك المرابي الشهير في (تاجر البندقية) إشارة إلى إدراك وليم شكسبير لمعنى المؤامرة الأوسع من مجرد التحايل، وهو ما استفاد منه الألماني العظيم جوته في ملحمته (رينار الثعلب) ثم في مسرحيته الشهيرة (فاوست)، وربما كان كل ذلك راجعاً إلى هذا الفصل الذي مارسه يهوذا في العشاء الأخير الذي أتاح لكل أعداء سيدنا عيسى القبض عليه كي تصل فصول العذاب إلى أقصى درجات الألم العظيم، علينا أن نوقف هذا التيار اللافح من تلك الفصول الآن، كي نستنشق الهواء - أو النسيم - في فصول (فيفالدي) الموسيقية، والتي تحملنا إلى أطياف الربى بين الخريف والشتاء ثم الربيع المتألق، فالصيف الذي قد لا يتيح لك السباحة، فتكتفي بأن تضع قدميك على حافة تيار البحر قبل أن يصبح موجاً على نغمات الكمان العاصفة - رغم رقتها، حينئذ نتذكر مجلة (الفصول) التي أصدرها محمد زكي عبد القادر أوائل الأربعينيات، وكان من كتابها الراحل فتحي غانم، أما (فصول) التي تصدر الآن والتي يترأس تحريرها الدكتور جابر عصفور، فإنما هي حديثة تواكب الاتجاهات الأدبية والفكرية المعاصرة، وقد بدأت في الصدور عام 1980، رعاها الله وحال بينها وبين ما يحدث من فصول للمجلات التي من هذه الفصيلة عادة، وفي البلاد العربية بالذات.

وأمور الفصل بكل أنواعها تخترق تكوينات عالم الأحياء في العهود الحالية، الفصل من الخدمة أو الوظيفة أو بين الأطفال وآبائهم - بالواقع أو بالأحكام القضائية، ثم (القرقرة) - والتي قد لا تجد لها أثراً في المعاجم اللغوية وتعني الفصل بين حبوب القمح أو الفول أو الشعير، وبين الشوائب بعد عملية التذرية (بالمذراة) التي تفصل بين التبن والحبوب، وفصل الأقاليم عن الأوطان بالحروب أو الثورات أو المباحثات التي تخضع لسياسة المفاصلة، تلك المفاصلة التي تعتبر جزءاً من المساومة الشهيرة بين البائع والمشتري - حيث لم تستطع أوامر تحديد الأسعار من وقفها حتى الآن، أمي - مثلاً - لا يريحها أبداً أن تشتري ما تريده دون الفصال الذي تمارسه مع الباعة المتجولين، فيحقق لها إحساساً بالفوز والانتصار، في القماش بالذات الذي تقوم بعد ذلك بتفصيله ثياباً لها دون اهتمام بالمحلات التي يلجأ إليها الآخرون المعاصرون: تفصيلاً وتجهيزاً وخياطة، ثم هناك التفصيل الذي يعني التبيين والتوضيح ﴿ **وتفصيل الكتاب لا ريب فيه** ﴾ . ثم ﴿**ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء** ، ﴾ والفاصل هو الحاكم **إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين** ، ﴾ والفصال يعني العظام ﴿ **وفصاله في عامين** ﴾ . ويوم الفصل هو يوم الحساب - أي يوم القيامة ﴿ **هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذّبون** ﴾ . والمفصّلات هي المبينات الموضحات، كما أن المفصّلات - في حياتنا الآن - هي الرابط بين جزأين أحدهما أو كليهما متحرك كما هو معروف في مصاريع الأبواب والنوافذ، وربما جاء لفظها من ربط المفاصل أو الفصول، لاحظ أن بعض فصول المسرحيات كانت تحتوي على نوع من الأداء الموسيقي أو التمثيلي القصير فور انتهاء فصل والتمهيد لفصل جديد، أما المفاصل، فلا تخرج كثيراً عن المفصلات، إلا أنها كادت تتركز في التكوين المرن الذي يربط الأعضاء العظمية في الأحياء، مع أن كثيراً من ترع مصر - في الصعيد بالذات - يطلق عليها المفصل، وربما تكون وظيفتها تحديد ما بين أسماء الأحواض الواسعة في الحقول - وهي غير الأحواض الصغيرة، وهو ما يدفعنا إلى الانتباه الحديدي لمعنى الفصيلة في أنواع الأحياء، حيث تنقسم البرمائيات - مثلاً - إلى فصائل التماسيح والضفادع وسمندل الماء، رجاء عدم التدقيق في ذلك حتى لا ترتعد مفصلاتي من عدم الإلمام الجيد بهذا الموضوع.

وسوف تترى أمور كثيرة - ومتناقضة - إذا ظللنا واقعين تحت سطوة مادة الفصل: جمعاً أو تقسيماً أو تحديداً أو متابعة لمعانيها الشعبية أو التراثية أو المعجمية، فالفصل - في مثل هذه الأمور - يحتاج إلى دقة فصل الجلد عن اللحوم، دعك الآن من فصل فروة الرأس عن الجمجمة.

كلمات لها معنى

- **أجمل ما في هذا العصر أنه يسمح لك بأن ترفع صوتك بما تعتقد أنه حق، وأنك شجاع أيضا .**
- **ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، بعده يفترق الاثنان لتتاح للثالث فرصة النوم العميق .**
- **المسألة ببساطة أن كبار السياسيين يحاربون السحالي بقواعد مواجهة الثعابين .**
- **ليست الفروسية بقادرة على الظهور في عالم ضجيج العجلات، لقد بدأت في الاندثار .**
- **إذا صعدت الجبل وآن لك أن تستريح، فعليك أن تتعلم الهمس والإمعان في الوجود، إ ا بداية الفلسفة والإبداع، وخفة الوزن .**
- **لا تحاول أن تسرع باستخدام عقلك في هذا الزمن، حتى لا يستهلك بسرعة .**
- **مهما كان الفرد منا عملاقًا، فسوف ينحني كي يأكل .**

الحَرث

الحَرث بين شق التربة، والاستزراع، وعملية العشق المرهقة أيضاً

الحرث عملية شاقة تعني شق الأرض واختراق بطن الأدب والفن تقليبا للتربة وتمهيدا للبذور والإنبات، وحتى النار لها نصيب في الحرث حينما تحرك جمرة بالبشكور لتستعيد أوارها، والبشكور: قضيب من حديد معقوف يستخدم في تقليب النار ويجر به الرغيف من الفرن، وقد اعتقدت أن البشكور لهجة عامية واسم مصري خالص وموروث من أيام الفراعنة، لكني فوجئت به في المعجم الوسيط- شعرت بسعادة، وليس من قبيل المجاز فقط استخدام المادة اللغوية للحرث وأداتها المحراث في مختلف أنواع حياتنا، إذ إن حرث الشيء: بحث فيه، وحرث الدابة: أنهكها وأضعف قواها (وهو ما قد يجري عليه في أمور أخرى تحرثه حرثاً)، والحارث: كنية الأسد- دون أن تكون اللبؤة حارثة، والحارث بن حلزة اليشكري: شاعر جاهلي عاش في بادية العراق، وكان مصاباً بالبرص الذي يترك بقعاً مزعجة في الجلد، له قصيدة من المعلقات ارتجلها في جلسة صلح بين قبيلته بكر مع قبيلة تغلب، والحارث البكري حكيم جاهلي- أيضا - وشجاع، وكان المهلهل - بطل حرب البسوس- قد قتل له ابناً - مع أنه كان قد اعتزل الحرب، فأنشد قصيدته المعروفة- وشديدة الشجن) :قربا مربط النعامة مني..) إعلانا للثأر وبداية لتطور جديد في حرب البسوس المروعة، والنعامة - هنا - يعني بها الحارث حصانه الأثير، أما الحارث بن كلدة الثقفي فكان طبيب العرب في عصور الإسلام المبكرة، وأحد الحكماء المعروفين من أهل الطائف، كان يجيد الضرب - أي العزف - على العود، ولد قبل الإسلام وعاش في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم عصور الخلفاء الراشدين وبقي حتى أيام معاوية، وتحت اسم حارثة ثمة عدد من ملوك النبط أصحاب بترا، - أي سلع قديماً، وكانوا ملوكا على دولة شمال شبه الجزيرة العربية، ومنهم جاء الشعر النبطي- أي العامي- في المنطقة، ومن أشهر هؤلاء الملوك حارثة الثالث (حوالي 62 قبل الميلاد) الذي بسط نفوذه على دمشق، وحاول أن يوقف امتداد النفوذ الروماني إلى المنطقة، مع أنه تواصل ثقافيا بالحضارة الرومانية اليونانية (ويبدو أن هذه المسألة عريقة عويصة منذ ذاك الوقت، والتي لا نزال نعاني منها الآن)، ثم الحارث الرابع الذي حاول نائبه أو عامله في دمشق القبض على بولس الرسول النصير المبكر للمسيح عليه السلام، غير أن الحاكم الروماني المجاور له تزوج من ابنة حارثة ثم طلقها بعد أن انهمك في مؤامرة قتل يوحنا المعمدان، حيث تزوج من الراقصة هيروديا‌س، وهي غير سالومي التي قدمت رأس يوحنا على الطبق الراقص على وقع الموسيقى ولا أستبعد أن يكون الأمر مختلطا علي لتكون الراقصتان واحدة، أما الشجاع الباسل الذي كان الثاني في ترتيب الذين أسلموا من الذكور- أي بعد سيدنا علي بن أبي طالب، عرف بالشجاعة والجسارة والإمعان والإدراك، وهو أبو المقاتل التاريخي أسامة بن زيد. وأخطر من حرث تربة الفكر الإمام محمد عبده، والدكتور طه حسين، كما أن يحيى حقي حرث أرض النص القصصي وجذبه من التحليق التيموري- أي الذي تسيده محمود تيمور - ليضعه على الأرض، وعملية الحرث تأخذ من الجهد ما يفوق الإنبات والزرع الذي حظي به يوسف إدريس، مع أن عملية الحرث- في المعنى الأوسع- قد تأخذ لصالحها الاستزراع أيضاً، حيث جاء النص القرآني على التشبيه ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ لأن الزوجة موضع الإنتاج وممكن غرس الأبناء، وفي سورة البقرة أيضاً : ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث ، ﴾ ومن هذا المعنى المحتوي على شق الأرض والإنبات، وما يسري إلى المسائل الإنسانية تحتها، ينتشر اسم الحارث وعبد الحارث - في الصعيد بالذات، والذي كثيراً ما يكتبونه (الحارس) في خطأ لا يتم تصويبه عادة، وهو ما اكتشفناه حينما كان لنا صديق يعمل مدرساً ويحمل اسم الحارس، وحاولنا مراراً تصويبه إلى الحارث دون جدوى، ثم سافر إلى ليبيا وعاد بثروة محاذراً ألا نقترب - أيامها - منه، فوافقناه اعتماد اسمه الحارس فقط، وفي آخر رحلاته - بعد استكمال الأمن في الثروة: اصطادته الأقدار في حادثة تلتهم الحارس دون الحارث، وهو الأمر الوحيد الذي أسجله هنا دون الدخول أكثر في المعاني المتعددة للحرث، والتي قد أفشل في إيوائها تحت غطاء الأسلوب - مهما كان ماكرا، مع أهمية الإشارة إلى أن العامة - في معظم البلاد العربية قد تستبدل الثاء بالتاء، حيث تقول عن الشخص الأكول شديد الالتهام: إنه حرات- بالتاء، وفي المعجم - تأكيدا لذلك - سوف تجد أن لفظ حرت - بالتاء - تعني الأكل قضما، وقطعه قطعاً مستديرة، والحرت أيضاً: ينسب للأنثى حين تقوم بتدليك رجلها، دعوني أتوقف عن هذه المادة اللغوية - الآن.

كلمات لها معنى

- **وإذا قالت: فعلت، مع أن الأكثر صدقًا - وجمالاً، أن يحدث ذلك دون أن تقول، لا تمعن طويلا في عيو ا .**
- **كل الطرق تؤدي إلى روما، مع إسقاط إفريقيا وآسيا والأمريكتين، وأستراليا أيضا .**
- **استكملت الأفيال كل عد ا دون أن تنتبه إلى أهمية الحوافر والمخالب، دعك من الأنياب التي تثير المرح واللهو وهي تتحرك نحو الانقراض .**
- **الجوع كافر، والشبع المتضخم أعظم كفرا .**
- **الفائدة الكبرى التي جناها عجوز هيمنجواي بعد أن فتك السمك الصغير بسمكته الضخمة في البحر، أن امتلك حكاية ذات شأن يرويها في سهرات المشارب .**
- **الظلام لا يبدأ في المساء، إنه يبدأ في القلب .**

الذهب

هذا الكامن مطمورا في المناجم والخزائن يحرك المؤامرات والقصـائد والأمنيات ويقلب الأحلام، ويحتمي بغطاء وهمي من الورق.

الذهب ملك المعادن وسيد المقتنيات حتى لو كان البلاتين أثمن الجواهر أكثر تألقا، لديه قدرة فائقة على مداهمة الأحلام وتحطيم الأمنيات وصياغة الجسد والأقدار والمقالة والقصيدة، مناجمه القديمة في الصحراء الشرقية المصرية وسيبيريا والغرب الأمريكي والجنوب الإفريقي شرايين تتمدد في الجسد الحي للجغرافيا، يعشق أطراف الإنسان ويتراقص في أصابعه وأذرعه وأذنيه وأسنانه، مشعا بالجمال والسطوة، ينافس القيود في المعاصم، والمشانق في الرقاب، والأغلال في السيقان، والنجوم في الأنوف. الأنقى والأثمن هو الذهب الأحمر، الذي ظل معشوقا من القبائل والمجتمعات التقليدية قبل أن يتفشى الذهب المعاصر المخلوط بالنحاس أو البرونز، بصفته أكثر مرونة واصفرارا، والذهب هو المعدن الوحيد الذي تعالى على التاريخ وتسامى على التقسيمات: العصر الحجري - العصر الحديدي - العصر النحاسي، حيث ظل تعبير (العصر الذهبي) قاسما مشتركا موصوفا لكل العصور، يأخذ كل صاحب صولة جولة بين أقدام الحاكم متمسكا بشدة على أن عصره هو العصر الذهبي، ولذا ليس ثمة خلاف ذو شأن بين القصيدة العصماء التي ألقاها شاعر طيبة - من الصعيد - في مجلس (مينا) الموقر في منف، وكل القصائد التي أريقت في سائر المجالس المظفرة التي تتالت حتى الآن أمام كل الحكام والعواهل والملوك في شتى بقاع العالم.

والذهب معدن وهمي، مثله مثل الأفكار الوهمية الراسخة في العقول اللاواعية التي تعيش في الأكذوبة الكبرى، ويكفي أن تعلم أن هذا المعدن ذا البريق المتألق، المكدس في خزائن الحكومات والمصارف والعصابات والمناجم والمؤسسات والأفراد، والذي يحرك الشهوات والمطامع ويفسد العلاقات ويصنع اضطرابات للطبقات والبورصات والجماعات، هذا المعدن القادر على إصلاح كل الأفئدة والضمائر والأوتار والحناجر، وينشر الدفء في المكائد والمؤامرات والمجالس والمراقد والمواقف، ويثير أريج الزهور ودبيب المحاكم ودخان المصانع وروائح بلاليص الجبن القديم وبراميل المشروبات المعتقة. ويحمي الإخلاص ويكسو العرايا ويقيم وزنا لمن لا وزن له، هذا المعدن الخطير الذي لم يتغير دوره المؤثر منذ اكتشافه الموغل في القدم حتى الآن، غطاؤه من الورق، ينام كل هذا الكنز الذهبي تحت لحاف من الورق المطبوع، ورق لو جردناه من معناه لما أنضج احتراقه عدة كيلو جرامات من اللحم المشوي، ولما استطاع ما يساوي مليون دولار منه أن يحمي كلبا عاويا من الريح، لكنه - بقدرة متسلطة - يمكنه أن يتحول في غمضة عين إلى فراش وثير، وجميلات جذابات، وتذاكر سفر، وتنظيمات سياسية، وأخلاق عالية، وأمواج هادرة، وكراسات للتلاميذ، وأحذية للانزلاق، وحصون للسجون، ومجلات وصحف سيارة، وأكاذيب مقنعة وسباع أليفة وسيارات مدرعة، ودعاء في الساحات والميادين والشاشات، دون أن يتحرك هذا المعدن اللئيم من مكمنه ويتعرض لضوء الشمس المرهق، تاركا أمر وظيفته وتنفيذ تعليماته لهذا الغطاء الورقي الوهمي الطريف، حتى ولو كان المعنى معكوسا والغطاء ذهبيا.

لكن الذهب - فى حالته الفقيرة - يسبغ على عيون الأنثى بريقا غير ما تعودنا من بريق، في العيون الأخاذة، واضطراب غمازة الخد، وارتعاش الإصبع المشرعة، عندما تلتف حولها دبلة الخطوبة، حيث تسقط كل المعاني الأخرى للذهب، ولو لفترة محدودة تكفي لإنجاب أربعة أنجال يستحقون أن يوهبوا كل كميات الغطاء الورقي الوهمي الذي نسعى للحصول عليه طوال العمر.

كلمات لها معنى

- **أحس أنني أنبوبة عصرية: تدخلها النقود من طرف وتخرج من الطرف الآخر مأكلا وملبسا ومسكنا وعدة كراسات للعيال، وقصة قصيرة بين الحين والحين .**
- **تنشغل السكرتيرة الجديدة - في أول الأمر - كي تصبح ذاكرة لرجل الأعمال، ثم لا تلبث أن تنجب بعد العلاوة الثالثة على أكثر تقدير .**
- **ليست السحب هي التي تحجب أشعة الشمس، إ ا المظلات والسقوف والضجيج وعظام الجمجمة وبلاهة الأصدقاء .**
- **قالها شاعر محترف: إنني أسكن القصيدة، لكنه لم يذكر رقم البيت .**
- **أصبحت كلمة الهاتف أكثر استقرارا لمعنى التلفون، بعد أن اتضح لنا إنه لا يعمل في مجال (المسرة) فقط .**
- **انتبه: شخص بليد لا يتورع عن تدمير توازن يومك، حارس بيتك ومدرس ابنك وصراف بنكك وزوجتك، ثم خادم مائدتك، واحد منهم يكفي .**
- **كل مخلوق ينتخب ما يأكله إلا الإنسان الذي لم يترك شيئًا في بطن البحر أو على وجه الأرض أو في أعالي السماء، ويمكنه - بعد كل ذلك - أن ينام قريرا تحت دعوى أنه الأرقى .**

البيت

البيت تكوين تاريخي تمارس فيه الأحياء أقصى حالتها ذكاء وغباء

البيت منشأة هندسية ظهرت في حياة الأحياء في عصور مبكرة، تستهلك عمرها فيه، وخلال ذلك تحلم وتفكر وتمكر وتغني وتتكاثر وتبكي وتفخر وتضحك وتصوغ الحقائق والقوانين والأهداف والدساتير بين جدرانه، قد تتسع فتصبح قصرا ذا حدائق وبساتين وملاعب وبحيرات ومطارات، وقد تضيق فتصبح منزلا أو شقة أو كهفا أو شرنقة أو عشا أو قوقعة أو ثقبا، وفي كل الحالات يفرز البيت - أي بيت - سيدين: الأول معلن والثاني مهيمن، ويفخر السيد الأول دائما أن تاء التأنيث لم تصبه ولم تلحق باسمه، وكثيرا ما يتألق البيت ليكون جنة أو يعمه الظلام ليمسي قبرا، أو يداهمه الفقر- فقر الفكر والملكية والتوجس والشر والرعب والاعتزال - فيكون سعيرا، وأكثر البيوت عددا بما يفوق بيوت الإنس والنمل، في الشعر، وقد تأثر بيت الشعر الحديث فتساقطت وحداته ليصبح غرفا متناثرة على السطور المنمقة، وأجمل البيوت وأحلاها نجدها في بيت النحل، وألذها) بيت الكلاوي)، وأثمنها في شرانق دود القز، وأكثرها جلالا في بيوت الله من مساجد ومعابد، وألعنها بيت العقرب، وبيت النار- الغرفة التي تحتوي على طلقات المدافع والبنادق ومؤخرات غرف الدفع الغازية في الصواريخ، وأوهاها: بيت العنكبوت، وأكثرها فنية وتألقا: دور الأوبرا والموسيقى والمتاحف.

والمعدة بيت الداء، والأقدام بيت النقرس - داء المترفين والكسالى، أما بيت العدل فهو المحاكم، في حين أن بيت الحكمة هو المقر المركزي لنقابة الأطباء، وأبسطها عرين الأسد، وكذلك أقلها تكلفة، إن كان بها شيء سوى أسرة الأسد، وبيت لقمان: مبنى قديم أقام به الملك الفرنسي لويس التاسع بعد دحره وأسره في مدينة المنصورة المصرية خلال الحروب الصليبية، وبيت القاضي: بيوت أثرية قديمة متناثرة في كثير من العواصم العربية كبغداد ودمشق والقاهرة تكون قد أدت دورا في أنظمة القضاء والتحاكم، وبيت الطاعة: دار تجهز لاستعادة الزوجات الناشزات عند صدور أحكام لصالح الأزواج المكروهين، أما بيت الكرم - بالفتح - فالمقصود به الأثداء، فإذا سكنت الراء أصبحت العنب (الكروم)، وبيت الفكر: الجمجمة، في حين أن بيوت الأمعاء في البطن، وبيت الإيمان: المخ والقلب، أما بيت الحب والتراحم فهو القلب فقط.

وبيوت الليل: بيوت تقام للمتعة الليلية تنهار في أغلب الأحيان من وقع الموسيقى الصاخبة والهمسات المحرمة، وتحتوي - في العادة - على غرف وقاعات وموائد للميسر وفنون المقامرة، أما بيوت العز: فهي البيوت السابقة نفسها مع مراعاة استبعاد ما يمارس فيها، وبيت لحم: مدينة بفلسطين ولد فيها السيد المسيح عليه السلام، وبيت الزواحف: موقع ذو جحور لعرض الزواحف من ثعابين وسحال، تنشأ في حدائق الحيوان بشكل يسهل به متابعة حياة هذه المخلوقات، وكذلك: بيت الأسد وبيت الفيل، أما بيت جحا فهو تكوين ذو سراديب متداخلة ومتقاطعة تصيب الزائر بالحيرة والاضطراب بقصد المتعة، أما بيت القصيد فهو ما يزعم النقاد أنه أهم بيت في القصيدة العمودية - ثم استخدم التعبير مجازا لما هو مقصود عموما.

كلمات لها معنى

- **الحب والكراهية - كلاهما طاقة، ثمينة، لا يصح أن نبددها فيمن لا يستحق .**
- **ليس هناك من يمكنه أن يقاوم سحر ضوء قمر على وجه أنثى جميلة - وغريبة .**
- **يحظى الكاتب البارع بأجرين: مرة لكي يكتب، ومرة لكي لا يكتب .**
- **كل بلاد الله ملك مشاع لذي خيال رحب - وذكي .**
- **لانزال الخدمة الكبرى التي تؤديها الصحافة لم يتناولها دارس بعد: أوراق اللف .**
- **لو أنك أتحت للطفل الذي بداخلك فرصة يومية للعبث الجميل: لما سقطت أسنانك .**
- **احتفت السينما الحديثة بالفك المفترس، العين أكثر افتراسا .**
- **في المدن فقط: يمن على كلب ونمارس استعراضا ونحن نجره خلفنا في الشوارع، تصل الموعظة إلى ذروتها حينما يقضي الكلب حاجته بين أقدامنا .**

الباب

الباب من باب الرضا إلى أبواب العشق الجميل

الباب الذي يأتي منه الريح: عليك أن تسكّه كي تستريح، وهو المثل العامي - أو الشعبي - الذي تعرفونه جيداً، وتطالبون بتطبيقه والعمل به جيداً، دون أن يعمل به واحد منّا بالدقة المطلوبة، وربما يكون هذا هو القاعدة الأساسية وراء سياسات دولية قديمة ومعاصرة - (أنا لا أقصد - كما ترى - ما يدور الآن بين البلاد العربية وإسرائيل)، والأصلح - في هذه الظروف - أن يكون المدخل: باب النجّار مخلّع :حيث لن نقع تحت طائلة سطوة النجار، فالأبواب عادة تكون مغلقة أو مسكوكة، إنما الذي يجب أن يكون مفتوحاً هو النوافذ إشارة إلى الحرية أي استنشاق الهواء النقي. وكنّا في زمن التقاليد المستقرة نفخر بأن الكريم لا باب له، إشارة إلى هذا الاستقبال الدائم للضيوف أو أصحاب الحاجة، إلا أن الأمر اضطرب الآن فأصبح نفي الباب واستبعاده يعني الفوضى وعدم الانضباط - دخولاً وخروجاً، مع أهمية ألا أفصح اكثر من ذلك.

والعالم - في اللغة والتاريخ، وفي العلوم الأخرى، إضافة إلى السلوك وأمور التربية - يعج بالأبواب، ولعل أرقى وأعظم الأبواب: باب الجنة الذي يحرسه رضوان، حيث الطموح المأمول في البشر، بحثا عن نهاية موفقة (بعيداً عن زبانية دخول جهنم (أعوذ بالله)، إنه الإحساس النقي الغامر الطاهر الذي يعتمل في صدورنا عند وصولنا أبواب الكعبة المشرفة، ولعل ذلك كان وراء استخدام المصطلح العثماني (الباب العالي) مقراً للسلطان عبد الحميد الأول، أو صفة له، حيث يليه مباشرة (الصدر الأعظم) رئيس وزرائه، وأزعم بأن (الباب العالي) - مع ما تعني به من معاني الأبواب العليا في العقائد، جاءت أيضا لمنافسة سطوة رمز (البابوية) في روما، والتي يمثلها - وفي قمتها - الحبر الأعظم، بابا روما بصفته الرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية، وهي - البابوية - وظيفة شرف وولاية، وهو ما لا يقرّ به البروتستانت والأرثوذكس، وظل مثار خلاف بينهم (المسئولية عن هذه السطور تقع على كاهل الموسوعة التي تعرضت لذلك(، المهم هنا أن الباب العالي ينتمي لغويا لأصل مختلف تماما عن أصل كلمة البابا المصاغة من الأبوة، لكن التقارب الصوتي - دون اللغوي - هو الذي يكمن وراء هذا الربط، أو التداخل المقصود.

وفي الحس الشعبي لجميع المجتمعات والجماعات البشرية سوف تجد المعنى المجازي للباب، إنه مدخل للفرج، يؤدي إليه ممر الصبر، وهو المعلن الدائم في أهازيج وأغاني الأفراح في الختان والنجاح والزواج، كما أن أبواباً عديدة تتوالى تباعاً في نصوص (العديد) - أي نصوص النواح والبكاء وتوديع الراحلين، تطلب من الله أن يسبل الرحمة توسيعاً لأبواب المقابر والمدافن تمهيداً للوصول إلى باب الرضا، وثمة عدد مذهل من شعراء المديح - في جميع العصور - جلجلوا بقصائدهم على أبواب الحكام والولاة والعواهل، وكان ذلك من أسباب ثورة الشعر الجديد - أو المعاصر - رفضاً لانحناء القصيدة تحت سطوة هذه الأبواب، لكن ثورة هذا الشعر لم تستطع أن تنقذ الشعراء من الارتماء على عتبة أبواب المحبة - والتي وراءها تقف تلك الفاتنة المتألقة خفراً وحياء، التجربة أثبتت أن المسألة لا تستحق كل هذه القصائد: شعراً بليغاً أو أغنيات عامية.

وأكثر الأبواب ظهوراً في صفوف الإبداع الحديث: أبواب السجون والمعتقلات ومستعمرات النفي والحصار، وصرير هذه الأبواب بالغ الشجن والعذاب عند الإغلاق أو الفتح: يوسف إدريس وحنا مينه ونجيب محفوظ ولوركا الإسباني والبيركامى وسارتر ونجيب سرور وعبدالوهاب البياتي وناظم حكمت والكونت دي مونت كريستو: أقصد الكسندر دوماس الأب والطاهر وطار وفؤاد حداد وعبدالله النديم، وعدد كبير من هؤلاء الذين أحسوا بالسجون أو وقعوا في براثنها لتتحول الكوّات - أي الفتحات الضيقة - إلى أبواب الاختناق والتوجس والأمل العظيم: خروجاً منها أو موتاً داخلها.

وتحظى البيوت بأكبر عدد من الأبواب، لا يفوقها سوى أبواب الكتب والدراسات التي استخرجت لها نظامها من فن التبويب، غير أن كثيراً من المدن تقيم أبوابها - الحقيقية أو المعنوية - لتصبح جزءاً من خصوصيتها: أبواب طيبة السبعة،) وسوف تجدها في أسطورة أوديب الإغريقية مع أن طيبة فرعونية خالصة)، وخلف قصر عابدين في القاهرة باب باريس أو بوابة باريس (والبوابة تأنيث يتيح الإحساس بالوسع أكثر مما يعنيه الباب في الإحساس الشعبي)، ثم هناك -في القاهرة القديمة - باب زويلة وباب النصر وبوابة المتولي، وقد انسحب ذلك إلى أسماء عدد من ميادين العاصمة دون أن يكون لها أبواب حقيقية: باب الشعرية وباب اللوق وباب الخلق. كما أن للجسد الإنساني دورته البابية التي يقوم فيها الوريد البابي بتجميع الدم من أنحاء القناة الهضمية، ليدخل الكبد فيتولى تحريكه أو إعادة تصنيعه وتصديره إلى الأجهزة العليا في القلب والرئتين، وربما من ذلك جاءت (البابية) والتي تعني - بعيداً عن الدم وأمور الهضم والتغذية - الأعجوبة، يقال أتى فلان ببابيّة، وبالطبع فإن هذه المعجزة البابية لم تعد تستخدم - لغويا - الآن.

وبعد: فإن الفترة التي قضيتها وراء مصاريع الأبواب في الكتب والمعاجم والمعرفة الجارية، تحول بيني وبين إغلاق هذا الباب، ذلك أن كثيراً من الأبواب لا تنفتح بسهولة لعدم دراية الكثيرين بفن الإغلاق، وهو ما ينعكس أيضاً على تلك الأبواب والتي من دوام فتحها لا نجيد إغلاقها، رجاء استبعاد التربية والفوضى ومفهوم العديدين لمعنى الديمقراطية، وفوضى التفكير أيضاً.

كلمات لها معنى

- **لايزال البعض يعتقد أن الجوع ينصرف إلى البطن الخاوي، عليك أن تنصت قليلاً إلى ما يجري في فؤادك .**
- **السلاحف لا تصلح لصعود السلالم، المصاعد العصرية أعادت ترتيب المسألة .**
- **والدليل على أن خط الحضارة أخذ في الانحناء: أن الفخر باقتناء السيارات الفارهة بدأ يتراجع، وبدا واضحا زهو البشر باقتناء الكلاب .**
- **البلاد التي لم تضع قدميك فيها ستظل هي أجمل وأحلى البلاد .**
- **كثير من الثعابين تنظر إليك في إعجاب قبل أن تطلق أولى نفثات السم .**
- **التاريخ مثل كثير من الحراس والخفراء: يداهمه النعاس في الأوقات الحرجة أو الحساسة .**
- **المسألة التي تفكر فيها الآن تحتاج إلى وقت آخر يمكن لك فيه أن تؤجل التفكير فيها.. في هدوء .**
- **ليست الصعوبة في إصدار الحكم، الإرهاق في الجيثيات .**

الصّحن

ظلت الإنذارات التربوية التي كانت أمي توجهها لي كي أصبح صبيا مهذبا تحمل الإيعاز لأبي حتى يصحنني، أي يطحنني طحناً، ومن كثرة هذه الإنذارات غير المؤثرة تحول استخدامها للصحن بما لا يتجاوز شكل صحن الطبيخ، فلم نكن نستخدم لصحن المأكولات لفظ الطبق الذي اشتهرت به المدن، إنما كان الطبق ـ في معجم القرى ـ يعني هذا التكوين الواسع المصنوع من خوص النخيل ويحمل في ساحته الخبز (البتاو والرغفان أي الأرغفة) في معظم الأحوال.

ومع أن الصحن يحتل موقعاً جيداً في صحن القاموس العربي، فإن النص الأدبي الخاص بنا لم يتحمل ـ ولم يتضمن ـ صحناً واحداً حتى الآن، ربما لأننا نشم في مكوناته رائحة العوز الشعبي المبكر، وقد طردته البيوت خلال تقلصها إلى شقق محدودة التكوين، كما أن القصور (والفيلات والشاليهات أيضا) لم يعد بها صحن البيت: هذه الساحة المركزية التي تطل عليها جميع مكونات الدار ولا يعيش فيها أو يرتادها سوى الأهل والأقارب، ويؤمها المصلون إن كانت في المسجد أي صحن المسجد.

وبين صحن الدار وصحن الطبيخ وقف القدح الكبير شامخاً على بوابة أشهر القصائد العربية القديمة ليعلن عمرو بن كلثوم التغلبي موقفه الأثير:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الأندرينا

وذلك عندما أراد عمرو بن هند ملك الحيرة أن يجعل أم شاعرنا تخدم أمه، فأنف الشاعر وفتك بالملك وهرب، ويقال إنه وصل في عمره إلى مائة وخمسين عاما، وكانت قصيدته هذه تشع بالكبرياء والمفاخرة التي ظلت ترددها تغلب لتصبح ملحمتها الخاصة حتى استقرت ـ خلال كل القرون ـ في صحن دماغنا منذ دخولنا للمدارس المبكرة حتى الآن، إلا أن الأمور شابها ـ في الدماغ الثقافي العربي المعاصر ـ اضطراب وقلق: بعد أن تحول صحن الدماغ إلى مطحن تنهرس فيه أجزاء ودقائق من الثقافات الوافدة إلى ساحة العقل من أوربا وأمريكا ـ ثم أمريكا الجنوبية، وأصبحت المراجع الغالبة ـ في الإبداع ـ شديدة الانصياع إلى تأسيسها وتجذيرها تحت سطوة الغرب، إنها تجاوزت دوائر المعرفة الراقية إلى الامتثال والمثول للوجبات السريعة التي لا تحتاج إلى صحن ـ أو طبق ـ في أغلب الأحوال.

وفي مناطق من وادي دجلة والفرات ـ بين العراق وسورية في الأغلب ـ يصنعون (الصحناة) المعدة من السمك الصغير (أو الكبير بعد تقطيعه أجزاء صغيرة) لتغمر بالماء والملح أياما حتى تتهرأ، بعدها تصفى وترفع ليتم حفظها في الصفائح أو البلاليص (جمع بلاص) لتصبح الصحناة بعد ذلك طعاما له مذاقه الخاص، ويقول ابن داود الأنطاكي في تذكرته الشهيرة إن الصحناة هي (الملوحة) المصرية، وأكلها (يجفف الرطوبات ويذهب البخر ونتن الإبط) وهي الأمراض المنتشرة الآن في شكل (الأوديما (والمسائل الأخرى التي تتهامس بها عن الآخرين ـ والآخريات أي الإناث بالذات، الزنجبيل يساعدالصحناة في أداء مهمتها بطريقة أسهل وأسرع، دون اهتمام بورودها في المعجم اللغوي صحناء وليست صحناة.

إلا أن أمر الصحن يتجاوز ساحات الديار وصحناة السمك وقدح عمرو بن كلثوم ليصبح الصحن هو الأرض الواسعة المنبسطة لا شجر فيها، ثم لا يلبث أن يتقلص ليصبح الصحن خاصا بالأذن ـ أي المنطقة التالية لفتحة الأذن وجمعها هنا: أصحان، أما الصحنان فهما الطاستان الصغيرتان اللتان تضرب إحداهما على الأخرى في أصابع الراقصات أو ضابطي إيقاع الموسيقى، ثم لا يلبث المشاكس الرفاس من الخيول أن يجتاز على لفظ الصَّحون ـ بفتح الصاد، فإن أردت أن تعود إلى المائدة ـ أو الطبلية ـ القديمة ذات المأكولات التي هجرناها فسوف تجد أن المِصْحنة هي القصعة، أي الإناء الواسع الذي يحمل العصيدة والفتة، حاول أن تستفيد من ذكريات الأواني التي حاصرتك أيام صبيانيتك أو أي مرحلة صبيانية مر بها أهلك.

وقد ورد في أخبار المواقع المهلكة ـ مثل مذبحة المماليك ـ أنها كانت مصحنة، أي أنها هرست عظام المماليك في شراسة دموية لتنسحق في إناء التاريخ.

وهي خاتمة غير مريحة كنا نتمنى أن نستعيد فيها بعض أبيات عمرو بن كلثوم ليظل صحن الموضوع يتألق بتكوينات غذائية ـ أو عقلية ـ تستبعد مثل هذه المصــاحن من ساحة الفؤاد.

كلمات لها معنى

- **أخيرا أفصحت عن أجمل ما أتمنى: موزة من لحم الضأن وسلاطة خضراء وبيضاء، ثم هواء طلق على حافة النهر مع حبيبتي، لكنها اعترضت في مرارة على حافة النهر والهواء الطلق .**
- **الفخ: أن يصمم صديقك الذي تعاطف معك على ألا يسمح لك بالخروج من حفرة هذا التعاطف .**
- **الرغبة في السفر والترحال ليست امتيازا لنا نحن البشر، ولا للحيوانات والنباتات، تلال الرمال ترتحل أيضا .**
- **الحب الجميل يفقد ذكاءه إذا ما اتسع أكثر مما يجب .**
- **مرة أخرى: نقطة القوة فينا تصبح، وبسهولة مرعبة، نقطة ضعفنا .**
- **نامت السيارات في الشوارع، وظللنا نحن وراء الجدران، ولذا فنادرا ما نصاب السيارات بالأمراض النفسية .**

العمود

مابين الخيام والهياكل والأناشيد والقانون والرتب

أحسست بالوجل حينما اخترقت عالم الأعمدة الواقفة - متناثرة - أو مصفوفة بين الهياكل والمعابد والقصائد والرتب والنياشين والوظائف والصحف والطقوس والمناصب. ولعلّ انتظام أعمدة الأكروبول الإغريقي يفتح البصيرة نحو آفاق التعبير الديني أو المسرحي من زمن بعيد، لا يتجاوزه تأثيراً سوى كثافة الأعمدة الضخمة لهيكلين العظيمين المصريين: الأقصر والكرنك، (لابد من الإشارة إلى أن كليهما مستقل عن الآخر)، بعد ذلك تتداعى أعمدة تحمل السقوف ذات الاتزان - في سوهاج ودندرة وفيلة، أو فردية تنطلق وحيدة مثل عمود السواري في الإسكندرية أو المسلات الشامخة - المصرية - في عواصم الغرب أو بين بقايا حضارات بابل وأشور، أو في مداخل القبور الباقية من عصور تقديس الأجداث قبل ظهور الإسلام، مع أن العمود - في مبدأ الأمر - بدأ نحيفاً يحمل في عناء الخيمة المبكّرة التي يلوذ بها آباؤنا الأوائل اتقاء الريح والمطر وعيون العابرين أو السائحين، بعدها تسلل العمود إلى أهازيج الشكوى أو اللوعة شوقاً إلى الحبيب، أو انتحاباً باكياً تعبيراً عن ألم الفقد وامتثالاً لسطوة الموت، أو انشراحاً متألقاً في الحفاوة بالضيف الكريم - الذي يكون ذا شأن كبير بالذات، أو تنغيماً على إيقاع الكفوف والطبول ابتهاجاً بليلة الزفاف الفخيم، بعدها استطاع العمود أن يصوغ كل أنواع أغاني السعادة القصوى استقبالاً للعائد من أداء فريضة الحج، أو نجاح العيال في المدارس، أو احتفالاً بالانتصار والكيد للأعداء، أو احتفاء بختان الذكور، أو الخروج المأمول للأعزاء من السجون (في حالات الاعتقال يقف عمود الغناء بعيداً ينظر للأمور بجبن وارتعاد)، لاحظ أيضاً أن العمود يصاغ في عدة أوان يتم تركيبها رأسياً لتحمل الزاد - سرّاً أو علناً - إلى المساجين قبل أن يصبح أغنية فرحة عند الإفراج عنهم - وقد بدأ هذا العمود يندثر الآن تحت سطوة أنواع من المأكولات المغلفة العصرية.

والعمود الذي يرفع فوق هامته الخيمة والبيت والمسرح والهيكل والكنيسة والمسجد، هو ذاته الذي يقيم لكل عائلة عمادها: شيخها أو رئيسها، وتتعمد الذائقة الشعبية أن تجعله عميداً - من باب الابتعاد به عن صيغة العمود - ليكون ذا شأن في الشرطة والجيش والمعاهد والكليات، أو عمدة ليتولى شئون القرى والتجمّعات الشعبية، وهو ما أدى بالعمدة إلى أن يصبح عنواناً ذا هيمنة في الأدب والتفكير والإبداع، مثل كتاب عمدة السالك وعدة الناسك لابن النقيب المصري وعمدة البيان للمرداسي، كما أن طه حسين حظي بلقب عميد الأدب العربي تنصيباً له في موقع لا يتأثر بالإقالة أو الاستقالة عندما كان عميداً لكلية الآداب بجامعة القاهرة، غير أن أمر العمادة وصل إلى حالة خاصة جداً مبتعداً عن العمود والعمدة والعميد ليصبح: العماد، وهي أعلى رتبة في جيوش الشام - سورية ولبنان، والعماد لغوياً: الأعمدة القوية التي تراها واضحة في قوله تعالى :﴿ **إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾- يقال إنها باليمن بين حضرموت وصنعاء، وقد بناها شداد بن عاد، وقيل إنها اسم بلدة عاد الأولى أو هي الإسكندرية أو هي دمشق - وكانت دمشق من أهم مدن الآراميين، وكثيراً ما أطلقت عليها التوراة اسم أرام.

غير أن أمر العمود يتدثر بالواقع والمجاز خارج القصيدة وخطوط الإضاءة والأغاني والبيوت والمعابد والهياكل ليقوم بدوره المتفرّد حينما يتحول - هذا العمود القصير - إلى خازوق له شهرته الدموية المروعة في التاريخ، على جسر نهر درينا كان الخازوق سبباً في شهرة الروائي اليوغوسلافي - حينما كانت ثمة بلاد اسمها يوغوسلافيا - أندريتش، وفي مسالك الممالك المملوكية في مصر سوف تجد العمود يخترق - من أسفل - أحشاء الثوار والمعارضين والذين فاتهم إرضاء السلطان (أحدهم فعل ذلك في حماته - أي أم زوجته)، ولم تخل الاضطهادات الدينية في القرون الوسطى الأوربية من ضحايا الخازوق الدموي في الاختلاف أو المعارضة، بعدها دخلت الصياغات المعاصرة المرنة المدركة والذكية عالم العمود الخازوق ليندس في المشانق ومواد القانون ونصوص الدساتير، ولن تنتبه إلى ذلك إلا حين تفاجأ بأن الحرية الحديثة قد استدرجتك إلى موقف تخترق فيه جسدك العصري المواد القانونية المقنعة، والملساء.. أيضاً.

وبعد: فإنها المرة الأولى التي أجد فيها نفسي أكاد أتوقف كي أكتب كتاباً عمدة في فلسفة الأعمدة، يصلح للمثلثات وهندسة المباني وأعمدة السحب والعواصف والفن والسياسة وحرث الأرض وتحريك الجبال، لكنه - هذا العمود - لن يقترب أبداً من الشعر الحديث جداً، الذي يستلقي على الصفحة متثائباً بين السطور، أو ممزّقاً أسفل الكلمات، دون أن يصلب حيله ويقف: أي دون أن يكون له عمود فقري يعتمد عليه كي يشمخ لأعلى، إنه - هذا الشعر - يحب الشموخ المنبسط على الأرض، وأعتقد أنه سيظل على هذه الحال فترة طويلة، حتى أنني أحس بالعمدية - أي القصد المسبق - في تعليق عدد من هؤلاء الشعراء في الأعمدة التي تراها خلال المشهد الممتد في نهاية فيلم (سبارتاكوس)، مع أني لا أستطيع أن أكتب بقلمي: أعمدة المشانق.

كلمات لها معنى

- **ليس من العدل أن تظل الأنثى مركزا لحركة الكون طوال هذه الدهور، وأن يظل الذكور يقاتلون في سبيل نفي ذلك .**
- **ظاهرة تعم عيون الناس في العصر الحديث: كلما ازدادت الدنيا حولهم اء واتساعا، ضاقت العيون وانغلقت وبدأت تنسحب إلى غرفة ضيقة ومكنونة أيضا .**
- **ما لم يعترف به أحد أن كسوف الشمس الذي حدث أخيرا كشف عن كسوف الفؤاد .**
- **الجهد المبذول لإخفاء الحق أضخم بمراحل من الجهد الذي يتطلبه إعلان الباطل .**
- **أرقام لجواز السفر وتحقيق الشخصية وبطاقة التموين و(كارنيه) النقابة وتاريخ الميلاد وحساب البنك وموقع البيت في الشارع والتلفون، ورخصة القيادة، وأحاول أن أتذكر - دون جدوى - مقاس حذائي .**
- **الحقائق تتغير بسرعة، فلا نرتكز عليها حتى لا نقع على الأرض .**

بسمة.. فابتسامة

أحسست أن المجال اللغوي للتعريف بالبسمة ينقبض دون الاقتراب من تعبيراتها الدقيقة الذكية الجميلة، والتي - في حالات عديدة - تقوم بما تعجز عنه الزهور والفواكه والمعابثة والملامسة وطلاقة اللسان وعذوبة نظرات العيون، حتى أني خشيت أن أنزلق - من تأثير الابتسامة - إلى تلك البسمة التي تراقصت ناعمة على شفاه يهوذا إشارة إلى جنود الرومان ليتحركوا نحو النبي المسيح عيسي (عليه السلام (ليقبضوا عليه ليلة العشاء الأخير، والتي - ابتسامة يهوذا - تراها في أخطر وأدق حالاتها في لوحة ليوناردو دافنشي بالغة المكر والجذب والجمال الخادع، وقد توازيها في التعبير الجميل دون خداع: ابتسامة أمي - في توترها العطوف - لتحول بين كف أبي المشرعة كي لا تهوي فوق خدي عقابًا لسلوكي الصبياني اختراقًا لحقل طماطم جارنا الطيب، إلاّ أن الابتسامة الغامضة والرقيقة وبالغة الإحساس بالتواصل كانت فوق شفتي (الموناليزا) البسيطة والعميقة والبريئة للرسام ذاته دافنشي الإيطالي المشار إليه في مؤامرة يهوذا، ولعل الرومانسية - في الفن والأدب والسلوك - أفرزت أنواعًا من الجمال المبتسم الذي يعني الموافقة أو الرفض أو الاحتجاج أو إدراك ما لم تقله الكلمات، حتى أن فرانسواز ساجان كانت شديدة الاهتمام بالخروج المعاصر على الرومانسية لتكون روايتها (ابتسامة ما) إشارة واضحة على عبثية المعنى الإنساني الرقيق حينما اجتاحته الاتجاهات الوجودية المعروفة في أوربا، والتي كان سارتر - فيلسوف فرنسا الذي رحل منذ سنوات - واحدًا من المؤثرين فيها.. وفينا أيضًا، إلاّ أن البسمة الشرقية - والعربية - ظلت تقاوم وتستمر في إشعاعها والذي ترى أثره في عيون المبتسم - ذكرًا كان أم أنثى - حينما تطرف أو تنغمض في بطء أو تضطرب لتضيق ثم تتسع لترى التعبير المتألق ذا الشجن المتفاعل مع مصدر انبعاثه: الابتسامة فوق الشفتين، والمجال الجوي بين ما يشع من الشفتين، ومن العينين - هو الذي تطايرت فيه مشاعر عمر الشريف أمام فاتن حمامة: الابتسامة والنظرة - ليخرجا من فيلم (صراع في الوادي (ليقترنا - أقصد يتزوجا، إلاّ أن ابتسامة الفتاة البسيطة نعيمة -أي سعاد حسني - أمام صوت المغني حسن ظلت ساحرة عدة أفلام، ثم أهلكتها ظروف العصر المضطرب الضاغط والمطارد للابتسامة التلقائية النقية النابعة من السليقة والفطرة، وهو ما يمكن لك أن تستمتع به - أو تحس به - في تلك الحركة التي تبدأ هادئة عند (الحاوي) المتخصص في استخلاص العقارب والثعابين من شقوق الحوائط أو السقوف القروية، ثم لا يلبث الهدوء أن ينطلق من الحاوي صارخًا مهددًا آمرًا، لينخفض الصوت - جوابًا للقرار في الموسيقى - فيلقي بعصاه جانبًا، ويهمس داعيًا الثعبان في ابتسام بالغ الود، لتمتد ذراعه العارية ذات الكف المفتوحة نحو الغموض الذي يتسلل من بين الجدران ثعبانًا زاحفًا في بطء وامتثال، ليأمره الحاوي بالتوقف حينما وصل إلى الأرض، فيظل الثلاثة يبتسمون في تعبير بالغ الذهول: الحاوي والثعبان وأنا، إلا أن الابتسامة النابعة من الفطرة والسليقة عند الحاوي، وعلى شفة جدتي وهي تحكي - ما لا تحكيه الجدات الآن - عن أبو زيد الهلالي وعنترة وعلي بابا والبساط السحري وأم كلثوم وأسمهان وخالد بن الوليد - لن تحسن الإحساس بهذه البسمة حينما تجالس رجال الأعمال أو الفلاسفة - لاسيما المنقطعين للعلم في وحدة منقطعة النظير - أو راقصات الأفراح أو خلال المحاورات حول الموائد الدبلوماسية، مع أن أفواههم تبتسم فعلاً، وعيونهم تنظر أيضًا، وهم يمارسون ذلك - بإدمان مذهل - وهم خارج هذا الجو المتحفظ، ففي قاعة ناد مشهور دعانا صديق صحفي وكاتب دبلوماسي لسهرة عشاء ذات سمر ومرح لأصدقائه وداعًا له قبل عودته إلى عمله في الولايات المتحدة، وكانت نشوتنا المليئة بالتعليقات الساخرة الذكية تتألق في الجلسة الدسمة، الابتسامات تنطلق من رقتها لتخترق مجال الضحك السعيد - لم أقل الضحك الصاخب، لكن اثنين أو ثلاثة من الأصدقاء كانوا يبتسمون في تحفظ شديد، رقته ونعومته - هذا الابتسام - بالغا التكلف، والاصطناع أو الافتعال، الهدوء في النظرة، وفي الإنصات، ثم الابتسام والنظر بين وقت وآخر في ساعة يده، وهي حركة لا يمكن إدانة صاحبها على الرغم من خطورة ما يدور في ذهنك نتيجة لذلك، فاستعدت التعريف الذي قام به الصديق ليقدمنا واحدًا واحدًا، إنهم يعملون في السلك الدبلوماسي الذي يقوم على التحفظ في إبداء المشاعر والآراء وعدم الانطلاق في ردود أفعال مبهجة أو محزنة نقوم بها نحن الذين من الفئات الأخرى، وعندما بدأ أحد الأصدقاء في إصدار ألحان من فمه تمهيدًا للغناء، طلبنا منه أن يشجينا ويسعدنا بصوته الجميل في أغنياته التي نحبها، وظلت البسمة تتهادى لتصبح ابتسامة، ثم بدأت حالات الانتشاء تحاور الأفئدة تحريكًا للمشاعر السعيدة المستمتعة، وكان ذلك مناسبًا أن أحافظ على متعتي الخاصة مع أصدقائي الأصليين الذين لا ينظرون - بين وقت وآخر - إلى ساعات معاصمهم، حيث تحرّكت أجسادنا في الجلسة إلى زوايا يصعب على العيون أن تقع في مجال المشاعر المتماسكة جدًا.

والبسمة - في أداء واجبها الإنساني - سوف تجدها في عيني القطة حينما تلوذ بك فتأخذها في حجرك، وفي عيني الكلب - مع ارتخاء مستسلم لأذنيه المشرعتين - حينما تلقي إليه ببعض المأكولات، وفي غوريللا حديقة الحيوانات فور إخراجك سيجارة وتقديمها لحارسها، حيث تظل تتابع السيجارة بعينيها شديدة الفرح والابتسام الذي يضيق بهما فمها ذو الاتساع المذهل - حينما يناولها الحارس السيجارة مشتعلة، ولكن أخطر وأجمل ابتسامة - بعيدًا عن شفاه الإنسان - هي تلك التي تراها بوضوح حينما تظل ممعنًا في وجه غزالة بحديقة الحيوانات، فتمعن - بعينيها فيك، ثم تضرب الهواء بذيلها الصغير المنفوش كالورد - فإذا ما مددت أصابعك إليها ببعض الحبوب، فسوف تتوقف حركتها ثواني عدة، بعدها تنداح شفاهها بابتسامة مع عودة ذيلها لإيقاع حركي جميل، لتفتح لك قلبها، أقصد فمها الذكي، تحياتي إليهما: زوجتك أو حبيبتك، مع قليل من الابتسام إنهاء لهذا الموضوع.

كلمات لها معنى

- **يالجمال متعة القراءة، والتي بدأت تدخل مراحل فنائها أو مو ا الأخير، بعد أن قام التلفزيون والكمبيوتر بمحاصر ا تمهيدا لكتم أنفاسها، فوداعا .**
- **هل يمكن لواحد يضع في جيبه إبرة حقنة أن يتراقص في متعة خلال جولة تحطيب؟**
- **تاجر الجلود يميل إلى أكل اليمام والعصافير والسمان، ولا يتحمل مشهد الدق على الطبول .**
- **كان هارون الرشيد يحب سماع الشعر أثناء إلقائه المفعم بالانفعال، وإذا ما وصلت متعته إلى أقصى - أو أعمق درجا ا - يأمر الشاعر: اذهب فقد منحتك جملاً، دعك من جوائز الدولة الآن .**

الكرم

أطمع أن تتسع جوانحك معي - يا صديقي - كي تظل كريمًا مبتسمًا، وأن تفتح صدرك للهواء البري الطلق الذي تراقصت (كارمن) على أنغام الموسيقار الجميل (بيزيه) تحت سطوته لتخترق الآفاق الممتدة بين ثنايا جبال البرانس، بين إسبانيا وفرنسا، على إيقاع طبيعتها الساحرة، وسوف تظل الابتسامة الإنسانية هي الإشارة العذبة لمعنى الكرم الذي جعل من حاتم الطائي رمزًا للإحساس النقي الراقي للجود العربي التاريخي، ليصبح مثالاً للكرم الأصيل فيما روي عنه، حتى أنه قام بذبح حصانه الأثير تضحية لإكرام ضيوف عابرين. ولقد حظي حاتم الطائي بمساحة من التواصل الحيوي الراقي في كتب المدارس والقصص المتوالية في الآداب العربية والفارسية والتركية، ليظل شعره يدور حول الأخلاق الكريمة من جود وتضحية وإيواء ومساعدات بالغة الدفء الهادئ دون ضجيج.

وكان المخرج المصري كرم مطاوع مبهورًا بحاتم الطائي، يسعى للتعبير عنه في نص مسرحي أو تلفزيوني، لكنه رحل دون أن يتحقق أمله، وقد شاءت ظروفي السعيدة أن نتقارب معًا، حيث كان يتألق في ليالي السمر، فيلقي لنا ببعض أشعار هذا الفارس الكريم، كان ذلك محاولة من كرم مطاوع كي يواجه الاختناق العصري الحديث الذي لايكاد الكرم يجد فيه مستقرًا إلاّ داخل حفلات التكريم المنتفخ بالشعارات والأغاني.

إلاّ أن الكرم انبثق من مصدره الأخلاقي الخاص بالجود التاريخي، ليبدو شديد العذوبة في صوت كارم محمود، ذلك الذي أثار كوامن شجن عصور مراهقتي إزاء (أبو العيون السود) وترجمتها - أو صياغتها الفصيحة: ذات العيون السوداء، مع أهمية أن الغزل عندنا - أي في البلاد العربية - يتطارح لغويًا بصياغات المذكر في حالات عدة مشهورة، الحبيب المجهول لعلي محمود طه وغناء محمد عبدالوهاب، وما يتوالى على فنون التعبير عن العشق: حبيب الروح، يا عزيز عيني. وفي اللغة الدارجة: (كل ده كان ليه لما شفت عنيه). وكان المخرج السينمائي المصري المبكر: محمد كريم يعشق الحب عنوانًا لمعظم أفلام محمد عبدالوهاب: يحيا الحب، وممنوع الحب، ولقد ظللت - بناء على جهلي القروي - أتساءل عن علاقة محمد كريم المخرج، ومحمد كريم قائد الإسكندرية ضد الحملة الفرنسية، وكريم خان حاكم فارس - إيران حاليًا - في القرن الثامن عشر الميلادي، وكل من حمل اسمه صفة الجود الكريم: بالكريم الذي ينتشر عنوانا لأنواع من المراهم الخاصة بترطيب البشرة وإزالة خشونة ملمس الجلد، حتى عرفت - من المعاجم - أن الكريم المقصود يعتمد على أنه المعنى الإنجليزي، ثم في باقي اللغات الأوربية: الزبدة والقشدة، وما يقابلهما وما ينتج منهما من صياغات تقابل المعنى اللغوي العربي: أزبد وأرغى، في حال الانفعال... أو الدّسامة، وقد تتواصل هذه الصفات الناجمة من الكريم - دون الكرم - ليحملها في اسمه: كرومويل: رئيس الجمهورية الإنجليزية في القرن السابع عشر الميلادي، وهي الفترة التي لم تزد على خمس سنوات (1654 - 1659)، لتعود إنجلترا إلى نظامها الملكي القائم حتى الآن، ودون أن ننتبه إلى إنسان الدور الأعلى أو الأرق في العصر الحجري القديم الذي يحمل اسم (كرومانيون)، وهو ذات اسم الموقع الذي اكتشفت فيه بقايا هيكله العظمى بمنطقة الإليزيه بفرنسا، ويعتبره علماء تاريخ البشرية السلالة التي ينتمي إليها الإنسان الحديث بقامته المنتصبة وطوله الفارع، أما كرومر الشهير في التاريخ المصري فهو إداري ودبلوماسي بريطاني ظل يمثل السلطة التي ينتمي إليها، وقيل إنه كان يحب مصر حبّا يخرج من دائرة الاستعمار الغربي، حيث قام بتأليف كتابين: مصر الحديثة (1908)، ثم الاستعمار القديم والحديث (1910.(

ولعل الفاكهة الوحيدة التي نالت جزءًا من صياغة الكرم كانت العنب، مع تسكين الراء (كرْم)، وبالتالي فإن الكروم ظل، حتى اليوم، يعتبر إشارة شعبية للكرم مع الضيوف، مع بعض اللحوم أحيانًا، وإني أعتذر الآن عن مقال لي عن حاتم الطائي - ذي الجود المشار إليه - والمؤثر في السلوك الخاص بنا حتى الآن، حينما قمت بتحريف اسمه من حاتم الطائي، إلى حاتم الطاهي، فقد كان يستمتع متعة رقيقة وراقية حين يقوم بتقديم الطعام بيده بعد إعداده وتجهيزه بمعرفته، فقد واجهني أمر بالغ الشرّ: ماذا لو أنه نحر حصانه - أي جواده - كرمًا لي بصفتي مسافرًا مرهقًا، وأنا لا آكل لحم الخيول - حينئذ أحسست بهذا الشر يسحبني إلى الكرملين: تلك القلاع الروسية الشهيرة بخشونتها وعضلات أو جفاف أفكار مَن يقيم فيها، دعنا من الكرملين الأكبر في موسكو الآن، السفر في الصحراء أفضل.

وقد يكون مجرد تساؤل عن ممثلة مصرية اسمها كريمان ظهرت في عصر عبدالحليم حافظ، ولا أعرف عنها أي معلومات تبيح لي أن أعترف لها بموقعها في الفؤاد، إلا أن كريمة مختار تلك الأم الحنون الغاضبة وشديدة التأثر بما يجري حولها في أفلام ومسلسلات التلفزيون والمسرحيات، احتلت موقعًا مؤثرًا في العواطف العائلية المضغوطة في العصر الحديث، لتصنع انفراجًا بعيونها، واهتزاز نظراتها، فتفتح شفتها العليا في ابتسامة بالغة الدفء والبساطة، إنها تتكارم: أي أنها تؤدي دورًا تعلو فيه عن الأمور غير المريحة، وتتنزه عنها، وهنا يمكن أن نقترب قليلا من الكرامة، والتي تعني اختزالاً خالصًا - ونقيًا - بامتزاج الكرم مع العفة والشرف والانتماء عائليًا ووطنيًا ودينيًا - أي إنسانيًا أيضًا، ومن أنواع هذه الكرامة تلك التي يحملها في أرواحهم وسلوكهم أولياء الله، إنها الأمر الخارق الذي لا يمكن أن تقوم أنت - بصفتك شخصًا عاديًا - بإبرازه دون استعراض للتحدي أو الادّعاء، إنها أمر خاص وطبيعة استثنائية غير الكرامة التي نعيش في ظلال معانيها السلوكية، وإن كانت الكرامتان تلتقيان دائمًا، مع النظر إلى ما قد يريحك حينما تخترق الصحراء الشرقية المصرية في طريق الكريمات إلى البحر.

ومع أني لا أود أن أستدرجكم إلى مسائل أخرى نابعة من الكرم، فإني أودّ أن أبدي ملاحظة حول مَن يحمل اسم كريم، ففي الأرياف والواحات يتم نطق هذا الاسم بتشديد الياء مع ضم الكاف وفتح الراء: كُريّم، وبمجرد أن ننتقل إلى المدن نتخلص من هذه الصياغة ليصبح الاسم كريم فقط دون تشديد أو ضم أو صيغة التصغير، فيكون كريم على وزن فعيل أو سليم أو عزيز أو نبيل، دون تشديد يجعل من كُريّم لحنًا صوتيًا بالغ الروعة خارج المدن والمواقع المؤثرة.

إنها فرصتي أن تتسع جوانحك - مرة أخرى - كي تظل كريمًا ومبتسمًا ليس مع الأصدقاء ورفقاء الجلسات الممتعة، بل في بيتك، مع أسرتك، ولو بعض الوقت.

كلمات لها معنى

- **لماذا حين ترفع وجهك للسماء، وتمعن بعينيك فيها بعض الوقت، ي اح القلق والتوتر والخوف من كل كيانك؟ عليك أن تبعد عينيك عن الأرض - بعض الوقت أيضا .**
- **أخطر أنواع الهمس: الوشاية والنميمة، حتى أن الحب يجد حرجا حينما يحتاج إلى درجة من الهمس .**
- **ضيفي من الدانمارك - أي شمال أوربا، ظل طوال الوقت لا يهتم بالمأكل والمشرب، عيناه تتابعان الشمس شروقًا وغروبا، لم أكن أعرف أن الشمس عندهم نادرة، وأنواع الطب والعلاج لا تعرف هناك ما نصاب به: ضربة الشمس .**
- **مع كل العوائق التي تحاصرني كي أبدو إنسانا عصريا لا يجوز له أن يزور صديقًا أو قريبا دون اتصال وتمهيد سابق، سأظل مصمما أن أطرق بابك دون اتصال أو تمهيد سابق، متعة لا حدود لها .**

الصندوق

من ليلة الفرح إلى دنيا الكنوز والقلوب

في ذاك الزمن المبكر: كانت تجهيزات العروس من أثاث ورياش تحملها الجمال الهادئة الوديعة إيذانا باقتراب ليلة الفرح غدا أو بعد غد، إلا أن ما يشير إلى أن الفرح سيكون الليلة بالتأكيد كان الجمل الوديع الهادئ الذي يسير الهوينى وعلى ظهره الصندوق البديع المزخرف بألوان تتعامد وتتقابل محاصرة أنواعا متعددة من نقوش الزهور، ويظل تقافزنا الطفولي منضبطا مع وقع أقدام الجمل من بيت أهل العروس إلى أن تنطلق زغاريد استقبال الصندوق على الباب المأمول، كنا نعرف أن الفاصل بين رحلة الأثاث ورحلة الصندوق تخضع لعوامل التركيب والتجهيز التي تحتاج إلى وقت لترتيبها وتنسيقها في أحلى صورة للأثاث دون المساس بذلك الصندوق الذي يحوي الأشياء الخاصة بالعروس (ولا يصح أن يقترب منها أحد)، وكان هذا الصندوق الساحر وراء اللذة الطافحة التي تمور في عقولنا تحت سطوة التصور لما يحويه، وكأن الأمر كله مع تعدد تكراره يمهد لأن نكتشف أن أثاث فرح أمهاتنا قد تحطم وتبدل وتغير عدا الصندوق القابع دائما في ركن غرفة الأمومة تحت لقب (السحارة)، مع أن وظيفته الأولى قد تعدلت بعد أن أصبح سحارة، حيث مع الأشياء الخاصة بأمهاتنا أضيفت النقود المصرورة وأوراق ملكيات الأرض والبقر والنخل والجلباب الأسود والثمين الذي تستعمله الأمهات رداء وقورا ومعبراً في أي مناسبات: فرحاً أو حزناً، وكنت أتصور خلال انجذابنا الصبياني لمعلم الإنشاء والتعبير في المدرسة أن (سويداء القلب) تعني هذا الصندوق بالتحديد.

غير أن صندوقا آخر داهم قريتنا مرة أو مرتين فأشعل نور سويداء القلب، إنه ذلك الصندوق الذي نمعن في فتحاته تحت ظلال ستارة غليظة لنشهد الزناتي خليفة وقد وقف متحديا أبوزيد الهلالي الشجاع الذي نرهبه جميعا، وتتوالى مشاهد انتصار البطل على الأعداء والمناوئين مع أهمية إضافة بعض المشاهد التي تشعل الرغبات الكامنة في دنيانا، إنه صندوق الدنيا الذي وقع بعد ذلك صريع الصندوق الأعظم: أي السينما، ليتضح لنا من الأمور ما لا يمكن لصندوق الدنيا أن يتحمله أو يستطيع أن يقدمه حتى لو كان في صندوق العروس أو سحارة الأمهات، متجاوزا تلك الصناديق الأسطورية التي ظل علي بابا في ألف ليلة وليلة يهتف خارج باب مغارته: افتح يا سمسم، إن منظر حبات اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والماس والمرجان وهي تتألق بإشعاع خاطف ثاقب يخترق الجمجمة سوف يظل الأمل الدفين للرغبة العارمة في امتلاك الكنوز، دون مقاومة ذات تأثير ضد ثقافة المدينة تلك التي فوجئت فور نزولي للعاصمة لأول مرة أن شارعاً معقداً وملتويا في حي الغورية يحمل اسم الصنادقية، ويلتف معه شارع الخيامية أي مركز صناعة وإعداد الخيام، كان شارع الصنادقية مزدحما بأنواع من الصناديق متعددة الأحجام: بعضها صغير لا يصلح إلا لمشغولات ذهبية (تثير السخرية مقارنة بصناديق مغارة علي بابا)، ثم تبدأ أحجام أخرى بأشكال وزخارف لا أعرف فيما تستخدم حتى اليوم، وقد ظل عقلي الريفي أو القروي يترجم أنواع الصناديق إلى طقوس يحمل بعضها موتى الأقباط وقد ارتسم الصليب على جدرانها، وبعضها ينكشف تحت وقع حفر سراديب البحث عن آثار الأقدمين، حيث ينجلي الظلام على التابوت ذاك الصندوق الصخري الذي ترقد فيه المومياء الموغلة في التاريخ لتحدثنا عن فرعونها الخاص بها، إن لفظ التابوت يسري على كل المعنى التاريخي للصندوق حتى حين حمل سيدنا موسى عليه السلام طفلا ليطفو فوق وجه اليم (اللغة المناسبة للبحر) هروبا من حصار جنود فرعون وهامان، كما أن بعض أنواع هذه الصناديق يرتدي أشكال صناديق البريد سواء في العمارات والبنايات أو في مكاتب مصلحة البريد ذاتها، حينئذ تعود سحارة كنوز الأجداد للطفو فوق تيارات عقلي تحت سطوة المثل الشعبي الساخر بعالم الأذكياء: (سرقوا الصندوق يا حبيبي لكن مفتاحه معايا) (أي معي)، وقد سمعته في النوبة القديمة جنوب أسوان في أغنية هازجة وهازلة: (سرقوا الصندوق يا عبيط لكن مفتاحه معايا)، والعبيط في اللهجة الدارجة هو الأبله، وربما كانت القدرات التعبيرية الشعبية وراء صياغة هذه المقولة: (كسروا حُق المرحوم لكن صندوقه سليم)، والحق بضم الحاء هو العلبة الصغيرة وتطلق على المنطقة الوسطى من البدن، في حين يعني الصندوق الصدر الإنساني حيث يكمن الفؤاد.

لكن كل الصناديق لم تستطع في ذلك العصر أن تفتح الباب على هذا الصندوق الأسود الذي تحمله الطائرات في منطقة حصينة من تكوينات جسدها حاويا كل التسجيلات التي تفسر الظروف التي قد تنتابها فتدمرها، وقد ظل صندوق الطائرة المصرية يعابث أعصابنا لنهتز كلما جاءتنا منه إشارات الارتباك أو الاضطراب خلال الصناديق السحرية العصرية المسماة بالتليفزيون، إنها الصناديق العصرية التي تلعب بالأحاسيس حتى لو تقلصت داخل صندوق الطرد الذي يتحكم في مشاعرنا خلال استرخائنا بين أمواج حمامات أماكن إقامتنا، حيث يحلو لنا إن استطعنا أن نفكر استعذاب مشهد صندوق الدين: دولياً كان أو مصرفيا، أو جيباً خاصاً.

وبينما أحاول التخلص من كل صناديق الكنوز والمومياوات والطفو فوق سطح البحر والبريد وأسرار سقوط الطائرات، فوجئت بتيار الكهرباء ينقطع، ويعم أوراقي الظلام، لأخرج من حجرتي لأجد ابنتي تبحث عن صندوق الشموع التي نركنها جانبا دون اهتمام، ونظل نبحث عنها، فما كادت ابنتي بعد وقت مرهق تجد الصندوق حتى صدمت لكونه فارغاً، من باب الحرص لابد أن يظل في الصندوق بعض الشموع ولو كان صندوق الفؤاد دعك من صندوق العقل، أي الجمجمة في هذه المسألة.

كلمات لها معنى

- **حتى خلايا جسدك التي تهلك في سبيلها عمر كله، من الممكن أن تعمل - سرا أو علنا - لحساب غيرك، أنظر إلى خلايا مخك أو.. قلبك .**
- **الاتجاه يسارا ينادي به المكافحون حتى يصبحوا من أهل اليسار، ثم يتوقفون .**
- **الإنسان: هو الحيوان الوحدي ذو الوجوه المتعددة .**
- **التاريخ يتجول كثيرا بين شواهد المقابر .**
- **الذين يحبون الموسيقى: يحبون فقط .**
- **كلما تضخم القرط في أذني الأنثى، يصبح صعبا أن تمعن في عينيها .**
- **النقود تنظم ضربات القلب وتعيد صياغة ابتسام الشفتين .**
- **لكي يزداد أصدقاؤك إعجابا بكتبك أو لوحاتك: أترك باب المطبخ مفتوحا .**

النّوم

الراحة المأمولة، والتي ينتظرها الجسد والعقل كي يتخلّصا بعض الوقت من الإرهاق. والحرمان من النوم وراء تفسير إقرار كثير من الأبرياء بجرائم - يوقعون صكوك الاعتراف بها - مع أنهم لم يقترفوها، حيث يتناوب عليهم المحققون بشكل ضاغط يحرمهم من النوم، وهم بذلك لا يبغون سوى فترة نوم، وليكن بعدها ما يكون، ولذا فإن أخطر أعداء النوم - بعد سلوك السلطة المشار إليه: الثروة المفاجئة، والخيانة في العشق أو الأسرة أو من الذين نستنيم ثقة فيهم، والحزن الشديد الناجم عن فقد الأحبّاء، أو استمرار الأعداء في حال جيدة دون الوقوع في شدائد العقاب منّا أو من غيرنا - أو من القدر، ثم الأدوية المنبهة، ثم حالات الانتظار اليائس والبائس، وكلها حالات تتواتر إقلاقاً لنوم الأحياء، وقد أصابت النباتات أنواع منها يؤدي إلى اضطراب قد يهلكها أو يحول دون إثمارها عندما يتغير أصحابها كما في حالات لوحظت في النخيل وشجر التوت.وبداية النوم: الوسن، ثم لا يلبث أن يصبح الوسن نعاساً، ثم نوماً، ثم الكرى - بفتح الكاف، فإن جاءت الكاف مضمومة فإنها تخرج عن حالات النوم المؤقت إلى القبور ذاتها، لكن لفظ النوم هو الدائم الدائب الاستعمال في اللغة اليومية، ومنها جاء (أبو النوم) الذي أصبح مصطلحاً على نوع من النباتات المخدرة كالخشخاش أو البانجو، وقد فشلت في العثور على اسم هذا النبات في الكتب أو من معلومات الذين يستعملونه، ربما لأن عقولهم ليست في الحالة المنشودة من اليقظة.

وينتشر النوم في الروايات - الموروثة والحديثة، وكثيراً ما يلجأ إليه علي بابا والملك لير وروميو - دون جولييت - وهيثكليف - بطل (مرتفعات وذرنج) والكونت دي مونت كريتسو وعبدالله النديم - في العودة إلى المنفى، وأكثر الأبطال نوماً كان السندباد عندما أصبح وحيداً مالكاً لجزيرة مترامية الحدود، وشرلوك هولمز حينما كان النوم يستغرقه بعد تفكير طويل في فك عقدة القاتل والضحية، أما أقل الأبطال نوماً، فقد كان امرؤ القيس الساعي دون ملل - مع سيل منهمر من دموع الشعر - خلف ليلى في اتساع البادية، وسعيد مهران المطارد من السلطة: أفراداً وكلاباً، وجيفارا وسط أشواك الغابات الشرسة في أمريكا الجنوبية، ويوسف إدريس حينما منحت المؤسسات الغربية جائزة نوبل لنجيب محفوظ، وأمي - نعم أمي أنا - ليلة مقتل أنور السادات، لوقوعها في مأزق عدم التصديق، وهو ما عانيت منه بصفة شخصية منذ أسابيع حينما اخترقت الطائرة الثانية الأبراج الأمريكية، وجمال عبدالناصر بعد هزيمة يونيو 1967 - حيث أصبح الملاذ كي ينام أن يتنحّى، لكن أمله لم يتحقق مما جعله حالة من القلق الذي انتهى يوم رحيله بعد ذلك بثلاث سنوات وثلاثة شهور - لكنه: هذا القلق - لم يغادرنا نحن حتى الآن، حيث لايزال الجيل الذي أنتمي إليه لا يجيد النوم.

وأخطر أعداء النوم: الإحساس بالذنب، والهجوع إلى الأماكن غير المألوفة في الغابات والجبال، بل إن ذلك قد يمتد إلى الفراش الوثير في الفنادق مادامت غير مألوفة، ومن أعداء النوم أيضاً: الخنادق، وسطوح السفن، والصراخ الملتاع، وأصوات الذئاب، وضجيج الموسيقى الحديثة، وأوار العقل حينما يلتهب إبداعاً، وطنين البعوض والزنابير، وذباب (تسي تسي) في إفريقيا الوسطى (وربما كان ذلك وراء إطلاق مصطلح نيام نيام على أبناء غاباتها الذين يصابون بلسع هذا الذباب في تعريف عكسي)، والهمس الغامض القريب في الظلام، وسطوة التوقعات والانتظار لنتائج الاختبارات والاختيارات في الامتحانات والوظائف والموافقة على العرائس أو العرسان، والكوابيس التي تلقي بك من فوق الأشجار أو من وسط السحب في عز النوم، ومشهد ثعبان أو عقرب حين تمر في هدوء قريباً من فراشك، وفقد الأعزاء (موتاً أو خيانة أو ضياعاً غامضاً)، كما أن ذلك مقصور على أقطارنا الشرقية، والزيارات غير المتوقعة من أصدقاء أو أقارب دون إدراك لارتباطاتك بصفة شخصية أو عملية أو وظيفية أو أسرية.

غير أن النوم سيظل السلوان الأكثر دفئاً لما يعتور حياتنا من مداهمات الأخبار والعواصف والأمطار وبرامج التلفزيون والكتابات الضحلة أو المدهونة بالنفاق الذي نطلق عليه - من باب التهذيب - المداهنة، مع أن مداهنة النوم ستظل أرقى ما نقوم به حتى الآن ليرتاح العقل والجسد من أنواع عدة من الإرهاق.

كلمات لها معنى

- **السماء لا تمطر ذهبا أو فضة، لأ ا لا تميل إلى سراديب المناجم .**
- **كل أنواع الكلام - في اللغات واللهجات - يكاد يستغرقها وقوع الحزن أو تفسيره .**
- **السمة الراقية - والوحيدة - التي تفضل الخيول على الحمير والبغال :قدر ا الفائقة على أداء إيقاع ذي إحساس إنساني خالص، دعك من الشعر الحداثي الآن .**
- **ثلاثة أرباع الجمال الذي يجعلك منتشيا: ينبع من وجدانك، الربع الباقي من الخارج .**
- **لا نود أن نعترف بأن الموائد تصلح للأكل والكتابة والمقامرة وألعاب البلياردو فقط، أما مباحثات السلام فإ ا - ودائما - تسقط م لقة لتتحطم في أجواء الحروب الملتهبة .**

العصر

وبمجرد أن اقترب من لفظ (العصر) يصطبغ معناه بالآية الكريمة : ﴿ **إن الإنسان لفي خسر** ﴾ وتطوف عيناي في سماوات عصرنا المضطرب الملتهب ثم في أراضيه ليزداد الإحساس بالاضطراب والخسران، حتى أن الوجدان الإنساني تعتصره شجون تفرز حزنا غامرا في القصيدة والقصة والذكريات والمذكرات والحوادث وأوراق التحقيق والمحاكمات والخوف والتوجس والارتجاف، ولولا التوازن الذي يحدثه الإيمان بالله لأصبح البشر عصارة تسيل على الخدود ـ إن كان للعصور خدود، الحديثة بالذات، وهو ما يجذبنا إلى أخطر المصادر التي توالد منها لفظ) العصر)، إنه تلك الحركة التي مارسها الإنسان منذ نشوئه عندما تلتف أصابعه المدربة حول ليمونة لتستنزف منها عصيرها، وهذه الأصابع بدأت تتوقف عن هذا النوع من العصر الخاص بالليمون بعد أن انتشرت عصارات كهربائية حديثة، وبالتالي فقد تفرغت ـ هذه الأصابع ـ لاعتصار المخ استنزافاً لقدراته في النميمة والوشاية والشكاوى الكيدية وخلط الحقائق ـ رجاء عدم استبعاد فن الإبداع: شعراً ونثراً ـ من هذا النشاط الذي تقوم عليه ميكانيكا العصر، وليس صدفة أن يستولي التعريف بالزمن التاريخي للنشاط الإنساني كله تحت لفظ العصر:

عصر الجليد وما تلاه من عصور حجرية وحديدية ونحاسية وبرونزية، وما يلي ذلك من عصور قديمة أو وسطى أو حديثة استطاعت ذاكرة التاريخ أن ترصد معظم حركتها وتطورها ـ فيما يعتقد المؤرخون، إلاّ أن شقائق أخرى من النظر إلى العصور تميل في إسنادها إلى حركة العقل الديني الذي يبدأ بعصر سيدنا إبراهيم ثم سيدنا موسى ثم سيدنا عيسى عليهم السلام، ويتوج آخر عصور الأديان بعصر الإسلام لنبينا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد مالت العواطف أن تستحوذ على بعض العصور لصالح القلب فاستولت على مراحل في الشعر والفن التشكيلي: العصر الجاهلي في الإبداع العربي قبل ظهور الإسلام ليحتوي على قصائد من الفخر بالرضيع الذي إذا بلغ الفطام تخرّ له الجبابر ساجدينا، لكن الأمور أصبحت أكثر إنسانية عندما انتشر الإسلام ليظهر القيسان: قيس بن الملوح الذي اعتصره الوجد سعياً وراء ابنة عمه ليلى طوال عمره دون أن يحظى بها، وقيس بن ذريح الذي أحب لبنى وتزوجها على غير رغبة والديه اللذين عذبا نفسيهما حتى يكرهاه على تطليقها حتى رضخ لهما، وبين هذين القيسين دارت عصور الإرهاق الوجداني التي أثرت في تكوينات النصوص العربية في المسرح والسينما والتلفزيون، دون أن ينفصل عصرنا هذا عما حدث في أوربا من دراما عصور مماثلة في روميو وجولييت أو مرتفعات وذرنج أو غادة الكاميليا، وبالتأكيد فإن أدب الهند والصين واليابان ومنغوليا وأندونيسيا ـ وأي بلد في أي موقع ـ لم يستطع أن يكون له عصر منفصل عن هذه الدراما الرومانسية.

إلاّ أن العصر الحديث ـ ثم الأحدث الذي نعيشه الآن: عبث في كل القدرات الوجدانية بعد أن هيمن العقل ـ بقدراته الذرية والتفجيرية والتحليلية ـ على شجن الوجدان، ولم يحس الفؤاد الإنساني بالوحدة والانعزال كما هو حادث له الآن تحت سطوة عصر الصواريخ والتدمير والاختراق والمشاهد المروّعة التي تصنع المجد للعقل العسكري المعاصر، وأصبح من أحلام اليقظة ـ أن نعود إلى ليلى في الصحراء نمعن في القمر ونهوّم في غيوم آخر الليل، ونرتعب من مجرد خلو السماء من قوس قزح، ألم تتنبه يا صديقي إلى أن سماء العصر الحديث قد خلت من المشاهد الرقيقة الجميلة حينما تتطاير عصافير آخر النهار لتحوم حول مآذن وقباب المساجد في تشكيل قوس قزح الذي يكاد كثيرون من أجيالنا لم يستمتعوا بنظره أبداً، ولتصبح ـ في المقابل ـ لوحات الجيوكندا ورحلة السيد المسيح إلى مصر مجرد تاريخ لعصر لم يعد ممكناً له أن يتكرر مرة أخرى- دعك من محاولتي استبعاد ما يحدث في فلسطين خارج كل العصور.. الآن..

كلمات لها معنى

- **الغرام يملأ شاشات السينما والتلفزيون، فلماذا لم يستطع أن يتسلل إلى الوجدان الإنساني حتى الآن؟**
- **أجمل امرأة في العالم هي زوجتي، أم أبنائي، وجدة أحفادي، أتركوني أشم بعض الهواء خارج هذه السطور .**
- **الصدق احتياط استراتيجي للكذّابين. لا أقصد ما أشمه في المذكرات السياسية .**
- **البعد الرابع ليس مذهبا في فنون المسرح فقط، ولا في قوانين الطبيعة، إنه يتحقق في الكلاب حينما ز ذيولها ترحيبا بروائح الأطعمة .**
- **أكثر تأثيرا من الموسيقى والقنبلة الذرية والأحداث الدموية :الهمس .**
- **أكثر الملابس صمودا في الانتقال عبر العصور: الأحذية وأربطة العنق .**

العيال

فور أن تتأزّم الأمور، وأحس بالاختناق، تداهمني رغبة في أن أصبح العيّل الذي يتوقف مخّه عند حدود معينة من الإدراك، فيريح ويستريح، وهي رغبة سريّة لا يعلن عنها أحد، فإذ بنا نفاجأ بمن يمدح واحداً من كبار الأصدقاء بأنه طفل، أي أنه بريء نقي لا تشوب أفكاره وسلوكه أي ذرات شريرة، ومع ذلك فإنك لا تستطيع - ولا يجوز - أن تصف الشخص نفسه ذا النيات الحسنة بأنه (عيّل)، لسبب بسيط نمارسه في تلقائية دون إدراك عقلي: الطفل لفظ مهذب تميل إليه الثقافة المعهودة، أما العيّل فإن محاولة استخدامه تصبح شائكة، ولذا فقد ظهرت مجلات ومطبوعات وقصص الأطفال دون العيال، كما أن برامج الأطفال تطفح فوق ذبذبات محطات الإذاعة وقنوات التلفزيون وتسجيلات الفيديو وألحان الموسيقيين وحناجر المغنين، دون أن يقترب هذا العالم الطفولي من العيال بالمرة، مع أن الإمعان في المسألة سوف يضعنا أمام حقيقة واضحة :إن الطفل- من الناحية الذهنية والسلوكية - وكل القدرات الغامضة أو الواضحة الأخرى - لا يرقى لمستوى فهم أو إدراك ما يقدم له باستخدام اسمه، الطفل هو الوليد الذي بدأ يستشرف اكتمال العام الأول من عمره، وسيظل طفلاً عامين أو ثلاثة - أو أربعة - ليبدأ بعدها مرحلة أن يصبح العيّل ذا الصبيانية المرنة المدركة لبعض ما يدور حوله، لكننا لا نتخلى أبداً عن كونه طفلاً، مع أن العيّل الذي يستخدم لفظه في الكلام والتوصيف يملأ معاجم اللغة وحكايات الأجداد وروح المداعبة، أو التخفيف من قوة العقاب، أو إثارة الإشفاق على من يكون عائلاً - أو أباً للعيال، أو الإعجاب الشديد للعائل نفسه أبي العيال حينما يقوم بعمل يثير الدهشة بصفته كبير العائلة - أي العائل الأكبر لها بما فيها من عيال - مهما كبروا - فهم هكذا بالنسبة إليه، دون أن ترد على اللسان وفي ألفاظ المصطلحات أي إشارات عن الأطفال، هؤلاء الأطفال الذين تهتم بهم كل ما أشرت إليه من مطبوعات وأغاني وتسجيلات دون العيال بالمرة.

فإذا كان العائل عيل صبره - أي نفد من إرهاق العيال أو الأمور أو النوائب أو البلايا، فإنه يعول - مرة أخرى - أي رفع صوته بالبكاء والنحيب، فإن انتقل الفعل خارج الإنسان إلى الميزان - مثلاً - فعال الميزان: أي اختلت كفتاه فمالت إحداهما هبوطاً وارتفعت الأخرى، إشارة إلى خلل التقدير أو العدل. فإذا عال فلان في الميزان تصبح الجملة تعني مباشرة (الخيانة المقصودة). وعال السهم: مال عن الهدف فلم يصبه، والقاموس اللغوي توقف عند السهم مع أن (العوْل) في عصرنا القائم يستولي على أنواع عدة من السهام الحديثة كطلقات الرصاص والصواريخ، فإن عال أمر القوم: اشتدّ وعظم وأصبح نموذجها إسرائيل ومَن يقف وراءها أو أمامها، وعندما تعول الأنصباء - في تقسيم الميراث - دخلها العول: أي خلل الظلم والميل عن الحق، وهو ما لم يقع فيه معظمنا لانتفاء ما يمكن تقسيمه من الميراث حيث لا يبقى إلا الأمل في الستر - وهو ما لا يخضع للعول المشار إليه.

لكن المعنى لا يلبث أن يعود إلى العائل - ليس فقط فيما يقوم به من تغطية حاجات عياله من الطعام والكساء والمسكن والرعاية، بل عندما يعوّل على شخص آخر: أي يعتمد عليه في شئون لا تخضع الأسرة - أو العائلة - لها على وجه اليقين، يقال: عوّلنا على فلان فوجدناه نعم المعوّل، فإذا عوّلت على الحرب أو السفر أو الانتقام أو التراحم أو الصبر أو الخداع أو المناورة أو مائدة المباحثات أو التغابي - افتعال الغباء - فإنك بدأت توطّد وتوطّن نفسك على أيّ منها - أو عليها كلها!!...

ونأمل ألا تزعم أنك العائل الوحيد المرهق في هذا العالم، فهناك نباتات عائلة تعتمد عليها نباتات أخرى - طفيلية - تستمد منها غذاءها وتشب على أكتافها، مثل نبات الفول الذي يتطفّل الهالوك على جذوره، ألم تلاحظ أننا استخدمنا (طفيلي - و يتطفّل) وهي ألفاظ قادمة من الطفل دون العيّل؟ وألا يدعونا هذا إلى التفكير في ذلك العائل - الذي هو واحد منّا - حيث يعيش علينا كائن آخر - متطفلاً أيضاً - يستمد منّا غذاءه - إنه دودة البلهارسيا والإنكلستوما والاسكارس؟ لكن - وبالرغم من ذلك - فإننا نفخر بأن فلانا (عوْل) لنا، أي أنه كبيرنا وعمدتنا - كما جاء في القاموس، وبالتالي فإن لفظ العوالة - الذي لم يرد فيما بين أيدينا من مراجع - يصبح جديراً بالاهتمام، فقد تردد لفظ (العوالة) في أعلى جنوب مصر صفة للمتطفل الذي يعتمد في حياته على الآخرين، وهي المرة الثالثة التي يعود فيها الطفل في مزاحمة المعنى الصادر من العيّل حتى لو كان عوالة. أما العويل - وهو غير البكاء والنحيب - فإنه ذلك الشريط الذي يتشبّع بالسوائل في المصابيح القديمة - هل تذكرها؟! - لكي تسري فيه إلى منطقة الاشتعال، ومن المؤسف أن هذا العويل لم يرد أيضاً في الكتب، لكن الذي جاء آخر الأمر وأثارني هو المعول: تلك الأداة من الحديد ينقر بها في الصخر، إنها نهاية لم أكن أرغب فيها بسبب انتشار المعاول في المناطق القاسية، ليست المحاجر فقط، بل وفي السجون أيضاً.

العودة إلى العيال - أي أن أكون عيّلاً - عند الوصول إلى مثل هذه الأمور أفضل.

كلمات لها معنى

- **جريمة كاملة ثابتة الأركان، واضحة الشهود، لم تقدم - حتى الآن - لمحاكمة مرتكبها، قتل الوقت .**
- **حتى في المخلوقات غير الآدمية: عيون الأنثى لها وميض خاص، وذكاء خاص أيضاً .**
- **جرب أن تصعد جبلاً، وأن تسترخي معناً في الآفاق الممتدة، إحساس غامر بالطهارة والنقاء، أو الأمل فيهما .**
- **الذهب والألماس: إ ما الوحيدان القادران على السعي الدائب حتى يصلا إلى عنق الأنثى، ثم يبدآن في البريق .**
- **بعد أن تكون رسالة تسعى إلى غلاف - أي ظـرف - تحتمي به، تتحول إلى غلاف - أي ظرف - بالغ الخشونة، أنا لا أقصد زوجتك .**

فَرْفور

ظللت أرى في كلمة (فرفور) لفظاً عاميّاً نستخدمه نحن - عامة الشعب :بعيداً عن رصانة الفصحى، على أساس أن (الفرفور) وصف ساخر لذوي الدم الخفيف والحركات السريعة والتصرّفات الطائشة - أو الحمقاء - التي لا خطر منها، إنهم أفراد يعبّرون عما يجول في خاطر ذوي الرزانة الحكيمة - أو الثقيلة - بالتعليقات الذكية اللمّاحة - والتي تكون شائكة في بعض الأحيان، إنهم - هؤلاء الفرافير - الذين استخدمهم مباشرة يوسف إدريس ليعبّر عمّا نتمنى أن نعلنه في مسرحيته الشهيرة، والتي قام فيها الصديق العزيز الفنان عبدالسلام محمد - قـبل أن نصبح صديقين بسنوات - بدور الفرفور، ولم يطرأ في عقلي خلال تلك الأحقاب - وبسبب ما أصابه من اتزّان الثقافة - أن الفرفور يمكنه أن يحتل موقعاً ذا شأن في قواميس اللغة العربية، وأنني أستطيع استخدام لفظ الفرفور دون أن أحاصره بقوسين، وأنه يعني - مباشرة دون مجاز - الغلام الشاب (أي الذي بين مرحلتي الغلومة والشباب)، والعصفور الصغير (الزقزوق)، والفعل فرفر: أسرع في خطوات متقاربة، ثم فرفر: طاش عقله، وسارع إلى الحماقة، وفرفر في كلامه: خلّط وأكثر في اندفاع (ومنه جاءت كلمة فِرْفِر - بكسر الفاء الأولى والثانية مع تسكين الراء الأولى في اللفظ الذي يعني المدفع القصير أو المسدس الغليظ عند وصفنا لهذا السلاح سهل الحمل عند الجماهير دون اهتمام بعدم إقرار هذا الفرفر في المعاجم أو صناعة السلاح)، وفرفر الشيء شققه وحطّمه، وفرفر الذئب الشاة: مزّقها. كما أن هذا النوع من الفرفرة القاسية يمكن تخفيفه حينما نفرفر الشيء: أن ننفضه ونستبعده أو ننظفه من الغبار، أما إذا قام واحد ففرفر واحداً آخر فإنه يكون قد نال من سيرته بما يشين العرض - أي عرّض به، وتكلم فيما لا يصح عنه، وفي حديث نبوي رواه عون بن عبد الله **"ما رأيت رجلاً يفرفر الدنيا فرفرة هذا الأعرج "** أي يذمّها ويمزّقها بالدم والوقيعة فهو فرفار: أي يعلو على شأن الحياة الدنيا ضيق الصدر بها.

ويتسع أمر الفرفور إلى ولد المعزة والنعجة والبقرة بما يتسم به من تقافز طائش أخرق، وهو ما يتصف به أنواع من ذوي الدم الخفيف مثيري المرح: شيبوب أخو عنترة بن شداد كمثال، وجميع الأفراد الذين يعيشون في ظلال الأبطال ليكونوا الجواب الساخر في القرار الصادر من ذوي البأس: في المسرح والسينما والروايات المكتوبة أو المنقولة شفاهياً، لكن الأمر يتجاوز هذا المعنى حينما يصل فعل الفرفرة إلى الأسد - دون معاون له - لينفرد بصيده من الغزلان فيمزّقها، دون أن يحسّ اللغويون بحرج حينما يُضنُّون على الحمل - الخروف أو الجدي الصغير - صفة الفرفرة خروجاً على السلوك الطائش المتقافز ليعنوا أن الحمل - في هذه المرة - فرفر: أي سمن واستكرش (أصبح ذا كرش) ووصل إلى مرحلة الإخصاب، لكن الفرس الذي يقع في الفرفرة، إنما تعني أنه قام بتحريك اللجام حتى نجح في خلعه عن رأسه.

بعد ذلك تصيب الفرفرة علم النبات ليصبح الفرفار اسماً لشجر صلب قادر على تحمّل النيران فتؤخذ من خشبه القصاع (جمع قصعة ولا تحاول التعالي عن اللغة الشعبية يا صديقي - فهي فصحى أيضا)، كما أن الفرفار مركب من المراكب يخصص للنساء فقط، فإذا انكسر الفرفار أو الفرفور ليصبح فرفيراً، فإنما هو نوع من الألوان الحمراء القانية جداً، ويمكنك - إن استطعت - أن تقتني الجوهر الفرفيري، الذي قد يقودنا إلى أنواع من الفرفرة تضيق بها الفصحى ونهمس بها في اللغات واللهجات الشعبية أثناء المطاردة المرحة والساخنة بين عاشقين قد تتاح لهما فرصة الفرفرة، والتي ننظر إليها بنصف عين ودون أن نخفي ما في القلب من رغبة جامحة نتوقف عنها الآن، حتى لو فاتنا أن ننبّه أن في مصر واحة الفرافرة ذات الهواء الجميل والنسيم العليل والسكون الرقيق الذي لا يحول بينك وبين مشاهد متوالية لفرافير المراعي من غزلان وماعز وشياه.

كلمات لها معنى

- **لا تمعن كثيراً في السطوح الجامدة للحوائط والجدران، ضع فوقها بعض اللوحات الجميلة، ثم امعن فيها كما تحب .**
- **نلجأ إلى وضع أيدينا في جيوبنا أثناء إصدار الأوامر، فينتبه الآخرون إلينا جيداً، وخصوصاً زوجاتنا .**
- **أي سعادة تصل إلى الوجه ليبتسم ويصبح بشوشاً دون المرور على القلب، فإ ا نوع من ا املة - أقصد النفاق الهزيل ...**
- **الجوع قد يهدد المخ، لكن الشبع المتخم فإنه لا يهدد المخ: يفلطحه حتى يصبح بركة أو مستنقعاً راكداً لا يصلح للتفكير... أو حتى التدمير .**

لائحة اللوح واللوحة

كلما لاح لي أن أقترب من عالم الألواح أو اللوحات لوَّحت أمور عديدة بسيفها حتى أبتعد، وبثوبها كي أخترق هذا المجال الواسع الممتع، مع مراعاة لوائح الأخلاق والتقاليد حتى لا يستمر التلويح في وجهي بالقلم أو الثوب أو العصا أو السوط، ولعل أقدم لوح عرفته كان ذاك المصنوع من الصفيح نحمله ونحن صبيان إلى كُتَّاب سيدنا الشيخ محمد عثمان تدوينا لآيات القرآن الكريم لنحفظها ثم نرتلها في خشوع صباح اليوم التالي، وهو ما أدى بعقلي الصبياني المبكر - والذي لا يزال مهيمناً على جمجمتي حتى الآن - أن يتصور اللوح المحفوظ في الآية الكريمة: بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ يتمدد في الكون الشاسع بهذا الشكل الذي كنت أحمله تحت إبطي، إنه الإحساس النقي الجميل بالوجود الذي ترسخه في الجهاز العصبي الإنساني كل الإنجازات العلمية الحديثة في المجالات كافة، والذي انفصل تماماً عما قد يعنيه اللوح في الحياة السفلى - أقصد الأرضية، إن مشهد اللوحة العليا لتألف الشمس - في مرح - مع قليل من السحاب، أو تسلل القمر المفعم بالشجن المضيء بين النجوم الأليفة، يمنحنا العزاء حين يخترق اللوحة - مع البرق والرعد - أنواع من الصواريخ الشريرة، حيث نعود إلى سلواننا الإنساني الخاص، والذي يتيح لنا فرصة النوم الهادئ - إن استطعنا. وستظل ابتسامة الجيوكاندا في لوحة دافنشي ساحرة بكل الرقة التي نسعى إليها، مع أن لوحات عديدة حملت ابتسامات رقيقة متعددة - وأكثر تعبيراً منها، لكنها لم تستطع أن تحتل موقع شفتي الجيوكاندا في فؤادنا، حتى لو كانت - هذه الابتسامات - قد حملت من المعاني والإيحاءات ما لم يطرأ في بالنا إزاء لوحة دافنشي، التي لم ترتكز صاحبتها على وسائد أريكة أو ركن من الفراش أو مائدة تفح باللذة، والتي تتفاعل فاكهتها - التفاح بالذات - مع الجمال الأخاذ لابتسامة الأنثى.

غير أننا - نحن وغيرنا - لا نلبث أن ندخل اللوح -دون اللوحة - إلى معجم التوصيف الهازئ هجوماً على الآخرين، وفي دعوى رفعها مواطن في أسوان - جنوب مصر - ضد أحد خصومه متهماً له بوصفه أنه (لوح) بما يعني الانتقاص من شأنه وتجريح شخصه، مع جفاف إدراكه وإحساسه ومشاعره، وهي لغة منتشرة ومعروفة، وحتى بين الأصدقاء في لحظات المرح المبالغ فيه، إلاّ أن القاضي رأى أن ينصح المدعي إن يتصالح مع المتهم، وضحك - من باب الدعابة - هامساً: لو أصدرت حكما ضد اللوح فسوف تتحول المحكمة إلى (مغلق) - والمغلق مخزن ألواح الخشب - وعروقه أيضا.

ويحظى اللوح بمواقع في تاريخ البشر، ربما يكون أقدمها لوحة نارمر الرخامية السوداء الموضوعة بين قدمي الملك مينا - أول ملوك مصر - والتي شملت أمجاده التي تضمنت توحيد الوجهين البحري والقبلي لتصبح أساساً دائماً وخالداً للقطر المصري، ثم هناك لوح الصلصال من الطين اليابس كان يكتب عليه أهل بابل مآثرهم وانتصاراتهم، كما أن للرومان لوحة مبادئ القراءة: صفحة من الورق تخط عليها حروف الهجاء والأرقام وأدعياتهم بخط كبير واضح وجليّ، وتلصق على لوحة رقيقة من الخشب، ومن الغريب أن المعاجم ودوائر المعارف تذكر ذلك دون الاهتمام بلوح كُتّاب سيدنا محمد عثمان وأمثاله في كل أنحاء مصر دهوراً طويلة، بل إنهم ازدادوا اهتمامًا باللوح ليشيروا إلى النوع الشمعي الذي كان يكتب عليه الرومان - أيضا - بطريقة يمكن طمسها وإزالتها لإعادة الكتابة عليه، لأنه لوح خشبي مغشى بطبقة من الشمع، مع أن أشهر لوح لا يزال يعمل حتى الآن: ذلك الذي يستخدمه عمال الأفران في إدخال رغائف أو رغفان الخبز - بمرونة فائقة - إلى بلاطة جوف الفرن الملتهب مع استعادتها بمرونة أكثر دقة، كما لا يمكن لك أن تغض العقل - وليس البصر - عن مشهد إمعان العازف الموسيقي للوحة المثبتة أمامه متضمنة (النوتة) الموسيقية.

وقد استطاعت اللوحة - واللوح أيضا - بعد إنجازاتها في القراءة والكتابة والرسم والموسيقى والتسجيل التاريخي أسفل الأقدام أو فوق مساحات حوائط الهياكل - أن تنحني تحت وطأة القرارات والقوانين والتنبيهات في لوائح تنتشر في المؤسسات وأدراج المديرين وسطوة الرقابة والتحقيقات ونظم المخازن والمحافظة على الأسرار وترتيبات الانضباط، لكن أي لائحة في أي موقع تخلو من وسائل الوشايات والدّس والنميمة، لأن هذه الصفات تكمن في لائحة القلب أو بين عظام الجمجمة، وتؤدي عملها - المثمر - لتنهار كثير من القصور الجميلة إلى ألواح محطمة في العراء - ومع قليل من العزاء والسلوان.

أما أخطر أنواع الألواح التي حين تتحطم يصبح صعبًا ترميمها فهي لوح الظهر الإنساني الذي يتحمل ما لا تطيقه ألواح المخلوقات الأخرى، عليك أن تقرأ أي مذكرات لأي فرد مبدع في الأدب أو الهندسة أو السلوك الاجتماعي - أو أي مجال - لتشهد بنفسك ما تحسه في حياتك - أحياناً - ودون مذكرات.

كلمات لها معنى

- **غريبة: عائلات عديدة تحمل لقب الشايب - أي الذي اخترق كل المراحل من الطفولة حتى المشيب، دون أن تجد عائلة واحدة تحمل لقب الشاب الذي في ريعان الحياة، ربما لأن الشاب في اللغة الخالصة تعني الذي يصيب مرة ويخطئ مرة، دعك من الشاعر أبو القاسم الشابي الآن .**
- **الذهول لا يصيب العقل فقط، فكثيرا ما يصيب الأرض الخاوية الجافة بالمطر المفاجئ، فتضطرب وتنبت الحشرات دون النبات .**
- **أسير في خطا هادئة، عيناي إلى السماء، لكن أمنيتي أن أخترق الأرض .**
- **أسرع وأخطر أنواع الموت: الترف الكسول .**
- **لابد من إنشاء جمعية لرعاية الموائد لكي تظل للسمر والمأكل والروائح الشهية، أي لحمايتها من جفاف ولؤم ومكر المباحثات، السياسية بالذات .**
- **كل أنواع حروف الجر والعطف والوصل والإشارة جامدة لا تصلح للصرف مثل الأسماء والأفعال .**

حـوافـظ

ظلت حفيظة - بنت عم أمي - تحتل موقعاً متميزاً في حافظتي - أي ذاكرتي ــ كانت نحيفة ضعيفة لها أصابع طويلة ذات بروز في عظمة المفاصل. وقد هالني - فيما بعد بسنوات عديدة - أن هذه الأصابع النحيفة غير مستوية التضاريس، تفوق في طولها أصابع عازفي البيانو والجيتار والعود، وفي تقوّسها أصابع النشالين ومستنزفي خلايا عسل النحل وجامعي ثمار التوت. كما أن عيونها كانت تلمع في وميض عيون الثعالب ونقاد الأدب لحظة اقتناص الدواجن ومقاطع نظريات السرد في إبداع الأصدقاء فقط. ومع ذلك فإنهم جميعاً - حفيظة والثعالب ونقاد الأدب - لم يثيروا حفيظتنا، ولاسيما أن بنت عم أمي المشار إليها تتميز بعشقها الواضح للآخرين: تعاطفاً وكرماً وخيالاً دافقاً، لا تتورع أن تسألني - في جدية هامسة - أن أنقل لعبد الحليم حافظ تحيتها الشخصية زاعمة أنه قريبها ويعرفها جيدا، دون اهتمام بأن المطرب المشهور بالعندليب الأسمر لم يكن - حتى - من الصعيد، وأنني لم أره في حياتي، لكن قاعدة كونه يحمل اسم (حافظ)، ثم : ولأنّ اسمي يَرِد في الجرائد والمجلات - يحول دون حفيظة والخروج من هذا الاعتقاد، والذي أكده أنّ شقيقها (نعمان عبد الحافظ) الذي لم تكن تحبه بالقدر الأخوي المعهود - أصبح بطلاً لأحد أعمالي الأدبية، وجاء اسمه في كلام الراديو والتلفزيون دون أن يرد اسم حفيظة بالمرة.

ودون تحفظ فإن أهل أمي كانوا - جميعاً - لا يعملون فلاحين، ويمتلكون قدراً مذهلاً من التكبر إزاء أهل أبي، ويتصرفون دائماً بصفتهم المحافظين على الأخلاق والمثل العليا والقادرين على النصح والإرشاد والإشارة إلى الطريق الصحيح، والتنبيه الدائم للمحافظة على المحارم ورعاية الأبناء وعدم تبديد الثروات، وهو أمر ظل يثير المرح - والسخرية أيضاً - لأنهم لم يكونوا ذوي ثروة أو عمل أو نشاط تجاري يبيح لهم ذلك. واحد فقط - هو خالي شقيق أمي مباشرة - ألقت به صدفة التعليم المبكر أن يصبح معلماً في المدارس الإلزامية - التي اندثرت الآن - وبعدها وصل إلى منصب ناظر مدرسة، وكنّا جميعاً - نحن وهم - نزهو به وظللنا نحتفظ به لنحارب ونباهي العائلات الأخرى. وقد استطاع خالي - الذي كان يقرض شعر المديح ترحيباً بذوي المناصب - أن يحيل جميع من حوله من أهله إلى نوع من الخدم البائسين، الذين ينتظرون أي إشارة منه، وكنت واحداً منهم، وما كدت أهرب حتى أفرغ حفيظته وحافظته ضدي، ليكتشف الجميع ما كنت أتميز به من صفات لئيمة ودنيئة، إنه السبب الأصلي الذي جعل الحافظ ينحرف بي كي أصبح كاتبا بدلاً من قاطع طريق.

والحافظ - لغة - الطريق البيِّن المستقيم، أما حافظ العين فهو الذي يظل يقظاً لا يغلبه النوم. أما إذا أصاب الحافظ تأنيث فأصبح حافظة فهي الذاكرة التي تحفظ ما تدركه القوة الذهنية من المعاني والمشاهد. وتأخذ الحميّة وسخونة المشاعر حقها من هذه المادة اللغوية تحت سطوة (الحِفْظة). ويقال: هو ذو حفظة: غيور على المحارم - دعك من أهل أمي الآن. كما أن الحرز أو التميمة أو الحجاب الذي يعلق على صدر الصبي يستأثر بلفظ الحفيظة - أي التي يعتقد الناس أنها قادرة على استدرار الحفاظ على الولد الغالي، وهو ما لا تحظى به الأنثى في هذا المجال بالذات وإن استخدمت الحفيظة حرزاً للوصول إلى أهداف أخرى. ولم يتورع عدد من ذوي النشاط السياسي أو المناصب الإدارية من اقتناص نصيبهم: وأشهرهم حزب المحافظين في بريطانيا، ثم المحافظ الذي هو أعلى موقع في الولايات والمقاطعات والمديريات في جميع أنحاء العالم. كما أن المصارف والبنوك والمؤسسات المالية تعشق أن يكون على رأس إدارتها المحافظ - ربما هنا يرتبط ذلك بمحافظ الأوراق المالية التي تحمل أصغرها وأقلها حجماً في جيبك الآن. ويرى أصحاب التحليل السياسي أن الاتجاه المحافظ هو ذلك الذي يرعى التقاليد والأعراف والقواعد الأخلاقية والسلوكية المستقرة، إلاّ أن لفظ المحافظ لم يلبث أن أصبح اتهاماً يصف به الذين يرون في أنفسهم أنهم (تقدميون (المناوئين لهم في الاتجاهات والأهداف والطموحات السياسية أو الإدارية.

ولعل أشهر من حمل اسمه مادة الحفظ أو المحافظة أو الحفاظ كان نجيب محفوظ الروائي المصري الشهير، إلاّ أن الطبيب نجيب محفوظ له شهرة راسخة في عالم الطب العربي المعاصر (ولد عام 1882 - ورحل عن الحياة منذ حوالي 40 عاماً)، وكان متخصصاً في أمراض النساء والولادة، وحصل على أعلى الدرجات العلمية والزمالة الفخرية من الجامعات الأجنبية، وقد أنشأت له كلية طب القصر العيني - المصرية - متحفاً لمجموعته المشتملة على نماذج ولوحات مكبرة عن العينات والجراحات الخاصة في هذا المجال. كما أنه وضع عدداً من الكتب الطبية بالإضافة إلى موسوعته في أمراض النساء، إلاّ أن حافظتنا قد تجد واجباً عليها أن تشير إلى محفوظ عبد الرحمن الذي يعد من أرقى كاتبي سيناريو التلفزيون، والذي لا تستدرجه المعالجات المثيرة للرغبة والنوازع.

مقطع مستقل

ومحافظة على ما جاء في السطور السابقة من قيمة لا نميل إلى تناول أي محفوظ أو حافظ آخر، حتى لا تضطرب الأمور فنقع في المحظور ويثير ما في القلب من حفائظ ضد كل ما هو محفوظ في القلب ضد عدد مذهل من الذين تحفظنا عنهم واحترزنا من الإشارة إليهم، ليصبح التحفظ - في معنى من معانيه المعجمية: الصيانة والقيد دون التحرر والانطلاق.

كلمات لها معنى

- **النسيم يغازل الأغصان والأوراق والزهور ونظرات العيون فتتمايل، الحوائط والقلوب الجامدة والقرارات الإدارية تنتظر الزلازل .**
- **الكلاب فقط تهز ذيولها تعبيرا عن رغبا تها في الرضا أو الرفض أو الذل والاستكانة، مخلوقات أخرى تفعل ذلك دون أن تمتلك ذيولاً .**
- **تفرض في رفق خد الأنثى التي تحبها، وما تكاد آمالك تتحقق وتصبح زوجتك، فإنك لا تفعل ذلك مرة أخرى .**
- **أجمل ما في الاستغراق سماعا للموسيقى الهادئة، أن أحدا ممن لا تميل إليهم لا يستطيع الدخول في ساحة أفكارك .**
- **الفعل الجميل كالمعادن الثمينة: يبرق ويلمع دائما .**
- **رجاء ألا تحدثني في أي موضوع أثناء استمتاعي بحصر وعد الأوراق النقدية .**

الخيط

الخيط من نسج العنكبوت إلى حياكة المؤامرات

اقطع خيطه، وكان فعل الأمر واضحا يكاد يكون جزءا من معنى القدرة الحاسمة في الانتقام الريفي خلال فترة حياتي الأولى، مع أن الأمر قد لا يزيد عن انفعالات مبكرة في عالم الحقول والبراري لا يقصد به ما جاء في المعجم: خيط الرقبة يعني نخاعها، لكن ارتباط الخيط بالقتل لم يلبث أن تهاوى تاركا المجال لذلك الخيط الأبيض الذي يمكن أن نتبينه تفريقا بينه وبين الخيط الأسود استقبالا لنور الأمل في الصباح الجديد، مع أنه - عادة ما يكون خيطا رفيعا بالغ الدقة والشاعرية يربطنا بعناصر الكون: نحس به أكثر مما نتبينه، ويفصل - أو يربط - بين الرؤى والأحلام والواقع، مع غض النظر عما جاء في رواية خضعت لهذا العنوان لإحسان عبدالقدوس، لكنه - هذا الخيط الرفيع - هو السحر الغامض الذي تتلمسه حواسنا :بالرؤية والسماع في فنون الباليه والتحطيب والرقص الشعبي (حتى لو كان شديد الضجيج)، وفي الرؤية - مع الموسيقى اللونية في لوحات الرسم المتألقة، وفي السماع - مع قليل أو كثير من الخيال - في الموسيقى الراقية، ثم في هذه الخيوط النورانية في الترتيل الديني الخاشع لآيات القرآن الكريم، حيث يسبح الوجدان في التيارات الناعمة التي تحملنا إلى الآفاق العليا، وهو ما يمكن أن نجد أثرا منه في ذاك الخيط الدقيق الذي يسري بنا في الأعمال الأدبية أو المسرحية المبدعة، والذي يمكن لك أن تحس بسحره وتستمتع بظهوره أو كمونه إذا ما كانت ذائقتك لاتزال تحتفظ بالإدراك الفطري التلقائي بعيدا عن حصار التدقيق القسري في مثل هذه النصوص تحت سطوة نظريات النقد الحديث التي - وكثيرا - ما تضطرب خيوطها وتتركنا بلا فهم بها على الإطلاق.

ومن الخيط يأتي الخائط والخياط أصحاب مهنة الخياطة، فإذا ظل الخيط في حدود ما نفهمه من مجريات صناعة الملابس والأزياء فإن الأمور سوف تظل أقوى من خيوط العنكبوت، لكنك إذا تذكرت المقابل اللغوي للخياطة: الحياكة، ويصبح اسم الفاعل: الحائك، فإنما الأمر سوف يتسع ليدخل في عالم حياكة المؤامرات والخدع وما إلى ذلك من نسج الدسائس والوشايات والنمائم، مع أن الحية - أنثى الثعبان - إذا ما خاطت خيطا فذلك يعني أنها انسابت على الأرض بسرعة، وخاط فلان أي: مضى سريعا، أو واصل السير السريع، دون أن يلوي على شيء، إنها معان وأساليب لم نعد نستعملها، إذ يصعب على روائي معاصر أن يملك الدقة في التعبير حتى لا نقع في معنى آخر- قد يكون نقيضا لما أوردناه، حين يقول إن بطله أخيط، أو بطلته خيطاء، ويقصد بذلك اختلاط الأبيض بالأسود، - إنه إشَارَة للمشيب.

إلا أن العسس ورجال البحث عما يعتقدون أنه ضالتهم الكبرى، يمسكون بأول الخيط الذي يقودهم - بعد عناء وتمحيص وتدقيق - إلى الهدف، ولأن الرحلة مرهقة فإنهم نادرا ما يتوقفون وإن اتضح لهم أن ما وصلوا إليه ليس الهدف المأمول، وفي البحث العلمي أو التحليل الاجتماعي كثيرا ما يكون ذلك مفيدا، غير أن الكارثة الكبرى في الموضوعات الجنائية التي يرفض أصحاب البحث فيها الاعتراف بأن الخيط الذي تشبثوا به أودى بهم - أو بغيرهم من الضحايا - إلى ما يثير الأسى، أو السخرية، أو إلى أخطر ما صنع من الخيوط في تاريخ الحياة: كفن الموتى.

والخيط - بدءا من كونه نسيج قطن أو تيل أو صوف حتى أصبح من مواد صناعية (لا تتحملها بعض الأجساد ولا تطيق التلامس معها إن لم تصبح رداء المثوى الأخير) ظل يطوق أعناق الجميلات بالعقودن ذات الخرز المتراقص قريبا من الصدر الدافئ، لكنه - أي خيط - يبدو بالغ المكر والخداع حينما يحمل السنارة أو الشص أو يصبح التشكيل المتداخل في شباك صيد السمك واليمام والسمان، الغربان والصقور تعرف ذلك وتنأى بنفسها بعيدا عن هذه المآزق، والأرقى - والأنقى - هذه الخيوط الدقيقة التي تفرزها دودة القز في بطء رقيق نادرا ما نحس به أو نشاهده، إننا نفقد القدرة على التعبير إزَاء تكوين الشرنقة التي تتداخل وتتوازى شعيراتها بالغة الرهافة والجمال، دون اهتمام بما ينتهي إليه أمرها، وعلى أي أجساد سيكون نسيجها، وهو أمر مختلف تماما عن خيوط - ليست من القز في معظم الأحوال - تقيم عالما من أغطية الرأس - الطواقي - والستائر وبيارق الهتاف ورايات الترحيب والمبايعة ..والاحتجاج أحيانا، دون الاقتراب من ذلك العالم الرحيب المتماوج ألوانا في السجاجيد والأبسطة وقصائد الغزل وأساليب التعبير الإنشائي وطلبات التراحم والإحساس الدافق بالحب والحياة، والذي كادت الخيوط الصناعية تفقده حرارته ورقته :فراشا على الأرض أو قصيدة تبدو منمقة في عالم ما بعد الحداثة الذي لا يمكنك الاستمتاع بخيوطه دون أن يضطرب أمرك فتبدو في لحظات الصدق النادرة، والتي أتمنى فيها أن أقطع خيط صاحبها.

كلمات لها معنى

- **عندما يصيب الركود البحيرات الواسعة، تتحول إلى برك ومستنقعات .**
- **ظلت تعابث السيجارة وهي تتكلم في أسى عنه، وما كادت تتسلل في الكلام عني وعن صفاتي النادرة حتى هالني ما تتمتع به هذه الأنثى من جمال وصدق .**
- **كل القوانين والدساتير والقواعد واللوائح التي أشارك في صياغتها تحاصرني فور انتقالي إلى منصب أعلى .**
- **أي ذكاء في العالم يحتاج إلى وسادة من البلاهة يضع رأسه عليها آخر الأمر .**
- **يتخصص الأطباء في القلب والصدر والعيون والمخ، دون السيقان والأذرع .**
- **حتى البيوت التي تزهو باستشرافها شواطئ البحر تشكو من ضجيج الأمواج .**
- **أخطر ما يمكن أن تواجهه في حياتك أن يلازمك الإحساس بغباء الذين يتحكمون في شئونك، دعك من التفسير السياسي الآن .**

الخل

الخل وفاء.. وحزن تاريخي

تذرعت بالخلال الحميدة خلال محاولتي اختراق أحراش التفكير في (الخل (متفاديا كل أنواع الاضطراب أو الاختلال، وذات مرة زرت أختي ـ في قريتي ـ كي أشاركها فرحتها الغامرة لبنائها منزلاً جديداً يماثل القلاع الشامخة، وقد وصلت سعادتنا إلى ذروتها خلال تحلقنا حول طبلية ترزح تحت ثقل الجدي المشوي، ومن دون أن أقصد ـ أي مع حُسن النوايا ـ طلبت قليلا من الخل ليريق طعمه ـ ورائحته أيضا ـ على شرائح الخيار والبصل والطماطم: من باب فتح الشهية، إلا أن أختي ـ رعاها الله ـ أمعنت في وجهي، كان واضحاً أنها لا تميل إلى استخدام عناصر معينة تذكرها بعصور الجفاف ـ أو الكفاف ـ القديم، فاضطررت ـ حينذاك ـ إلى إلقاء كلمة مؤادها أن الخل هو الخل الوفي الدائم على كل أنواع الموائد والطبالي (جمع طبلية) في مختلف الأمم والعهود والقوميات والشرائح الاجتماعية، وحول جبل (الدرهيب) ـ في الجنوب الشرقي للصحراء المصرية قريبا من شواطئ البحر الأحمر المتعرجة ـ لاحظت أن أفراداً عديدين من قبائل العبابدة والبشارية يحتفظون بزجاجات صغيرة مملوءة بالخل المركز، كما أن الذين يختلون بأنفسهم ـ في وحدة العبادة الصامتة التي يميل إليها العديد من الصوفيين في أعالي الجبال، أو كهان الأديرة المنقطعة بين الآفاق الرملية الممتدة: لا يخلو زادهم البسيط من قوارير الخل، وعندما أصيبت ساق بطل رواية هيمنجواي ـ ثلوج كليمنجارو ـ بالغرغرينا ليصبح معزولاً عاجزاً في خيمته: كانت رفيقته الجميلة تحاول إثارة اشتهائه للحياة بقطرات من النبيذ والخل، وكلاهما ـ النبيذ والخل ـ من مصدر واحد.

وكل بيوت العالم لا تخلو من الخل حتى هؤلاء الذين يذكرهم ظهوره بين المأكولات ـ الحديثة ـ بما لا يحبون أن يتذكروا من ماضيهم، أو حاضرهم.

فإذا ما ابتعدنا عن حامض الخل فسوف يكون مريحاً ـ أو مؤلماً ـ أن نتذكر الخل الوفي ـ بعد كسر الخاء ـ بصفته الصديق الأمين النقي، والنادر أيضا، والذي أصبح ثالث المستحيلات الشهيرة بعد الغول والعنقاء، وهو ما أنتج إحساساً دقيقاً ـ وساخناً ـ بالمعنى الراقي عندما يكون في الفؤاد موقع للخليل الإنساني، والذي كثيرا ما يتسلل ـ هذا الخليل الإنساني ـ إلى أنواع من الحيوانات التي ترقى الرفقة معها حتى نجد أنفسنا مضطرين إلى المقارنة الآسفة بينها وبين صحبة البشر.

إلا أن مدينة الخليل ـ (أثناء محاولتي اليائسة ـ أن نلتقط أنفاس الراحة بعيدا عن آلام الأخبار الوافدة من فلسطين الآن) ـ تحوم في جمجمة العالم لتذكرنا بأنها حملت اسمها التاريخي من احتوائها على قبور سيدنا إبراهيم الخليل ـ أبي الأنبياء ـ وزوجته سارة وبعض أبنائه، وكان اسمها القديم (حبرون) وتقع جنوب بيت المقدس، فهل يمكن لنا أن نهرب بعيداً حتى أدعوكم ـ من باب السلوان ـ إلى مائدة أم الخلول: هذا الحيوان البحري ذي الصدفة الذي يملح ويؤكل، لتنطلق الأقاويل عن قدرته الفائقة في إثارة كوامن النفس، وإن كانت ـ هذه القدرة ـ أقل بعض الشيء من الاستاكوزا، ونحن أبناء الريف نضطرب إزاء الجندوفلي والجنبري وأم الخلول، ونادرا ما ننجح في استطعامها، حيث لا تجد لها في نفوسنا الموقع المناسب خلال موروثاتنا الزراعية والصحراوية والنهرية التي تتوقف عند مخللات البصل والجزر والأسماك الصغيرة، لاحظ أن الخلال هنا تختلف عن الخلال التي تعني الرّطب ـ أي البلح الناضج لدرجة الليونة المعروفة لنا جميعا، كما أن الخلال تعني بقية الطعام بين الأسنان، وبالتالي فإن هذا الموضوع سوف يعود للاختلال كما يختل العصير فيصبح خلاً، أو الاختلال الذي يجعلنا نهتز فنفقد التوازن، أقصد الاختلال الشخصي دون التاريخي يا خليلي.

كلمات لها معنى

- **لعل ما يثير السخرية أن تحتل القناعة - التي هي الاكتفاء بالقليل بصفتها ك ًا لا يفنى - موضع القناعة بمعنى الاقتناع بما يحدث وما يقال .**
- **الجبر بدأ بالتعويض وينتهي بالقسر الإجباري .**
- **المخ يصنع المؤامرة ويترك القلب يـ ف دمه ليواجه نتائجها .**
- **قلت لها إنني استظل برموش عيونك، فنبهتني أن القاموس يخلو من الرموش، واللغة الصحيحة: الأهداب، إنني أستظل بأهداب عيونك، ولم نلتق بعد ذلك .**
- **النهار والليل لفظان مذكران، لكن الليل - وفي هدوء - يترك النهار وحيدا - عندما يصبح ليلة بالغة الحنان والدفء...والأنوثة .**

الدّق.. الدقيق

أثناء تجوالي بين كثبان الثقافة والكتب والأعراف والتقاليد، مع قليل من الاسترخاء تحت ظلال أجمات المعاني: كادت النيران تدق، والجملة ـ هنا ـ مكتومة ـ تحت سطوة هذا الدق الذي يميل العامة إلى التعامل به، متجاوزين بذلك المعنى المعهود في دق الطبول والدفوف وأجراس المعابد والإنذارات ـ في عصور ما قبل الرادار ـ حتى ينتهي الأمر إلى دق الوشم في معاصم الأيدي وذقون العذارى ـ وخدودهن أيضا، لكن الذكور استخدموا فن دق الوشم ليصبح معبراً عن انتماءاتهم وقدراتهم الخاصة والتي جعلت كثيرا من الأسود والنمور تمرح فوق الأذرع والصدور وبعض الخطوط في المناطق المرتفعة من الجبهة: أسفل منابت شعر الفودين مباشرة، لكنك ـ إن استخدمت اسم المرة من الدقة: دقة ـ فسوف يسعدك أن تتذكر أيام كفاحك عندما كُنا نتحايل على تنوع الغذاء الفقير بالدُّقة ـ رجاء ضم الدال، والبعض يفتحها ـ وهي الخليط المعروف الممزوج بالخل والفلفل والشطة والنعناع الذي يثير الرغبة في الالتهام ولأنك ـ عزيزي القاريء ـ من دقتنا، فإنني أعني أنك من نوعنا أو من أترابنا أو من نفس الفرقة البشرية التي تدرك المقصود بهذا التعبير، ومع ذلك فإن المجيد في صناعته يطلق عليه: الدِّقي ـ بكسر الدال، ثم لم يلبث النجارون أن استحوذوا على هذه الصفة فأصبحت علما عليهم، بل على نوع خاص من النجارين الذين يجيدون صناعة الصنف الراقي من الأثاث والتحف والمشغولات التي من بينها (الأرابيسك) الشهير، وهو ما لا يخضع له نجارو السواقي والأبواب والطبالي والموائد العادية، ولعل حي (الدقي) الشهير في الجيزة بمصر يحمل اسما لواحد من هؤلاء النجارين ذوي المهارة، حتى ولو كان (الدقي) قد اشتهر بضم الدال ليفصل الحي عن صاحبه.

فإذا ما خضع الدَّق ولتكرار المقاطع (مثل جر ـ وجرجر)، لتنشأ) الدقدقة) فإنها تعني الذكاء الفطري والقدرة الفائقة للشخص (المدقدق) في مواجهة الأمور الصعبة، ويطلقون عليه (دقدق)، كان ذلك منتشرا في الأفلام المصرية التي تتعامل مع البيئات الشعبية، ولايزال البعض النادر من ذوي القدرات يحظى بلقب المدقدق، مع أن المتخصص في مراجعة الحسابات، أي الذي يرقى عن المحاسب العادي يطلق عليه ـ في بعض البلاد العربية ـ المدقق، وهذه الصفة غير معروفة في مصر وإن كانت حيثيات كثير من الأحكام القضائية تميل نحو استخدام صفة (المدقق) لمن يتولى التحقيق بدقة وذكاء في الأمور القانونية الغامضة، وبالتالي يصبح الإنعام والإمعان في البحث والتمحيص يعنيان هذه الدقة ولو كانت في النظر المتأني للعيون الجميلة بالذات، حتى لو كان ذلك خلال دقيقة أو دقيقتين بصفتهما الصفة الملازمة للوقت العصري الرقيق قبل أن تتجمع ستون دقيقة منها لتصبح ساعة كاملة، أما الدقاقون فهم جماعة تخصصت في بواكير العصر الحديث في دق سنابل القمح وكيزان الذرة، وأحيانا دق الغلال ذاتها ـ ومنها جاءت زقاق المدق لكاتبنا نجيب محفوظ.

ومن الغريب أن الدقيق صفة مطلقة لطحين الحبوب، ويحظى باحترام يصل إلى التقديس المعروف يقسم عليه البعض إثباتا لصدقهم أو لبراءتهم، لكن المعجم لا يلبث أن يجعل الدقيق صفة للرجل قليل الخير، أو الأمر التافه (المعجم يستخدم لفظ الحقير)، أو الغامض، وهي معاني مهجورة لا تميل إلى التوسع فيها، إذ كثيرا ما نتشاءم إذا ما دخل ضيف علينا فتساقط الدقيق من الجوال أو الوعاء، كما لا نميل ـ بالمرة ـ أن نرى قطة أو كلبا يحتك بأجولة الدقيق، وربما رش أو نثر الدقيق فجراً في طريق الأعداء كان أمراً يفوق رش الملح رغبة في الانتقام الشرير، وقد كنا نتفاءل ـ أيام الصبيانية ـ حينما نجد فراشة (أبو دقيق) ذات الأجنحة البيضاء تحوم حولنا ناشرة إحساسا طيبا بالأمنيات العذبة ـ المعلنة أو السرية**!!**..

أما الدق ـ بمعنى استخدام القوة ليس في الطبول فقط ـ بل وفي العقاب أو الفعل الجسيم، فإن الأمور سوف تصل بنا إلى دق العنق، بدلاً من أن نحاول أن نتذكر شاعرنا القديم ـ ابن دقيق العيد ـ الذي فشلت في العثور على أي ذكر له بين آكام دوائر المعرفة أو الموسوعات التي بين يدي، والتي لا تميل إلى التدقيق في كثير من الأحيان.

كلمات لها معنى

- **الدموع التي تجري في أشعار اللوعة والتباريح لا تترك للعيون فرصة التحليق في النسيم الرفيق .**
- **يميل الحق للجدية والتجهم تاركًا المسرح واللهو للباطل .**
- **الذهب يفقد بريقه إن ظل في جدول العناصر بين النحاس والحديد، إنه يسعى كي يتألق وحده في الرقبة والمعصم .**
- **كثير من حوائط البيوت شديدة الصلابة كالغباء تماما .**
- **دع طفلك - ابنا أو حفيدا - يتقافز كي يترك لذاكرتك استعادة فرصة السعادة المفقودة .**
- **مشكلة الجوع تصبح كارثة حينما تعالجها على مائدة من لا تحب، لا أقصد المسائل الزوجية التي داهمت خيالك الآن .**
- **حتى العقارب تنتظر ضحاياها في الأماكن الظليلة الهادئة .**

طبق... و... تطابق

خضوعاً لنزعة شخصية، وتطبيقًا لمراعاة مشاعر أهلي - وكل أفراد الطبقة التي خرجت منها، ثم خرجت عليها، حاولت أن أتفادى الإشارة للموقف المحرج الذي أطبق على صدري حينما أشارت لي زوجة خالي - في أوائل أيام وصولي للقاهرة قادمًا من الريف - أن أناولها ثلاثة أطباق من المطبخ، هذا المكان الضيق المختنق بالأواني والصحون، وظللت أسعى بعيوني باحثًا عن أي طبق دون جدوى، حينئذ داهمتني زوجة خالي ساخرة لتتناول ثلاثة صحون، لم أكن - خلال تلك الأيام المبكرة - قد قمت بتعديل القاموس الريفي: فالطبق في بلادنا يعني مباشرة هذا الاتساع الدائري المصنوع من خوص وسعف النخيل، ويتم على مساحته رصّ وتنظيم خبزنا الحميم - البتّاو - لادنًا طريًا أو مقمرًا ساخنًا، أما الإناء الذي تناولته - غاضبة وهازئة - فهو الصحن وليس الطبق، وبالتالي فقد اضطربت - في عقلي الواسع -النظريات السياسية والاجتماعية التي تناولت الطبقات دون الصحون، وكانت الطبقة التي أنتمي إليها قد استحوذت على لفظ البروليتاريا تاركة الطبقات التي نعاديها (ونبحث عن كل أمراضها مع إسقاط أي امتياز إيجابي لها) تمرح بين البرجوازية والأرستقراطية، ورأينا فيها أوبئة الوصولية والانتهازية والأنانية والنفاق وممارسة أنشطة وأفعال تفشت - بلا أخلاق - في النصوص الأدبية والمسرحية وأفلام السينما - في ذاك العصر، دون أي محاولة منا لاختراق الجزء الراقي في أي طبقة منها، والمتمثل في إنجازات الفنون الراقية من موسيقى وتشكيل ولوحات وصناعات ودبلوماسية وعروض الأوبرا والباليه وصياغة البيوت والمدارس والمعاهد والمباني الدينية في المآذن والقباب والزخارف والآيات المتألقة في وجداننا الشعبي، ملاحظة سريعة من باب الاستدراك: أن تصميم هذه الأفكار يحتاج إلى إحساس متمدين بالغ الرقي، أما تنفيذ هذه التصميمات فقد تقوم به الطبقة التي أنتمي إليها من ذوي القدرات الفذة في البناء والتشييد وإدراك المساحات والتحمل والاحتمالات، وخلال هذا التصادم الطبقي في هذه العهود ظل العنصر الأساسي المشترك بين كل الطبقات هو الطباق، نعم: إنه ذلك النبات العشبي المعمّر من الفصيلة الأنبوبية ذات الزهور المركبة، أقصد نبات الدخان في أرخص أنواع السجاير وفي أرقاها وأغلظها وأكثرها رونقًا: السيجار، والذي نادرًا - بل من المستحيل أن تجد واحدًا من أهلي استخدمه - إلا إذا زار أوربا أو أمريكا ليعود مجللاً بافتخار خصوصية السيجار - بعض الوقت - ليعود إلى طباق السجاير والشيشة (ذات اللّيّ)، مع إضافة أصناف أخرى تضع الموضوع كله خاضعًا لتطبيق قانون المخدرات، مع أن الطباق، لغة، يعني المطابق، أي الجمع بين معنيين متقابلين عند أهل البديع مثل: يُحيي...ويميت، إلا أن الثقافة الحديثة - أقصد ثقافة الطبق الطائر لم تعد تتوقف عند الموروث الحيّ من اللغة العربية، فأطبقنا عقلنا، وشفتينا، تمامًا مثلما نطبق طرفي الصحيفة لنركنها جانبًا بعد القراءة السريعة لمحتوياتها، مع أن التطبيق - الذي كان متوقفًا على الخبز ذي الاتساع أو الملابس النظيفة عند ترتيبها في مكان حفظها أو التعامل معها، هو ذاته فن التطبيق (علم التطبيق أفضل) الذي يعني - في بدايات المعرفة: إخضاع اللغة لقواعد النحو والصرف، ثم - بعد ذلك - إخضاع وتطويع المسائل والقضايا والسلوك والتعامل للقواعد العلمية ونصوص القانون والمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية.

إني أحس الآن أن أمورًا عدة بدأت تحاصرني وتطبق على عقلي وفؤادي، مما أصاب قلمي بالطباقاء، والطباقاء تعني - كما في المعجم - من يريد الكلام فتطبق شفتاه، وكنت معتقدًا أن ذلك تعبير عن العنف الذي يمارسه زعماء العصابات أو ذوو السطوة الإدارية أو الانضباطية (من الضبط والانضباط)، إلا أن الأمر يظل واضحًا في تلك الطباقاء التي يمارسها ذوو القدرات الضاغطة من المذيعين ومقدمي البرامج في الإذاعة والتلفزيون، تسألني نجمة تلفزيونية في طباقاء واضحة: لماذا اخترت منطقة الصعيد لتكتب عنها قصصك ورواياتك، والإجابة تبدو سهلة: لقد قمت بتقسيم العالم ووضعته في طبق واسع من سعف النخيل أمامي: منطقة سيبيريا وألاسكا والشمال المتجمد، أوربا الشرقية، ثم أوربا الغربية، ثم منطقة الشام - حيث سوريا ولبنان والأردن، ثم شبه الجزيرة العربية، وبعدها منطقة الدلتا المصرية مع إضافة سيناء إليها، وقبل أن أتحرك جنوبًا لمناطق إفريقية وآسيوية حتى أستراليا، أحسست بأنني أصبحت أسير الإجابة عن سؤال طباقائي، وأن اختياري للصعيد موقعًا لكتابتي سوف يطبق على صدري، فرفضت الإجابة، كما رفضت أيضًا أن أمعن في أصابعها المتشبثة بأوراق رقيقة، أمعنت فقط في عيونها، لعلها كانت اللحظات النادرة في حياتي التي اخترقت فيها طبقات الوعي الشخصي، والتي كانت أكثر صلابة من طبقة الصخور الرسوبية، والتي تختلف عن طبقة الرمال المتحركة تحت سطوة العواصف التلفزيونية المفتعلة، وهو مالا يعرفه الكثيرون من ذوي أو ذوات الوجوه اللامعة، حيث لا يدركون أن بنات طبق هي السلاحف، وأن الطبق - في علوم التشريح الطبي - هو الغضروف بين كل اثنتين من فقرات الظهر، وهو ما يخضع له واحد مثلي - بصفتي من غلاة المثقفين أو هكذا تبدو لنا الأمور - حينما يفوتنا أن بعضنا ينعم في (جهل أو جنون مطبق)، وأننا نمارس المطبّق: هذا الشيء الذي يلصق به قشر اللؤلؤ حتى يصير كأنه لؤلؤ أصيل.

ومن الغريب أن الطابوق - أي صناعة الطوب - لم يرد التعريف بها في الموسوعات والمعاجم، مع أن اللفظ مصطلح وارد ويستعمل دون أي ضعف لغوي، وما ينتج من طوب يمتاز بتماسك جزيئاته وقلة المسام التي تحول دون نفاذ الأجواء الحارة جدا أو شديدة البرودة إلى المنازل التي تقام حوائطها بهذا (الآجر)، وتكاد البيوت المصرية - الريفية بالذات - تستفيد من هذه الطبيعة الجميلة، وبالذات بيوت أهل النوبة ذات الجو - المعتدل في منطقة بالغة الحرارة صيفا، وهو ما يناسبني الآن كي أضع ذراعي تحت رأسي، وأطبق عيوني، وأنام.

كلمات لها معنى

- **أمر يراه البعض غريبا، كل أماكن إقامتي تكون الآن في الأدوار العليا، هل لهذا علاقة بالأدوار السفلى التي عشت في ظلالها - أو ظلامها - آلاف السنين المبكرة؟ !**
- **أجمل ما يمكن أن نستمتع - في هدوء - به، يكون دائما - ويستحسن أن يظل - غير خاضع للتفسير والتحليل .**
- **إحساس لم أستطع طرده أو الاعتراف العلني به، أن أحفادي المتقافزين في البيت: على الفراش والمقاعد وأسفل المكتبة في صخب طفولي بديع، ألفوا في جوفي بسؤال شائك: لماذا يحدث ذلك بعد أن توقفت عن الإنجاب بمجرد ظهور الجيل الثاني؟ !**
- **أوزع ما أملكه من نقود - قليلة بالفعل - على كل جيوبي، حتى لا أضع يدي في أي جيب فأجده فارغًا خاويا .**

الخُبز.. إلى الأبد

ظللت أمعن في كفوف أمي وهي تحرك أصابعها ـ في انقباض وانفتاح ـ بين تكوينات العجين لتصل بالكتلة إلى مرونتها المناسبة تمهيداً لتدخل إلى الحركة التالية على المطرحة أمام فوهة الفرن، وعندما يتشابك أوار النار مع الدخان معلناً قبول الفرن لتشكيل الخبز ـ مع هدوء اللهب ـ تكون المطرحة ـ هل تذكرها؟ إنها الأداة التي تتراقص فوق ساحتها قطعة العجين ـ قد أخذت دوراتها المرنة المتوالية، تلك التي استغرقت من عمر الإنسان ملايين الأعوام: حينما بدأت أصابع الإنسان تعرف وسائل جمع سنابل القمح والشعير والشوفان، وقناديل الأذرة والبطاطا كي تتحرك بها مخترقة عصورا حجرية ـ قديمة وحديثة ـ وبرونزية أو نحاسية ثم عصور الحديد والكلام والموسيقى ـ حتى تطل بها على الأفران الذرية ذات المجالات الإلكترونية ذات الأثر الواسع ـ والرهيب أيضا، دون أن يمنح علماء تاريخ الإنسان عصراً يمكن أن يطلق عليه (عصر الخبيز) مع أنه توازى مع كل العصور.

ومن الغريب أن الخبز ـ مهما اختلفت وسائل إعداده ـ يظل عاملاً مشتركا مهما تباعدت الجماعات البشرية في المكان أو الزمان أو كليهما: عند المصريين أو الفرس أو الفينيقيين أو البوشمن (جنوب إفريقيا) أو القبائل الاسترالية والهنود الهنود أو الهنود الحمر، أو بواكير العرب في الصحراوات أو التجمعات المتحركة التي أصبحت قرى ومدنا ثابتة لها تأثيرها المعروف في الحضارة الإنسانية، وهو ما اختصرته مواصفات العروس (العروسة أفضل) حينما كان الاختيار يقع عليها لأنها تجيد الخبيز ـ دون التفريط في مواصفات الترشيح لتكون زوجة ذات أصل وأخلاق وأرض وعقار أو متاع لنصل إلى أهمية عنصر الجمال الأنثوي آخر الأمر ـ يمكن إضافة التعليم الآن.

والخبز ـ في حالته اللدنة الجميلة كان ـ فيما أزعم دون اهتمام بكتب المؤرخين ـ هو (البتاو) الريفي المصري والخبزة الصغيرة المستديرة عند البدو، وهذه الخبزة هي التي تقدمها طقوس المسيحيين مقسمة بصفة الرحمة في بعض أعيادهم، كما أن الخبزة ـ أيضا ـ لا تزال هي الهبة الممنوحة للجوعى العابرين على الأديرة في الصحراوات، لكن الأمر يتحرك بالبتاو والخبزة إلى تكوينات تخترق العصور لتصبح أرغفة شمسية ـ أي تلك التي تترك لضوء الشمس فترة على المقارص (أي القواعد الخاصة بها) حتى تصل ـ بنوع من التخمر إلى قوام يساعد في اكتسابها لذة لم يعد العصر النووي القائم يأبه بها، أو في أنواع من الكعك البدائي الدائري الذي ظل أحقاباً هو القربان الأساسي في طقوس زيارة المقابر والمقامات وبيوت الأقارب، أو العطف ـ في الصباح المبكر ـ على الفقراء، وهذا الكعك ظل العملة المصرية الريفية ـ بمختلف أحجامه ـ أيام المواسم والأعياد التي نحصل بموجبها على السماح لنا بامتطاء الخيول الخشبية والمراجيح، أو المشاركة في متعة الفرجة على الغوازي الفاتنات المتراقصات على أنغام الطبول والربابة والأرغول والمزامير الشجية ذات الشجن الهاديء ـ بين رقصة وأخرى.

ولم يكن مدهشاً ـ ولا مطروحاً للمناقشة ـ أن تجد أمامك دعوى طلاق لأن الزوجة ـ أو العروسة في أغلب الحالات ـ لا تجيد الخبيز، وكان القضاة الذين ينتمون إلى المدن دون القرى ـ يحتاجون إلى الوقت يتهامسون فيه كي يقتنعوا بأن ذلك يصلح سببا لمثل هذه الكارثة، حتى كانت إمبراطورة فرنسا ـ زوجة لويس السادس عشر ـ قد أطلقت تعليقها شديد الجدية على الجماهير الفرنسية الثائرة جوعاً بسبب عدم توافر الخبز، حينما قالت: ولماذا الخبز؟ فليأكلوا البسكويت، دون أن تدري أن البسكويت ـ في تلك العصور المطلة على العصر الحديث ـ كان أرقى تكوين للخبز وصل إليه البشر في العالم كله، وفي بلادنا العربية كانت رائحة البسكويت التي تخترق الخياشيم في عذوبة مثيرة لحواس الشم ـ هي المفتتح الحقيقي لصباحية الزفاف السعيد، والإيذان للأقارب والأصدقاء كي يضعوا النقوط المناسب (أي الهدية المالية الجميلة) بين تلال البسكويت في صحن السعادة الكبرى، وهو ـ مازلنا في مسألة البسكويت ـ الرمز الحقيقي لقدرات العروسة وعائلتها وأصولها وصحة اختيارها، وهو ما لم تقع فيه ماري انطوانيت ـ المشار إليها ـ لعدم مرورها في مراحل الخبيز الأخرى السابقة على البسكويت، والتي أدت بها إلى المقصلة الفرنسية ـ أعوذ بالله ـ والتي يظل شاهدها المؤلم يحول بينك وبين متعة الركون إلى دفء فرن شتوي قد أدى مهمته في تقديم الخبز الساخن لك وللعيال الذين يتقافزون حولك ـ أقصد حول الخبز ولو لم يكن كعكاً أو بسكويتاً، أو لو انتهى أمرك ـ شخصياً أو عائلياً ـ إلى تلك الوجبات العصرية ـ والسريعة ـ التي لم تستطع أن تتخلى عن الخبز.. حتى الآن، وللأبد**!!**..

كلمات لها معنى

- **الفرق** بيني **وبينك** أنني **لاأزال أستقبل الصباح، فانخفضت** في **جوانحي عوامل المكر والدهاء...والتآمر .**
- **السلطات الحاكمة -** في **كل** أنحاء **العالم -** لم **تصل** إلى **ما هي** فيه **عبثًا، دعك الآن من قصائد الشعر** التي **ترافصت حول أقدامها .**
- **يا ليل الصب** متى **غده، البعض فهم الصب على أساس أنه صراف المرتبات .**
- **لاتزال الابتسامة أهم وسائل** تمهيد **ورصف الطرق .**
- **كل هذا التجديد والتطوير** في مختلف **أنحاء الحياة،** ثم نـ **عج لأن العصر** الحديث **تلازمه جرائم وفواجع** لم **تكن معروفة من قبل .**
- **تتوقف الكلاب عن النباح عندما تنحني... لتأكل .**

اللحم

لا يوجد في أنحاء أقطارنا رمز للكرم والجود يعلو على اللحوم ـ مختلفة الإعداد والتجهيز والتحمير والشيّ والسلق، مع قليل من الابتسامات الهادئة، والتي يمكن أن يضاف إليها نوع من الحفاوة الدافئة لو تمّ هذا الكرم تحت عناية أنثى. وما زلت أتساءل ـ دون أي جواب ـ لماذا تحتل اللحوم هذا الموقع المتميّز فوق المائدة الإنسانية (الشرقية بما فيها العربية بالذات)، مع كل الهجوم الضاري على ما تسببه اللحوم من أضرار في الجسد الحيّ، ومع كل محاولات أجهزة الإعلام والتدريس والإرشاد في رفع شأن الأسماك والنباتات لتحتل الموقع المؤثر في الجهاز الهضمي البشري، إلاّ أن أطباق اللحوم لا تسمح لكل هذه المحاولات ـ أو المؤامرات ـ بأن تزيحها من ساحة المائدة أو الطبلية أو حتى الشطائر (السندويتشات) السريعة المعاصرة. ولعله من المناسب أن نشير هنا إلى أن كثيراً من مجتمعاتنا لا تزال غير قادرة على تقديم الأسماك ـ دون لحوم الحيوان أو الطير ـ للضيوف، وليس صعباً أن تفاجأ بتقييم أو تثمين وضعك الاجتماعي للقادمين، يبغون مصاهرتك من تضاريس اللحوم المقدمة على ساحة كرمك، الحيوانية أولاً ثم لحوم الطير، أما السمك فسوف يدمر نتائج المباحثات تدميراً لا علاج له، مهما حاولت أن تبدو مثقفاً مراعياً القواعد الصحية التي يجب أن يلتزم بها عتاة وجبابرة المتباحثين.

والحيوان النباتي ـ الذي لا يستسيغ ولا يقبل أن يأكل اللحوم، ولا حتى الأسماك ـ أكثر وعياً وامتداداً في الحياة من غيره: الأفيال والبقر والحمير والخيول والغزلان والأرانب والجمال والأغنام والماعز والمتخصصون في الدراسات الغذائية وكبار قادة الأمم الناهضة: غاندي لم يذق اللحوم أبداً، وهناك من يرى في القادة المتهورين الحمقى الذين يقومون بأفعال مدمرة لأممهم ـ والأمم المجاورة لهم ـ أنهم نموذج لمدمني أكل اللحوم، وقد لاحظ أحمد حسنين ـ الرحالة المصري الذي اخترق الصحراء الغربية واكتشف بعض الواحات غرب مصر وجنوب ليبيا ـ أن الحيوانات آكلة اللحوم، مثل الضباع والثعالب والذئاب ، تعيش طويلاً حتى تصاب بوهن وضعف الشيخوخة ، إذا ما ظلت في الصحراء المجدبة القاحلة التي تعاني فيها ـ هذه الحيوانات اللحومية ـ من ندرة اللحوم، وأن أمثالها من النوع نفسه حينما تقترب من الوديان ليتيسر لها الحصول على لحوم الدواجن والضفادع وطيور المزارع والحقول لا تعيش طويلاً، ولذا فمن الملاحظ ـ بالنسبة لنا نحن محدودي التجربة ـ أننا كثيراً مانجد الحيوانات المفترسة المشار إليها، وقد نفقت وأصابها الموت الفجائي أو البطيء، خلف أسوار المذابح والسلخانات حينما كانت تقام خارج التجمعات السكانية، حيث كانت بقايا الذبح والسلخ غذاء وفيراً يقصر أعمار المستفيدين منه: الإنس والحيوانات.

غير أن اللحم ظل مخترقاً كل الأزمنة بما فيها من نصائح وتعليمات ليحتل الموقع الغذائي المؤثر الأبدي الخالد، حتى أن الالتحام تولدت منه عوامل الالتئام، واللاحم الأعظم في الذهب والفضة هو الصائغ، والحكيم يلحم الأمر: يحكمه ويصلحه، ولحم بالمكان: أي أقام فيه طويلاً، فإن التحم الأمر بين شخصين فإنه يعني الاتحاد المعنوي أو الجسدي (وما في ذهنك حول هذا الالتحام صحيح وإن كان محرجاً) أويعني هذا الالتحام: الوصول بالصراع إلى تصادم دموي، رعاك الله دون الوقوع في هذا الالتحام، فإن اتصف الجرح بالالتحام فإن ذلك يعني ـ مباشرة ـ الوصول إلى طريق البُرْء والشفاء، وقد نجح اللحم ليكون المعنى الأعظم للوشاية والنميمة وإيقاع الأذى بالآخرين اغتياباً: {أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه}، وفي كثير من معتقدات الناس ـ حتى الذين لم يصدر في دينهم نص واضح بالتحريم ـ أن لحم الخنزير أو الحلّوف يحمل أنواعاً من الخلايا والتكوينات المؤثرة في النفس الإنسانية: ربما المقصود بذلك الأعصاب والمخ، ومع ذلك فإن ظاهرة انتشار هذه اللحوم مجففة ومتبلة ومصنّعة بشكل يمنحها قدرة على المقاومة لتظل قابلة للالتهام، تثير الكثير من الاندهاش، حتى أنها ـ لحوم الخنزير ـ تسللت إلى مجتمعات يقف فيها النص الديني ضدها وقوفاً حازماً، الدين الإسلامي بالذات، وهذه اللحوم لا تجد لها موقعاً في القرى والمناطق البدوية، بعض المدن تغض البصر عن ذلك دون حرج.

أما بيت لحم فهي بلدة فلسطينية يقال إنها مسقط رأس النبي عيسى بن مريم، ويطلق عليها أحياناً: بيت الخبز، أو بيت داود، ويعتمد سكانها على زائريها في موارد رزقهم، وقد استفاد يوسف إدريس من هذا الاسم ليطلقه على إحدى قصصه ـ ليعلو المجموعة القصصية ـ بيت من لحم، لكن الأمر لم يزد عن الاستفادة بالاسم دون أي إيحاء بمعنى آخر.

وأفضل اللحوم لذّة في التناول: الضأن، ثم صغار البقر والجاموس، ثم الماعز، ثم الديوك الرومية، ثم البط والأوز، ثم الإبل الصغيرة، ثم الدواجن، ثم اليمام، والحمام، وفي بعض الأقطار ـ مثل فرنسا ـ يميلون إلى لحوم الضفادع، دعك من ذلك الآن، ومن المؤسف أنني ـ وبناء على نصيحة أو أوامر الأطباء ـ يجب ألا أتناول اللحوم بالمرة، ولذا، فقد توقف التهامي لها عند حدود أقل من عشرة أنواع، دون مساس بحقي في نهش لحم الأعداء بين كل وجبة وأخرى.. حتى أصنع ملحمتي التي أشدو خلالها بوقائع تمزق العروق التي تحمل كل قصائد الملاحم.

كلمات لها معنى

- **كل هذه الأفلام والروايات والأغاني والأحاديث والحكايات والقصائد التي تتناول الحب، تؤكد أ ا تتعرض لموضوع نادر .**
- **سيدي رجاء الانتباه أن عروق الذهب لا يمكن إدراكها وفي ذهنك عروق الخشب أو عروق الدم، أو أي أمور عريقة أخرى .**
- **حطت يمامة على نافذتي وظلت تمعن في وجهي باستغراب واضح، مما أفسد على مخي التركيز في إلحاق الضرر بأحد الأصدقاء الخونة، أحسست برغبة عارمة في النوم .**
- **إياك أن تنهر كلباً لتوقفه عن النباح المزعج، دعه لشأنه وتحمل قليلاً، لن يستمر نابحاً إلا إذا رته .**

الحبل

الحبل أداة وصل، وجر وتثبيت، وعشق، وانتقام

عرفنا الحبل مبكرا، ربما كان أول (مصنوع) بعد تشذيب الحجر، وبالتأكيد كان مفتولا من ليف النخيل كما هي بعض أنواعه الآن، وقد تكون عملية فتل الليف هذه أسبق مباشرة من شغف الأصابع بالعزف الموسيقي، ويميل رسامو الكاريكاتير إلى تصوير الرجل البدائي وقد سحب أنثاه من شعر رأسها، وهم لا يستطيعون مغادرة هذا التصور، لماذا؟ لأن البديل لشعر رأس المرأة في حالة هذه الطريقة في الجر - أن يستعمل الحبل، واستعمال الحبل - حتى في الكاريكاتير- سيفتح الآفاق الواسعة لاستعمالاته المروعة للذكر والأنثى- وحتى الصبية والأطفال.

لقد كانت ألياف النباتات (وأقواها ليف النخيل) ثم الشعر الحيواني، عناصر موفقة لصنع أداة الربط هذه، وكانت أولى المهام التي استخدم الحبل فيها - غير سحب الأنثى- اصطياد الحيوانات، وتحديد مناطق النشاط الخاصة بمن امتلك حبلا، ثم كان الحبل إشارة لتحديد الوضع الاجتماعي، وأقصد بذلك أن زعيم القبيلة القديمة ربط الحبل بشكل أنيق حول أول سروال من أوراق التوت؟ وهو ما يفعله - بشكل أنيق أيضا - بعض الضباط الآن حينما ترى حبلا - بالتأكيد ليس من الليف - وقد التف مع نجوم الأكتاف أو حزام الوسط، وإذا كان كل أفراد القبيلة القديمة تسلحوا بأغصان الشجر الغليظة أو بالهراوات، فلا بد أن التعامل بالحبل كان يحتاج إلى دراية خاصة، أنظر للأمر في هدوء وأنت ترى القبيلة كلها وقد وقفت تنتحب إزاء مشهد لواحد منهم وقد التف الحبل حول رقبته تنفيذا لحكم يقضي بإنهاء حياته. على أن الحبل الذي بدأ أداة للجر، ووسيلة للتحكم أو القيادة، أو تنفيذ الأحكام، لم يلبث أن تطور به الأمر وأصبح حبائل، إنه الفخ التاريخي المصاحب لحركة الإنسان، سواء أكانت حبائله ناعمة دقيقة مثل ملمس الأنثى، أو كانت خشنة شرسة كملمس المعاهدات والاتفاقيات الناجمة عن حرب ضروس، التي يفرز القوي فيها الحابل من النابل، أي المكتنز حبلا وحملا من الضامر نبلا وخواء، حيث لم تستعص كثير من المواد على فتل الحبل، ليس من ليف النخل فقط، بل ومن شعيرات الكتان والقطن والحرير.

والمتلمس - بالنظر - الأصابع وهي تفتل الحبل، تتحرك وتتعانق وتنفرج وتتشبث، وتتلمس نسير النخل مع قليل من الماء ليشيع في المادة الرطوبة والليونة المطلوبتين، ثم تعود الأصابع فتنقبض وتجعل الأنسجة تلتف في دقة، الذي يرى هذا سوف يحس فورا بالشد والجذب والاختناق. إن ملايين الأميال تتحرك بين هذه الأصابع لتصبح قوى تدعيم المقاطف (المصنوعة أصلا عن خوص النخيل)، ولترتسم بين قرون البقر والجمال والجاموس، ولتشتد بين دعامتين في سيرك لتظهر مدى مرونة وسحر القافز بينهما، ولتنسج حولها مساحات من الحصير والكليم (نوع معروف من السجاد البلدي)، وليتم نشر الغسيل الزاهي على كيانها الممتد في الشرفات والسطوح، ولتتنسم الهواء في قلوع المراكب وتسهيل تحريكها، ولتمتد بالبيارق والأعلام في الساحات والميادين، ولتتألق بالشرر الكامن تزويدا للناقلات والقطارات بالكهرباء، أو تلتف عنيفة قاسية دموية حول رقاب الضحايا، حتى الولائد يخرجون من بطون أمهاتهم وقد جذب معهم هذا الحبل السري الذي- في حد ذاته - معجزة إلهية بكل المعايير.

أما حبل الحياة فهو شريان الوريد الخارج من القلب في العنق كي يصل إلى المخ، والذي يسري عليه التنزيل العزيز: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، أما العرب القدامى فيقولون: حبلت فلانة فلانا، ويعنون: أوقعته في شباك حبها وسحرته، أما إذا قلت حبلت فلانة فقط فالمعنى واضح ولا يحتاج إلى بطن منتفخ لتفسيره، وحبل العاتق: عصب بين العنق والمنكب (وهو الذي يتألم شديدا حين يصاب شريان القلب بالجلطة - الذبحة الصدرية)، وحبل الذراع: العرق الظاهر في بطن الذراع، ومنه جاء قولهم: هو على حبل ذراعك - أي أنه في دائرة تناولك وفي المستطاع، وحبل الفقار: شريان يمتد في الظهر من أوله لآخره.

والحبل - أخيرا - أداة وصل، وعشق، وانتقام، وتحريك، وتوليد، وسحل، وضبط، وربط، كما أنه أيضا يتدفق شعرا حينما تقول: حبل الوصال، وحبل الوداد، حتى لو كان من ليف النخل.

كلمات لها معنى

- **يمكننا تعويض البصر بالبصيرة، البصيرة لا تعويض لها .**
- **أكثر الأمور إثارة للسخرية الفادحة، هذا الصمت الذي يلجمنا حينما يتحرك أنجالنا - ذات ليلة - بعيدا عنا ليصبحوا أزواجا .**
- **العقم: مساحة متألقة من الرخام البارد .**
- **إجلس هادئا وتشبث ببندقية، صف لي عوامل الشر التي تجتاحك حينذاك .**
- **نزلت القبر مع جثمان صلاح عبدالصبور، فأصبح لشعره معنى غير كل المعاني التي يدركها الآخرون .**
- **الوجه المتألق بالبشر يصعب عليه أن يكون حيوانا .**
- **ودليلي على أن السماء تعشق الأدب، أ ا لاتزال تحتفظ بالقمر .**
- **هذه الدروس المستفادة في الجامعات من دراسة العلاقات العامة، تبيح للعالم أن ينفرد بعيدا لينشئ العلاقات الخاصة .**
- **الشرر المتطاير أصله شر كامن .**
- **بعض الحكام يستجلب الرمال قبل صيد النعام، حتى تستمتع بدفن رؤوسها فيه .**

العصا

تلك التي تتلاعب في أصابع التاريخ والسحرة والسلاطين والرعاة ..والعرسان ومآرب أخرى.

ظلت عصا (أبورجل مسلوخة) مهيمنة على عقلي منذ سنوات الطفولة والصبيانية (حتى الآن)، كان هذا الرجل طويل القامة ممزق الملابس معصوب العين، ساقه اليمنى- أو اليسرى- تفح بألم الأربطة البالية، يتوكأ على نوع من العصي غير المشذبة والتي يفوق طولها قامته، كان أبورجل مسلوخة يداهمني في الكوابيس الليلية متسللاً من حكايات أمي وجدتي (قبل أن يستولي التلفزيون على وظيفة الحكي المأثور بلا حنان أمي أو جدتي)، كما كانت عصاه قادرة على الانتشار السريع في الدروب والحقول، ومسارب الجبال، أي في أيدي المتسولين وأبطال حلقات التحطيب وكبار السن ورعاة الغنم والفتوات والمدرسين وشيوخ الكتاتيب، متعددة الأشكال - هذه العصى حسبما يكون لصاحبها من وجاهة أو وظيفة، تكون طويلة أنيقة ذات طرف مكسو بالجلد في حالات الوجاهة والأناقة، وتظل تقصر حتى تتخلص من أناقتها ونعومة ملمسها لكي تصلح أداة عقاب للحيوانات وصغار العمال والتلاميذ، قد تكون مصنوعة من الخشب، أو من سيقان أشجار الخيزران (الغاب الهندي) أو فروع أشجار السنط أو التوت أو الجميز، أما العصى التي تصنع من جريد النخيل فتقتصر على شئون الرعي دون الوجاهة.

وأخطر عصا تاريخية في القصص الديني - هي عصا النبي موسى عليه السلام، والتي حلت له - ولقومه - مشكلة العطش فقلنا أضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، قد علم كل أناس مشربهم (الآية 60 من سورة البقرة)، والثانية حينما هزم سحرة فرعون في مباراة إثبات الذات واستعراض القدرة، فقد ألقى السحرة بعصيهم لتصبح ثعابين تسحر عيون الناس وتسترهبهم، وحين ألقى موسى بعصاه تحولت إلى حية مروعة التهمت انجازات سحرة فرعون (وردت القصة مرات في القرآن الكريم - منها ما جاء في سورة الأعراف من الآية 105 إلى الآية 117)، ثم كانت هذه العصا هي التي استخدمها في ضرب البحر فينفلق ليتيح له ولقومه الهروب من فرعون الذي يداهمهم بجيوشه.. (وقد ورد ذلك أيضا في مواقع عديدة بالقرآن الكريم منها سورة الشعراء، الآية 63).

أما أكثر العصي شهرة في الأدب الشعبي فهي التي يمتلكها جحا، ويقوم بالتلاعب بها حين يداهمه أمر الحكمة الساخرة، مثلما ورد في حكايته مع ابنه حين سار خلفه وقد أركبه الحمار مما أثار تعليقات الناس، فقام جحا بامتطاء الحمار مع ابنه مما أثار- على الحمار شفقة الناس، حينذاك قام بالانفراد ركوبا للحمار تاركا ابنه يسير خلفه مما أثار انتقادات الناس، بعد ذلك أصبح مناسباً أن يعلق جسد الحمار في عصاه ويحمله مع ابنه لتصل الموعظة إلى منتهاها دون أن يريح الآخرين، وربما كانت هذه الحكايات هي بدايات فلسفة الوجودية التي وصلت إلى أوجها في العصر الحديث على يد الفرنسي جان بول سارتر، حينما جعل الآخرين طرفاً جديرا بالانتقاد (أو الإلغاء) إذا ما كنت تبحث عن تحقيق قيام الذات دون كدر.

وقد لوحظ أن كثيرا من علماء الدين لا يستغنون عن العصا دون أن يكونوا في حاجة كي يتوكأوا عليها، وربما كانت العصا ذات الرأس الملتوي-أي العكازة- أشهرها، هي عادة قديمة - أي موروثة - ربما ترجع إلى هدف الحماية عن عوائق حرية الحركة في الدروب والطرق أيام الخوف المبكر من الكلاب، هذا إذا لم يكن القصد الأصلي هو الاستعانة بها في السير بالنسبة لمن تكون ظروفهم الشخصية غير موائمة لحرية الحركة لخلل في الأقدام أو السيقان أو العيون، مع أن كثيرين من الوجهاء - في العالم كله - كانوا - ولا يزالون - يتمتعون بامتياز استخدام العصي الصغيرة - أو القصيرة :الباشوات والكونتات والدوقات، وهناك عصا المارشالية الشهيرة والتي كان الرئيس أنور السادات مغرما بها - مثل عظماء قادة الجيوش، ولها رأس من ذهب مزخرف يعطيها شكلاً فاخراً، وخاصاً كما أن جزءا أساسيا من الهيئة الملكية - وحتى الآن أيضاً - يعتمد في تشكيله الرائع على العصا الملكية، والتي تحمل رأسها - عادة - شعار الملكة، وأشهر عصا روائية كانت تلك التي يمتلكها شرلوك هولمز طوال فترة أدائه القصصي عند السير أرثر كونان دويل، كانت قصيرة وجميلة وبها زخارف جلدية أنيقة، يعبث بها حين يجلس في غرفته محاولاً فك طلاسم الاغتيالات المتوالية - مع أهمية تدخين سيجارة مصرية - وهذه ظاهرة ولا علاقة لها بكوني كاتباً مصريا - أما العصا الفرعونية - والتي نشاهد لها أشكالاً فائقة الزخرفة في الهياكل الفرعونية القديمة - ذات رءوس تحمل رموز أرباب الفراعنة - فقد ظلت مطمعا لأخطر تجار ومهربي الآثار، آخرها عصا توت عنخ آمون التي سرقت من فوق صدره المعروض بجناحه الخاص بالمتحف المصري.

لا أود أن استغرق في جذب عالم فن العصا المرتبط بألعاب التحطيب والفروسية، أو تلك العصا الرفيعة الخيزرانة، والتي كانت جزءا من تشكيل هيئة العريس القروي، حينما يخبط بها - مع التصفيق الضاج والصارخ - على الباب الذي تكون العروس خلفه مستعدة لاستقباله الاحتفالي - تمهيدا لأن تنتهي مهمة العصا الاحتفالية، لتبدأ وظيفة أخرى قد تتعلق بتربية العيال أو الذود عن الحقول والحيوانات والبهائم، أو في مجال تأديب الطرف المصون، والذي أثرنا موضوع الاحتفاء بالوصول إليه أو إليها من سطور قليلة.

كلمات لها معنى

- **إننا جميعا نتواطأ معا، أو كل بمفرده، كي نستمتع بقتل الوقت، وإلقاء جثته على قارعة الملل .**
- **وعندما رفعت كفها- في احتجاج غاضب - استطعت أن ألمح ظل عروقها المتألقة داخل لحم ذراعها الشفاف .**
- **همّت بالخروج وهي تشكرني في ابتسامة بالغة الرقة والامتنان والعذوبة لأني أنقذ ا منهم، فظل الباب مستعصيا على الفتح .**
- **كثيرون يتقافزون، دون أن يكون في مجال السير ما يدعو إلى القفز .**
- **ليس صحيحا ما يشاع من أن آسيا هي أوسع - أو أكبر - القارات، يسبقها في ذلك قلب أمك، ويسبق الاثنين: قلب أمي .**
- **عندما تتمرغ الرءوس في التراب، يفقد المخ قدرته على الإدراك .**
- **أجمل كلام تسمعه عن الشجاعة يأتي من الجبناء .**

الحاسوب... والمؤامرة

ما كان لي أن أقترب من هذه المنطقة المرعبة لولا بعض الوساوس التي انتابتني إزاء المؤامرة الكبرى التي ينسجها الأصدقاء ضدّي، بداية الأمر: أشار أحدهم أن أستعين بالكمبيوتر أو الحاسب الآلي أو الحاسوب للحصول على أي معلومات أحتاج إليها، وهي مسألة تضعني في موقع عصري يناسب تطلعاتي التي أخفي معظمها عن كل الأصدقاء، بعدها - ولأسباب لا أميل إلى الإفصاح عنها (تتعلق بقدراتي المادية أو اللغوية أو النفسية) - ابتسم أحدهم وهو يغمرني بمشاعره الفيّاضة ليفاجئني بأنه سوف يقدم لي جهاز كمبيوتر على أحدث طراز: هدية متواضعة تعبّر عمّا يكنّه لي من تلك المشاعر المُشار إليها، وخلال انغماسي في الإحساس الجارف بالامتنان، قادني إلى الركن الذي يقبع فيه هذا الكائن العصري الهادئ المستكين، وفور أن رفع عنه الغطاء، وسحب مقعده، وبدأت أصابعه تعابث أزرار قواعده، سألني مبتسماً: ماذا تريد؟ اضطربت قليلاً وحاولت تجميع أشلاء أيّ سؤال، كنت بالغ السعادة حينما نجحت في صياغة السؤال المأمول: ما أكبر عاصمة في العالم؟ فإذ بالحروف تتسابق إلى شاشة الجهاز يرافقها سهم صغير يتقافز بين تلال مربعات المعلومات: لندن ثم طوكيو، موسكو، فالقاهرة، أحسست بالفخر العارم حيث سبقت عاصمتي الغالية باريس وبكين وروما، وأين واشنطن عاصمة الامبراطورية الأمريكية المهيمنة على العالم المعاصر؟ إنها في ذيل القوائم، سألت صديقي وأستاذي: إذن لماذا يقولون إن نيويورك هي أكبر مدن العالم؟ ضحك ونظر في وجهي وقال: أنت سألت عن العواصم فقط، بدأت حينئذ أنتبه إلى اعتقاد راسخ في مخّي يجعل العواصم دائماً هي أكبر المدن، ونيويورك ليست عاصمة بالمفهوم الرسمي والإداري، فبدأت أجمع المتناثر من إدراكي وألوذ إلى ركن بعيد، كان صديقي وأستاذي أيضاً - لايزال يبتسم.

لكني - وكالعادة - استعدت لياقتي الذهنية بعد احتفالية نقل الحاسوب إلى بيتي، ما أريده من معلومات - مهما كانت - ينهمر على ساحة المخ، عناصر تكوين الكون وحركة الأفلاك وتواريخ ميلاد عظماء الموسيقى والرياضة والفلسفة والاكتشافات العلمية والكشوفات الأرضية (أقصد الجغرافية الفاتنة في وسط إفريقيا وجنوبها وقارات أستراليا والأمريكتين) وروّاد فنون المسرح والسينما واغتيالات الزعماء والانقلابات وأشهر حدائق الحيوان، وتكوينات المخ أو الحنجرة أو المعدة أو الأقدام أو العيون أو القلوب، وأخطر الجواسيس وأعظم نوادي القمار والمراهنات والوصول إلى المتعة القصوى، ظللت أفرش مساحة عقلي لاستقبال هذه المعلومات الهادرة لا أملك سوى الانبهار الصامت إزاءها.

بعدها بأيام - ولم يكن سهلاً أن أصحب صديقي الكمبيوتر معي - سافرت كي أشارك في مجاملة زواج الابن الثالث لأحد أقاربي، كنت من قبل أسرع إلى هذه المواقع خارج العاصمة الكبرى: القاهرة، فأقع بين أحضان الأفراح والأشواق واستعادة الذكريات مع أهمية الخراف المشوية ومداعبات الغوازي ورقصات التحطيب والانفعال الجارف بالأصوات ذات الشجن البرّي وهي تتسلل مع حسن العاشق كي يلتقي المعشوقة الفاتنة نعيمة، وتأتي دقات الطبول وقد حملت في إيقاعها فتنة أنغام الربابة كي نحتضن العريس ذا الكفوف المصبوغة بالحنّاء إشارة إلى عصر جديد - ومتألق، وكانت (النقطة) ذات الأوراق النقدية المرفوعة في الهواء تعلن القيمة الكبرى لصاحبها ذي الشأن الواضح، وبينما يداهمنا الانشراح خلال هذه المنافسات المثيرة للمشاركة: تنطلق العيارات النارية لتنهمر في شراراتها الزغاريد، فلا يلبث معظمنا - مهما حاولنا التظاهر بالرصانة والثبات - أن يخترق الجموع ليرقص بالعصا، وينقط بالنقود، ويرفع من صوت الحماس الفوّار داعياً للعروسين بأجمل وأسعد حياة.

لكني - هذه المرة - عانيت كثيراً، فقد ظلت أزرار الحاسوب تتلمّس أصابعي وتحول بينها وبين متعة التصفيق أو إعلان الإعجاب والمتعة، كما أن السهم الصغير الذي يتقافز بين المعلومات على الشاشة الصغيرة اخترق السماوات وكم إطلاق الرصاص، وخنق الزغاريد وأحال إغراءات بطون وعيون الراقصات إلى خربشة فوق حوائط الجمجمة، كان الفرح تعيساً والرحلة جافة، والإحساس بالقلق يغلق نوافذ سيارة العودة، فسقط حسن دون أن يصل إلى نعيمة، وظل أبوزيد الهلالي جالساً أمام التلفزيون رافضاً أن يكمل رحلته إلى دياب بن غانم، ثم لم يلبث بطلنا الهمام أن بدأ يشكو من آلام المفاصل، لقد توقف الهلالي عن السير والركوب.

وفور أن عدت إلى بيتي، فتح لي الحاسوب ذراعيه ليحتضنني، وجلست بجواره دون أن تمتد أصابعي لأزراره، أحسست برغبة حارقة أن أكتب عن الحنّاء، وكادت أصابعي تمتد إلى الكمبيوتر لكنها تجمّدت، وقفت إلى المكتبة، بدأت أصابع عقلي تتحرّك، يدي تمتد إلى الكتب، وعقلي يقلب في أركان عالمي الخاص الذي لا تحتويه الكتب: الحنّاء شجرة معمّرة متساقطة الأوراق.. كانت الحناء قد هربت من الاسم العلمي وتحوّلت إلى دقات طبول بين كفوف العرسان - الذكور والإناث، كما أن زوجة خالي ظلت شغوفة بتضميخ معصم يدها اليمنى وبطن كفّها اليسرى بالحناء - لماذا؟. لا أعرف، ولاتزال الحنّاء عنصراً أساسياً في تطهير أو تنظيف ثنايا أجساد الراحلين، وعندما تتراقص الأنثى - حافية - يظل الخلخال اللامع يشي بفتنتها الفائقة، كما أن تجّار الحنّاء - في الريف المصري - يظلون يتجوّلون أغراباً من الغجر بين البيوت ليقدّموا مع الحنّاء المشورة الواجبة في التزيين والتجميل والعلاج - والنصائح التي تثير الاستحياء والنظرات العاتبة.

بعدها أصبح مناسباً أن أسارع - شاكراً - بإعادة الحاسوب أو الكمبيوتر إلى صديقي وأستاذي، كي أستعيد نفسي متلمّساً المتعة في جولات بين الكتب وسنوات العمر وعبث الأمنيات وطقوس الأحباب، واتساع البراري وحركة المخ المتقافز بين عناصر الدنيا دون نظام معروف، لأكشف عن تلك المؤامرة التي دبّرها لي أصدقائي.

كلمات لها معنى

- **من باب التفاؤل سيظل صوت الحقيقة هو الأعلى، لكنه - مع الأسف - ليس الأجمل دائما .**
- **البيوت أسرار، جملة يعشق ترديدها الناس دون أن ينتبهوا للنظرة الساخرة التي يرمقهم القمر ا .**
- **لا أحد يمكنه التسلل إلى جحور الأفاعي سوى النمل .**
- **الصباح يزداد اء كلما ابتعدت عن الفراش .**
- **الحزن يصل إلى عمق معناه إذا ما كان في عيني أنثى .**
- **انتظر قليلاً.. فإن ما مضى ليس هو الموضوع الأخطر .**

مرة أخرى .. السوق

أنت السلعة مهما كنت وأينما كنت إلا في سوق حسن فتحي

وأنت قابع الآن مع التلفزيون أو زوجتك أو كتابك أو خيالاتك، أي: وأنت في أي مكان وفي ظل أية أفكار، إنما أنت في الموقع الذي أنتجته قوى السوق، العرض والطلب بالضبط، إنك سوف تزعم أنك اخترت وأن هذا الاختيار جاء موافقا لمؤهلاتك أو أهوائك، كل هذا صيغة تبدو مقنعة لحرية وهمية نحب أن نثرثر بها، حتى لو مزقت كل شروط التعاقد واكتفيت بملبس بسيط وتوجهت حافيا بالشص أو السنارة إلى شط النهر مكتفيا بسمكة صغيرة واحدة - فأنت لم تخرج عن دائرة إرادة الحاجة والمحتاج التي ترتكز عليها عناصر السوق، وستظل طرفا في مجال قوى واضحة أو غامضة بقدراتك ومشاعرك وإبداعاتك ورغائبك وأحلامك وإحباطاتك أيضا. والقاعدة: أن كل ما تود اقتناءه، أو استعماله، إنما هو ملك لطرف بعيد يرقب حركتك ويسحب في هدوء سنارته لتخرج - أنت إليه - بصفتك سمكته الأثيرة، ليلبي رغبتك مقابل أن تدفع له شيئا: من الجهد أو المال أو المرح أو الثناء أو التوسل أو الدعاء بطول العمر، لا شيء يتم مجانا. والسوق الكبرى تعم الكون، وتتكون من أسواق أصغر وسويقات أدنى، وعلى أرصفتها الممتدة تجد كل ما يخطر على بالك: القنابل الذرية والصواريخ والأبقار والجنس والمدافع والمقالات والأخشاب والغزلان والكلاب والقصائد والذئاب والأناشيد والمدارس والقوافل والأصوات الجميلة والحبوب والجواري والأسهم والجياد والمجلات الملونة والسندات ودور السينما والماعز والقطط والاستوديوهات وماء النهر والبترول والبغال والعبيد ونقل الدم والغلمان وتغيير الأعضاء والسكر والرقص والبرلمانات والكحول وأدوات التجميل وموادها والورق والبنوك وموجات الإرسال والنكت والأهازيج والملابس والأقلام والأدوية واللحوم والفراش الوثير والمبيدات واللوحات وكتابة التاريخ وخفة الدم والمعادن وتسريب الأسرار والزهور والمخدرات وتزوير الوثائق والحشرات والمخطوطات والحوائط والكواكب والآثار والمتعة والمصحات والجنود (والجيوش أيضا) والزعماء والآلات ووسائل الإخصاب والأراضي والحراس وأدوات المائدة والسباع والمناظر المبهجة والوزارات والأشعة والخطب اجتماعية أو دينية أو سياسية والإنسان هو مركز السوق، حتى لو كان الأمر لا يعدو تحريك سلعة هي قطعة عظم يلهو بها كلب ، فسوف تجد صاحب الكلب ينتظر هذه اللحظة ليسعد، وليبدو رءوما بالحيوان، لأن الإنسان هو الأب الحقيقي للسوق، منذ تدحرج في العصور الغابرة وبيده ثمرة طماطم يود أن يقايض إنسانا آخر بثمرة جوافة، ومنذ ذهب إلى بائع العظام العريضة ليشتري عظمة فخذ فيل كي ينتقم بها من أصهاره الذين اعتدوا عليه بعظمة فخذ أسد، ومنذ وقف على رأس بئر مسلحا بالقوس والسهام يحول بينها وبين ذوي المطمع فيها، ومنذ ظهور إشارات النار بينه وبين عملائه كي يمهدوا له سبيل الاستيلاء على شجرة برتقال في الغابة الأخرى، وهي كلها أنشطة لها أسواقها المعاصرة وبورصاتها الحديثة في بكين وباريس ولندن ونيويورك - وما يتفرع منها من مواقع البيع والشراء والتجريب والمساومة والإقناع والاقتناع في بلدان أخرى، وكلها العقد العصبية التي تتجمع فيها خطوط أعصاب العالم دقيقها وغليظها، وفي ثنايا حركتها تتركز كل شعيرات أنشطة العالم، وصراعاته الظاهرة والباطنة. وأشهر الأسواق عند العرب تاريخيا - كما هو معروف - سوق عكاظ قديما، ثم سوقا بغداد ودمشق بعد انتشار الإسلام، ثم السوق السوداء التي تعني التعامل غير القانوني في مواد قانونية، ولا سيما تلك المواد التي تعنى بتسويقها الحكومات. وأطرف الأسواق: سوق حسن فتحي، وهو المهندس المصري الشهير الذي اهتم بعمارة تقوم على خامات البيئة، وقد أقام سوقا واسعة على أطراف واحة باريس في منطقة الوادي الجديد، ليتبادل فيها أهل واحات مصر في الصحراء الغربية عمليات البيع والشراء، مبنى واسع ضخم له مجموعة من القباء التي تحمي رواد السوق وحيواناتهم من الحرارة الشديدة، ومنذ إنشاء السوق - في الستينيات- حتى الآن لم يستعمله أحد، حيث لم تكن ثمة دراسة جدوى جادة تفسر لنا الدافع لتاجر يمتطي ظهر جمل، ويسعى مئات الكيلومترات ليبيع أو يشتري جملا، وفي مقدوره أن يبيعه على أطراف بلدته بسهولة، ولا يزال هذا السوق قائما يعج بالثعابين والحشرات، ويمر عليه السائحون والمتطفلون مشدوهين، ويتيح لكل وزير ثقافة يأتي أن يزور هذا السوق ويفكر في تحويله إلى مدينة إبداع للمثقفين، حيث تنعقد اللجان وتعلن التصريحات، ثم يظل السوق قائما كعلامة تعجب ضخمة ترقد في واحات مصر.

كلمات لها معنى

- **في سرية تامة وفي هدوء مرعب: انتقل الوجه الطيب لأمي واحتل الوجه الجميل لزوجتي .**
- **من باب التخفيف: يوم الامتحان يكرم المرء، ثم تأجيل باقي الحكمة ليوم ظهور النتيجة .**
- **شباب القلب: تعبير مهذب يخفي في طياته أكثر الحقائق سخرية .**
- **الجائع لا يجيد التذوق .**
- **فلذة الكبد، قرة العين، مهجة القلب: ألا توجد أعضاء أخرى في حاجة إلى التعضيد والمساندة؟**
- **حتى بين الملوك: سوف نكتشف صعلوكًا .**
- **في الشعر يجوز لك صرف الممنوع من الصرف، وفي الحب أيضا لآخر مقعد في البيت .**
- **يطلقون على الدنيا: المعمورة، ثم يواصلون تخريبها .**
- **الإحساس بالجماهير لا يحتاج إلى مخالطة جموع الناس، أنثى جيدة تكفي .**

العُشّ والعشّة

العُشّ والعشّة

المأوى الجميل للعقارب والعصافير واللصوص

العش: وكر الطيور والعناكب، فإذا أصابته تاء التأنيث ليكون (عشّة (أصبح وكراً لنا نحن البشر، وهي التكوينات المبكّرة للمرحلة التي تطوّرت إلى الكوخ ثم البيت الذي لم يلبث أن أصبح قصراً فخيماً أو شقة في عمارة، وبينما كنّا نكافح نحن أبناء العشش أو الديار البدائية الأولى لنصل إلى عنان القصور أو الشقق: فوجئنا بأصحاب تلك المساكن الفاخرة يعيدون ترتيبات حياتهم كي يعودوا إلى هذه العشّة البسيطة الخالية من كل التعقيدات الحديثة، وتكون العشّة أكثر تحقيقاً للعيش المأمول لو كانت تطل على تلك الآفاق الممتدة رقيقة بالغة الرومانسية استقبالاً للشروق المبكّر للشمس، ووداعاً لآخر أضواء نهار تغرب هزيلة مطمئنة لبواكير غسق الليل، ويكون المشهد بالغ الجمال إذا ما كان لموسيقى مسطّحات المياه الموغلة في الأفق دورها الممتع، ودون أن تعشش في مخك - يا صديقي - تلك المسائل التي أفسدت المدن.

وتكاد العشّة ترتبط بالريف والوديان والسهول مقابل الخيمة في الصحارى والجبال، لكن المنتجعات الحديثة قامت بتطويع العشش - دون الخيام - في هذه الأماكن الصحراوية والجبلية، وأشهرها منتجعات ومصحات أوربا في جبال الألب، البريطانية والسويسرية، وفي جبال البرانس بين إسبانيا وفرنسا، حيث استفادت تشكيلات العشش من تجارب الأوربيين بالتفاعل مع الأكواخ القبلية في إفريقيا الوسطى - حول منابع أنهار النيل والنيجر وزامبيزي، وفي أمريكا الوسطى والجنوبية إزاء مساكن أهل البلاد الأصليين، ولاسيما حول نهر الأمازون، إنها ذكرى الاستعمار المبكّر تبسيطاً للحياة الأوربية المعقدة، دون الإخلال بحق الأكواخ الصينية والهندية في التأثير.

وأخطر ما في العشّة قدرتها الفائقة على إذكاء الإحساس الإنساني بالحياة والتواصل والهدوء والإرتباط بالوجود، ربما تكون الغرف المتداخلة والحجرات متعددة الأبواب، وضغوط السقوف، وعدم الخلاص من وقع خطوات الآخرين - مهما كان الآخرون أهلاً وأحباباً - في الطوابق العليا، وراء الرجوع إلى عالم العشش التي لا تصنع الحصار الذي يقذف بالروح إلى نوع من التوتر، وهو ما جعل المدن - كل المدن - غولاً حضارياً شرساً لا يمكن الانصياع لقوانينه وتكويناته دائماً، إن لجوء الباحثين عن الصفاء الروحي من كُهّان مختلف الأديان إلى الصحراوات أو قمم الجبال، لم يكن سببه - دائماً - الهرب من الاضطهاد أو الاختفاء بعيداً عن عيون المتربّصين، حتى لو كانت المصحّات ومستشفيات البراري قد استفادت من أسباب انقطاع الأديرة والمعابد هناك في عشش متناثرة في الهواء الطلق مع تغيير لفظ العشش إلى شاليهات.

ولأسباب تتعلق بثقافتي القروية المبكّرة: ظلت العشة مكمن الإيحاءات الفقيرة العاجزة عن امتلاك مسكن، يحتلها أصحاب الأنشطة الذين نترقّع أن يكونوا من أهلنا: باعة السمك المملح من السردين الصغير - أو الذين يجهّزون الشاي والجوزة لعمال المواسم الزراعية، تلك العشش التي يمكن الجلاء عنها من موقع لآخر تحت تأثير انتقال مواقع النشاط ذاته أو خضوعاً لحركة مياه فيضان النهر وجداوله، ثم لم ألبث أن اندهشت لورود لفظ (العشّة) في كتابات الصحفي الشهير محمد التابعي، ثم عرفت أن أم كلثوم - ذات السطوة المتألقة على الوجدان - تلوذ بالعشة الصيفية في رأس البر على ساحل البحر - هناك في الشمال الذي يعبق بالنسيم، وتوالى أصحاب العشش ليعبثوا في مفهومي الراسخ عن هذا المأوى الفقير: أبناء أمين: علي ومصطفى وفارس الصحراء والقصور أحمد باشا حسنين المشرف على تربية الملك فاروق الأول - ملك مصر والسودان، وعليك أن تفتح باب الجمجمة الريفية لترى مدى ما حاق بنا حينما اتضح أن عدداً آخر من نجوم المسرح والسينما وأصحاب العزّ والجاه والشهرة والسطوة على أغلفة المجلات الملوّنة يقيمون في تلك العشش البسيطة: أبسط بمراحل من كوخنا الريفي في براري قريتنا: أحمد سالم وعزيزة أمير وسراج منير ومحمد كريم وبابا شارو وعثمان محرم وأحمد رامي وكاميليا وحسن الإمام ومحمد حسن الشجاعي، وسوف أشير - من باب التعريف السريع إلى أن عثمان محرم كان وزيراً لامعاً للأشغال في عصور ما قبل ثورة عبدالناصر، أي أنه كان المسئول عن مشروعات الري والصرف والقناطر والمدن، أما باقي أصحاب العشش فسوف تقوم ذاكرتك بإفراز المادة القديمة من بين خلايا أعشاشها لتثير رائحة التعريف بهم.

أما مذكّر العشّة الإنسانية فهي: العُشّ، وأقوى الأعشاش ما كان للطيور الجارحة من نسور وصقور وبوم وغربان وعسكر ومتمرّدين وقطّاع طرق ونحل وزنابير وعقارب وخلايا شيوعية أو تجسس أو أمراض سرطانية، ولا تلبث الرومانسية أن تتضوع في رقة حول أعشاش العصافير والفراشات والوجدان والقصائد وانفعالات الألوان لتصنع الحلم واللوحات وأنغام موسيقى الوجود، لتنبسط الحياة كلها في شفتي الطفولة الساعية نحو ثدي الأم تلتمس دفء الإشباع العظيم، ثم لا يلبث أن يتبدد هذا الدفء خلال الحركة الدائبة سعياً للخروج من العش لتصل إلى كل تعقيدات سعادة جهنم العصر الحديث. لا تحزن - يا صديقي - فسوف تعود إلى الوكر النهائي الصامت الذي لا نحب أن نصفه بالعش، مع قراءة الفاتحة توسّلا للرحمة من الله الرحيم.

كلمات لها معنى

- **ليس كل ما يعرف يقال، بل هناك ما يجب ألا يعرف أصلاً .**
- **لا أعرف لماذا يظل الحزن: مذكّرا، فإذا تم تأنيثه أصبح حسرة .**
- **أول مظاهر التعقيدات ذات الكرمشة المتغضنة تظهر على الجبين، وخلفه مباشرة يكمن المخ .**
- **الاستيقاظ المـ ـ ـبكر نعـ ـ ـ ـمة كبرى، دعـ ـ ـك من جـ ـ ـحيم الـ ـ ـنوم المبكـ ـر يا صديقي .**
- **يتمتع الإنسان بالحواس الخمس، الخطر أن تداهمك حاسة سادسة .**
- **إذالمست أصابعك أوراقًا نقدية، فنادرا ما تجد السرعة المناسبة للإمساك بالقلم أو العزف على الأوتار .**

الحمام

الحمام ذو الرقبة الموسيقية

والهديل والطاقة والألفة والهيام

لو كانت أمنا حواء امتلكت زوجين من الحمام، زغللت بهما أحاسيس ابنها قابيل، لفكر كثيرًا قبل أن يودي بحياة أخيه هابيل، فمنذ هذه الأحقاب وأمهاتنا تغذين رغبات طفولتنا بزوجين من الحمام - حتى ننام، ولا تتحقق هذه الأغنية الليلية، في حدود مضمونها الأخاذ الذي لا ندركه جيدًا في أيامنا المبكرة إلا ليلة الهنا، حيث تتألق المسافة بين العريس والعروس بزوجين من زغاليل الحمام، فالحمام البيتي لا يؤكل أبدًا، بل تؤكل أفراخه عند استشرافها الطيران، فإذا ما طارت تليف لحمها وضمر وفقد لذته، ويقال إنه يفسد الأمعاء أيضًا، ولا يوجد في كتب علوم الحيوان والطير والبيطرة شيء ذو بال عما نكنه نحن للحمام من حب مقترن بالطاقة والسخونة، مع أنه انتشر في الأعوام الأخيرة وقد طار وديعًا حاملا غصن الزيتون رمزا للسلام، أو تخفيا تحت أجنحته اللطيفة لإلحاق أكبر كمين للسلام، والذي يطلع على كتاب ابن حزم الأندلسي) طوق الحمامة) سوف يكتسب خبرات هائلة في عموم أنواع تجارب الغرام التي تختصر لك المسافة المرهقة للوصول إلى فشل مشرف، وهذا التنوع في كتاب ابن حزم هو الذي جعل من طوق الحمامة اسماً على كل أنواع الألوان الدقيقة المتداخلة في الملابس والنباتات وكلمات السياسيين، والمتناغمة في قوس قزح وقصائد الشعر الجيد، وانعكاسات وانكسارات الضوء في البللورات وكلمات المدح وعيون العشاق وطبق الحساء الفاخر بعيدًا عن البيت، ولعل أكبر خدمة تاريخية نحفظها للحمام قيامه ببناء عش على فوهة الكهف لتكمل مع نسيج العنكبوت تأمينًا كاملاً لهجرة رسول الله النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وصديقه أبي بكر قطعًا لطريق كفار مكة وتضليلاً لهم ليعودوا أدراجهم.

أما الحمام البري - أي الذي يعيش في الحقول والصحراوات، وهو في الغالب الذي يستأنس في الأبراج دون البيوت - فهو يؤكل كله، صغر أو كبر، وهو غير اليمام - أكبر قليلاً ومتعدد الألوان - الذي يظل لونه على درجات البني فقط - ويؤكل كله أيضا، غير أن الكتب تهتم بالحمام الزاجل وقدرته الفائقة - والمعجزة أيضًا - في الطيران لمسافات طويلة مع الاهتداء إلى مكان معيشته، وقد استغلت الجيوش وجماعات العشاق والجواسيس والبصاصون هذه الميزة في كل اتصالاتها، حتى بعد سيادة المنجزات العلمية المرعبة، لكن الإنسان لم يقف طويلا أمام هديل الحمام، هذا الانسياب الصوتي الخفيض المفعم بالشجن، هل لأن ذكر الحمام وفيّ لحمامته؟ أو لأن أنثاه لافت بغيره - كما هو وارد في مواويل الغرام والخيانة والهيام؟ والاستماع العميق لهديل الحمام - وهو مختلف في الدرجة والنوع عن هديل اليمام أو الحمام البري - يملأ الجوانح بالحزن الطروب الأليف الغامض، إن الموسيقى اللونية في رقبة الحمامة والصوتية في هديلها تحاصر الوجدان وتدفعه إلى الإحساس الدافق بالحياة، ولذا فإن الدول رسمت على راياتها وأعلامها صقوراً وسباعًا وسيوفًا ونسوراً، وأهلة (جمع هلال) ومربعات ومثلثات مقلوبة وأشجارًا ومطارق ومناجل، دون أن يحتل الحمام علمًا دوليًا واحدًا، ربما لأن هذه الدول في مرحلة الخشونة الفظة السابقة على فهم جاد لمعنى رمز الحمام، مع أن الشعراء - والعرب بالذات - ناحوا وصدحوا وهاموا كثيرا مع الورقاء - في الفصحى - والقمري - في العامية - وسجلوا بكاءهم في كثير من القصائد التي جرت على حناجر أشهر المغنين، كما يجري الزغلول من بين يدي أنثى وهي تهم بالتشبث به تمهيدًا لنحره بأصابعها المضمخة بحناء الفرح المقبل.

كلمات لها معنى

- **حتى النحافة الشديدة يمكن أن نصبح شيئًا رائعا، انظر لراقصات الباليه .**
- **عليك أن تختصر هذا الوقت المرهق الذي تتظاهر فيه باللذة، وأنت تشم الفطر الذي نما فوق خبز العلاقات القديمة .**
- **لحظة ساحرة مليئة بالشجن والقلق والعذوبة، حينما تفتح بابك وأنت متأكد أن الطارق هو محبوبك المنتظر - وغير المتوقع - من سنوات طويلة، لفطة عبقرية عند الزميل تولستوي في (الزواج الأبدي .(**
- **إنه يتعامل مع أخلاقه الفاضلة كاللوحات الثمينة، لا يجوز أن يضعها على الأرض ولو لمسحها من الغبار، دون أن يدري أن بيته يخلو من أي لوحات .**
- **الذي يفشل في تفصيص كوز الذرة، صغيرا، لن يدهشنا فشله في التعرف على كونشرتو الفيولينا 61 لبيتهوفن كبيرا، مع أنه كان مجيدا في حل واجباته المدرسية .**

طريق البجع

من السماء إلى بحيرات الموسيقى

ظللت الدهور الأولى من عمري - التي تتجاوز عشر سنوات - أتقافز بين الحقول (المروج أفضل) كي أرى سبعاً أو فيلاً أو غزالاً أو بجعة، كانت كتب المدارس الأولية - آنذاك - ترسمها في أشكال جميلة تحت أول حرف فيها، وقد أدى ذلك أن داهمني - تحت فراش الشتاء القارس أسد مروع ألقى بي مرتاعاً في اليقظة، وكادت خيالاتي تتجمد خشية الوقوع بين براثن مالا أستطيع دفعه، لكن البجع احتل موقعاً متميزاً في خيالي حينما اتضح لي أن ثمة درباً يخترق غابات النخيل والحقول يبدأ بعد بيتنا - المنفي بعيداً عن القرية - ويتجه إلى الجنوب حيث المدينة المضاءة بأنوار الكهرباء، ويطلقون عليه طريق البجع، لابد أن البجع عاش في منطقتنا، وبدأت الاستفسارات البدائية- أو الصبيانية - تخرج من خيالي سعياً وراء البجع الخاص بنا، والمنطقة مليئة بأنواع من طيور الحدأة والغراب والهدهد والبومة وأبي فصادة والصقر والعصفور وأبي قردان دون أن يكون لها طريق باسمها، وأبي - الفلاح - الذي كان يحفظ حكايات أو مغامرات (أبوزيد الهلالي سلامة وذياب بن غانم وعنتر بن شداد) ضللني بإجابات تبدو مقنعة (وليست مشبعة) بأن البجع هو الذي كان في الأصل صديقاً للفلاح، ثم لم يلبث أن هجر المكان تاركاً جماعات أبي قردان بصفتها أبناء البجع وورثته، لكن الأمر بدأ يزداد وضوحاً غامضاً حينما عرفت أن البجع ظل يعيش في منطقتنا أبيض ذا كبرياء وأناقة، ثم اختلط بالغربان لتظهر بجعات ذات بقع سوداء تشير إلى السلوك الدنس الذي لا يصح أن يشوب حقولنا الطاهرة - دعك مما عرفته بعد ذلك عن طهارة هذه الحقول الرائعة، فلم تلبث الرياح العاصفة أن داهمت النخيل والنجيل وأسراب البجع لتضع النهاية المأمولة لهذه المأساة.

غير أني لاحظت عدم غياب البجعة عن استعمالاتنا الكلامية، فالذي يرتدي جلباباً جديداً، ويسير متهادياً ضخم المنقار - مع أهمية انضغاط دماغه إلى الخلف :يوصف بالبجعة، والذي يقف طويلاً - وفي سكون - وهو يرمق الذين حوله دون تحريك رأسه أو عيونه، ثم يندفع فجأة لينادي بصوت مقلق، فإنما هو بجعة. وثمة تجربة كانت ابنتي صغيرة لا يتجاوز عمرها ثماني سنوات، إذ إنها كانت تتفرج على البجعة الساكنة الصامتة من أسلاك موقعها في حديقة الحيوانات بالجيزة، وظل كلاهما - ابنتي والبجعة - يمعنان كل في الآخر، وفجأة اندفع المنقار الضخم للبجعة - صاروخاً لينقر عين ابنتي، الحمد لله أن الطبيب الذي لجأنا إليه في تلك الظهيرة الدموية المرعبة، اكتشف أن سن منقار هذه البجعة هتك أسفل رمش العين بمسافة قصيرة، عرفنا - بعد ذلك - أن البجعة تظل ترقب ما يكون دقيق الحركة ثم لا تلبث أن تهاجمه. نني عين ابنتي (أي مركز نظرها) كان الهدف الأصلي.

وفي بلادنا - مصر - بدأت أنواع البجع تندثر، صيداً أو هلاكاً بالمبيدات الحشرية المتسربة من استعمالات لا علاقة لها بمحاربة البجع، وفي منطقة الفيوم، رأيت بجعات معدودات تقف قريباً من مستنقع ماء واسع في هذا المكان البري الرائع: وادي الريان، ولعلها المرة الوحيدة التي رأيت فيها البجع بعيداً عن حديقة الحيوانات، ولعل المحميات الطبيعية التي انتشرت في بقاع كثيرة تحقق الأمل كي تعود البجعة طائراً شعبياً، والتي لها حضور واضح في أذهان أهلنا، ولاسيما أن هذا النوع من الطيور يعيش في جماعات كبيرة قد تتجاوز الأسراب العادية، إنه عائلي اجتماعي تجذبه المناطق الدافئة، مع أن الذي خلده كان الموسيقار الكبير تشيكوفسكي، الروسي - أي من المناطق الشمالية الباردة، في عمله الشهير (بحيرة البجع)، ويعد أكثر الأعمال شعبية سواء في إعداده (باليه) له رونقه على خشبة كل مسارح العالم، أو فيما توالد منه أعمالاً في رسوم (الكارتون)، أعظمها ما قامت به مؤسسة والت ديزني، الموسيقى ذاتها - دون رسوم أو تشكيل راقص - من أرقى أنواع الفنون في العالم، متعة فائقة للذهن الذي يود أن يتابع كل هذا النغم الجميل. ويعتبر علماء الطيور أن البجع قريب لغراب البحر والأطليش، لا تقف كثيراً أمام هذه الجملة التي قد تجبرك على الخروج على ما يرد من تعريف علمي، يكفي أن نعرف أن البجع كبير الجرم، ضخم المنقار و(معقوف في نصفه العلوي) وللسفلي كيس يختزن فيه الأسماك، وفي بلادنا ثلاثة أنواع: الأبيض، والرمادي، والبلقاني، وطول جناحه يصل إلى ثلاثة أرباع المتر، وبأمريكا أنواع عدة :الأبيض الكبير، والبني الشرقي، وبجع كاليفورنيا الذي يطلقون عليه جمل الماء، هذا بالنص ما جاء في موسوعتنا العربية مع أني بحثت عن البجع في حياة أهلنا الأقدمين، فما عثرت عليه، ربما يكون قد اختفى داخل اسم آخر حالت قدراتنا - المحدودة - على الوصول إليه، ومع أن المصريين القدماء - كمثال - رسموا أنفسهم على جدران المقابر والهياكل مع عدد وافر من البط والأوز والجديان (ذكور الماعز) والثيران والقطط والصقور والغربان، إلا أن البجع لم يظهر فيما رأيت، وفيما بحثت، مع أننا - في طفولتنا وصبانا - رأينا البجع مرسوماً - حتى - على أغطية زجاجات الحبر ومحفوراً على أبدان الأقلام: هل تذكر (البليكان)؟ دعك من اكتشافي - بعد ذلك - أن كل ذلك وارد من أوربا - خارج المناطق الدافئة، لكن الأمر ظل سادراً حين تدلل أمي أختي الصغرى التي تحبو فتقول: إن كنت فاكرة نفسك بطة: تاكلك قطة (أي سوف تأكلك القطة)، إن كنت شايفة نفسك بجعة: القطي ودعة، أي التقطي واحدة من الودع المنتظر على الشواطئ والذي يتفاءل به القرويون (ومنه جاء ضرب الودع)، حيث تصبح أمي خير من أشار إلى البجع، دون أن تعرف ما قام به تشيكوفسكي، أو أي منافس آخر.

كلمات لها معنى

- جمود أو تعصب: لا السماء زرقاء، ولا البحار أيضا.. أخشى أن يمتد ذلك الوهم إلى خضرة الحقول وهمسات المخلصين، أقصد صفرة الرمال .
- كل الطرق تؤدي إلى روما - بإذن من واشنطن .
- أجمل ما في هذا العالم تلك المنطقة التي لم يتطرق إليها أحد، ولا أحد منا يعرفها .
- لا تنظر إلى تشكيل وجه الثعلب - بحثًا عن المكر، انظر إلى سلاسة ذيله .
- كل الشواطئ تعاني من المخلوفات البرية .
- الذاكرة تعمل لحساب صاحبها، عدا ذاكرة المؤرخ الحقيقي .
- حتى زر الجرس الموضوع على جانب الباب الخارجي، لم يستطع أن يلغي من أصابع الأنثى هذا السحر الرفيق الذي يصاحب تلمسها الإذن بالدخول: كانت أكثر سحرا في عصور الخبط الأنيق على الباب ذاته .
- تتكون ساعة الحزن من خمسين عاما على أدق الفروض .

التجريد والجراد وهلم جرا

ما كدت أجرّد نفسي من أهوائها كي أطير في عالم الجراد، حتى فوجئت بأن الجو يستلزم الانتباه للجرائد أيضاً، فإذا أردت أن أستريح، فسوف يكون مناسباً الاسترخاء على جريدة نخيل تمهيداً لجولة طيران جديدة، لكن الفخ الأخطر هو أن أقع في مأزق التجريد الذي يسلب العمل الفني - والأدبي أيضاً - حواسّه وقدراته الوجدانية كي يدرك معناه بالذهن فقط، وهو ما يؤدي إلى محاولة إدراك - أو فهم - معنى التجريدية بصفتها مذهباً لايزال سائداً في أنواع الإبداع، إنه الاتجاه الحديث الذي يقوم على تصوير فكرة الفنان - أو شعوره - تصويراً لا يعتمد على المحاكاة لموضوع معين مع استخدام الألوان أو الأشكال الهندسية أو الأنغام الموسيقية، لاحظ أن ذلك التعريف يضع في الاعتبار اللوحة التشكيلية، مع أن التجريد استشرى في القصيدة والقصة بشكل طافح يحتاج إلى أن نتوقف هنا بحثاً عن الجراد أو الجرادتان (رجاء عدم التصحيح(، وهما - الجرادتان - جاريتان كانتا تتغنيان في الجاهلية - قبل عصر الإسلام - في قصر عبدالله بن جدعان، وذات ليلة متأججة مجردة من الانتباه العقلي: قام الشاعر الشهير أمية بن أبي الصلت الثقفي بإلقاء قصيدة امتدح فيها ابن جدعان الذي رآه ينظر إلى الجاريتين في نهم يكاد يصل إلى حد الافتراس، مما أدى بسيدهما - ابن جدعان - بإهداء) الجرادتان) الجميلتين إليه، أود أن أشير أنني ظللت شديد الحرص كي لا أخضع)الجرادتان) للإعراب، إنه نوع من التجريد أيضاً.

وأزعم أن الأجيال الجديدة من أهلنا لم يروا الجراد إلا مرسوماً في كتب الحشرات أو أسيراً - في حالة تحنيط - على لوحات المتاحف، أو في مشهد تصويري خلال جحافله التي تغزو كثيراً من المناطق في هجمة مفاجئة - أثناء النهار المضيء ليتحوّل المشهد إلى ظلام، شاهدت ذلك وأنا صبيّ سائم في حقول وبراري قريتي ديروط الشريف وسط صعيد مصر، وفي لحظات يداهم الجوّ نوع من الالتياع أو الحزن الصارخ على دقات الصفائح، العيال والرجال يتصارخون على الإيقاعات المقلقة مطاردين لأسراب الجراد الكثيفة التي - وقبل أن تنتهي من قراءة هذا المقطع - تكون قد جرّدت كل مزروعات الأرض من خضرتها، لتصبح المساحات المترامية بلقعاً أو يباباً قاحلاً، الإحساس نفسه الذي يداهمني خلال إمعاني في لوحات أو قصائد عدة من الفن الحديث، لكنني لا أعلن ذلك كي أظل متّقفاً عصرياً.. وذكياً أيضاً.

غير أن الأثر الذي تتركه جحافل الجراد في الجو والأرض والنفس يتساوى في كثير من المعاني بعد كل تجريدة يقوم بها رجال الشرطة - سراً أو علناً - على ديارنا أو تجمعاتنا بحثاً عن أعداء لهم لا يعلن عنهم عادة، وربما تكون من باب النشاط الوظيفي إثباتاً لقدرتهم الفائقة على السهر حماية لشئوننا، دون الاهتمام بالمعنى اللغوي الخالص للتجريد، يقولون - في اللغة - جرّده من ثوبه: أي عرّاه - ويعني تركه عارياً، وجرّد الجلد: نزع عنه الشعر، وجرّد السيف من غمده - أو المسدس أيضاً - استله، ثم هناك بعض التخفيف في المعنى حينما يرتبط التجريد بالقطن ليصبح محلوجاً، وهناك استخدام للتجريد - لم يعد يستعمل الآن: جرّد القوم: سأل القوم فرفضوا منحه أو أعطوه كارهين، لقد حلّ (الابتزاز) مكان هذا النوع من التجريد، والذي عاد ليصبح (جرداً) أي إحصاء ما في المخزن أو المتجر أو الحانوت أو المزرعة من أدوات وآلات وبضائع، موظفو الحكومة وشركات التجارة والمصانع والورش يعرفون ذلك آخر كل سنة مالية.

أما المجرود فهو الذي اشتكى بطنه من أكل الجراد، أو انتفخ من قراءة الجرائد، فإذا جاءت كلمة المجرود صفة للنص أو الكتاب فالمقصود: عرّاه من الضبط، أما إذا انجردت السنبلة: خرجت من لفائف قمحها (والمعنى: - بالنسبة لي غير واضح)، فإذا انجرد شعر الفرس: أصبح قصيراً، أما إن كان هذا (الانجراد) خاصاً بالسير يكون المقصود أن الفرس جدّ في سيره وامتد وطال أو تقدم الحلبة مصمماً أن يخرج منها، وهو ما جعل للفرس الأجرد أو الجرداء قدرة على الفوز في السباق أو أي أنواع من الصراع - سلماً أو حرباً، واللبن الأجرد: لا رغوة فيه، وربما يقصدون به اللبن الخالي من الدسم، أما القلب الأجرد فهو - مثل قلبي وربما مثل قلبك أحياناً - ليس فيه غش أو غلّ أو حقد، مع أن ورود هذا النوع من الجرد بصياغة الجارود يؤدي إلى معنى المشئوم، والعام الجارود فهو المُقحط شديد اليباب والقفر، رجاء عدم التوسع في هذه المسألة حتى لا نجد أنفسنا - تحت وقع ما يجري - مطالبين بالمعنى الواضح لجارودي، الفيلسوف الفرنسي المعاصر والمناضل الذي أوقف فكره للدفاع عن الإسلام وحضارته، ويحول بيننا وبين المساس به ارتباط اسمه باللغة الفرنسية التي تجرّدنا من إدراك معناها لجهلنا المطبق بها (أتكلم عن نفسي)، مع أنك لا تعرف - من ناحية أخرى - أن الجارودية فرقة زيدية تنسب إلى أبي الجارود زياد بن المنذر.

ومن باب الهروب - إزاء كل ما ورد - فإن التجريد يفضي بنا إلى الجريدة :إنها غصن النخيل المعروف، والذي تصنع منه الأقفاص والمقاعد (الخاصة بالشرفات والمنتديات والشواطئ) والأسرّة - جمع سرير - الفقيرة، وكانت الجريدة تعنى - ذات عصر - دفتر أرزاق الجيش في الديوان (أي كشوف الشاملة لبيانات استحقاقات الجنود)، وهو ما أدى بالجريدة أن تهبط من فوق النخيل لتعيش فترة في أرزاق الجنود لتصبح - بعد ذلك - الصحيفة اليومية التي تنشر الأخبار والمقالات والفضائح والتعبير عن العدل والدفاع عن الفقراء، دعك من الابتزاز الآن حتى لا أكشف لك أن تجمّعاً أدبياً ظهر من فترة قريبة أصدر مطبوعة هزيلة بعنوان (الجرادة)، وعليك أن تقرأ الموضوع من الأول مع تجريد نفسك من أهوائها: أو بعض أهوائها.

كلمات لها معنى

- **إ ا الجبال الرواسي، فماذا عن السفن؟**
- **كل حواس السمع والتذوق والنظر والشم تتراجع مرتجفة إزاء ما ينتج عن حاسة اللمس .**
- **بعد أن اطمأن أصحاب تأكيد قانون (الخلع) تحقيقًا لأمنيات الزوجة البائسة ضد زوجها، لم ينتبهوا حتى الآن أن (الخُلع) يعني المكيدة أيضا، في اللهجة المصرية .**
- **المساواة الحقيقية التي تجمع بيننا، أن كلينا يزعم للآخر أنه يفهمه جيدا...فقط .**
- **حتى السحب تمعن من عليائها إلى الأرض باحثة عن المعادن النفيسة .**
- **الفرق بيننا وبين قبائل الإسكيمو في المنطقة المتجمدة الشمالية، أن بيو م تخلو من الثلاجات، ومع ذلك فهم قادرون على الحياة الطيبة الهادئة بطريقة مذهلة .**
- **تم المدارس بتنمية العقول، ولم تنتبه إلى مطالب القلوب .**

الغراب

الغراب

رمز الحذر والتوجس والتشاؤم والليل الحالك

أول ما عرفناه فور هبوطنا إلى الأرض بعد تجربتنا المؤلمة مع إبليس والثعبان والتفاحة في الجنة، ولا يزال الدرس الذي ألقاه على قابيل (كي يحفر حفرة يدفن فيها أخاه القتيل) ماثلا شاخصا في الأهرام والقبور والشواهد والأقبية والسراديب والنواح على رأس الراحل. له ذكاء سمسار (وسيط) وحذر جاسوس ومسوح (ملابس (فيلسوف وإشارات قائد أوركسترا، وهو أول طائر يتدثر بدرجات اللونين الأسود والرمادي كأنه منتزع من لوحات الفنان المصري حسن سليمان، ويضفي عليه العرج القديم سيماء تيمورلنك أو إيهاب بطل موبي ديك (للروائي الأمريكي هرمان ميلفيل) أو إبراهيم عبد القادر المازني، يحب النخيل والشجر ويكره الصحاري والصمت ونباح الكلاب، ويتقد بالحماس والمرح إذا ما أمن إلى جماعة أو وكر أو عش مهجور، وحين يحوم في الجو تتلبسه حالة ناقد معاصر لمح كتاكتيت النصوص الأدبية، ينقض عليها، ويقتنص أضعفها، وتظل قأقأته تملأ الجو نحيبا وانتحابا ونصراً، والعرب القدامى يزعمون أن اسم (الغراب (يرتبط ارتباطا مباشراً - ومأساويا - بالغربة والاغتراب، ثم بالشؤم والتشاؤم والتوجس من المجهول، وفي كثير من قصائد الهجر يقف على ناصيتها بصفته غراب البين، وتراهم لا يثقون به ولا يرتاحون لمشيته العرجاء، (ومن يكن الغراب له دليلاً، يمر به على جيف الكلاب) ويضربون به المثل في المستحيل أو التحدي حينما يقولون : لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب. وتتجمع الغربان حول معامل الكتاكيت ومطابخ المعسكرات وتجمعات الأحزاب ومرابط البقر وسرادقات التأبيد وفي دار الأدباء ونادي القصة بوسط القاهرة، وكان الروائي الشاعر الأمريكي إدجار آلان بو مغرما به، وبمشيته العرجاء وبألوانه الحالكة وبالرموز التي يوحي بها، ويقال إنه أول طائر لمح اليابسة من فوق صاري سفينة سيدنا نوح عند بداية انخفاض منسوب الطوفان، وكانت قأقأته أول بشير عندما حط على أول أرض، ومع ذلك لم تحتسب له هذه البشارة، وظل بصوته الخشن ونظرته الحذرة يثير في النفوس القلق وعدم الاطمئنان، ربما لهذا السبب نجد ولعا لدى الجماعات البدائية بالتهام صغاره، وكباره في بعض الأحيان، وقد أطلق الناس عليه صفة الأعور مع أنه صافي العين حاد البصر، ويرجع الجاحظ هذه التسمية (الأعور) تأكيداً لتشاؤمهم وتطيرهم منه، ويروون أن إصابته بالعرج جاءت نتيجة لتقليده مشية القطاة، وضربوا به المثل في من يقلد غيره دون ضابط أو إدراك، وربما يرجع كل الذي شاب علاقة الغراب بالناس إلى موقف الفراعنة المصريين منه، فليس هناك أثر لرسم له فوق حوائط المعابد والقبور رغم كثرة ما رسموا عليها من طيور، ابتداء من أبي قردان والنسور والصقور حتى البط والإوز وصغار الدواجن.

كلمات لها معنى

- كنت أفهم لماذا يزرع الناس نبات الصبار بجوار قبورهم، وأصبحت أكثر فهما حينما بدأوا يزرعونه في مساكنهم .
- لو كانت دور السينما والمسرح ظهرت أيام جميل بثينة وقيس ليلى، لتغيرت أمور كثيرة في نصوص الأدب .
- من باب التعصب لصنف الرجال، فإن أذهاننا تتجه لناحية الطبيخ فقط حينما يقولون إ م يحبون الطبخ .
- حتى الأرض تطرب من وقع خطوات عاشق جديد .
- سعادتي لا توصف، فقد قضيت يوما كاملاً في الم ل دون أن تكلمني زوجتي في الفلوس والعيال، ستعود غدا من بيت أمها .
- طلبت من بائع القماش أن يقيسه بالشبر دون المتر، حماية لي من انتقادات والدتي .

الدودة

هذه الحركة اللولبية التي تتألق في الحرير، والأشواك، والكبد، والخوف، والأدب

انشغلت فترة بالتمهيد للكتابة عن الشرنقة، كنت شديد الانجذاب إليها بصفتها طوراً من أطوار الحشرة التي كثيرا ما كان للدود موقعه في تطورها، إلا أن الدود حاصرني ودمر شرنقتي من جميع الجهات، أحسست بأنني وقعت في مأزق (المش) العتيق الذي عانينا المرار في طفولتنا كي نأكله دون اهتمام بحركة الدود اللولبية الذي تنعكس على جلده أضواء المصباح الكليل القديم، وأصبح كل شيء حولي يماثل أم أربعة وأربعين: هذه الدودة الشرسة التي تخترق التربة في المزروعات الجميلة وقد رفعت قرنيها علامة للشر، حيث يقال إن لدغتها تؤدي مباشرة إلى القبر، وكانت حركتها الدودية فوق سيقانها الأربعة والأربعين وراء إدراكي لشراسة الدبابات العسكرية ذات الجنازير والعجلات المتعددة، وعندما وصفني- بعد ذلك بأحقاب- واحد من كبار المثقفين بأنني دودة كتب، ثرت عليه بحدة لأفصح له عن جهلي المطبق، فلم أكن أعرف أن الثقافة الأوربية تطلق على الذي ينكب على القراءة متوحداً مع الكتب بأنه دودة كتب وهذا ما جعل للمكتبات- العامة والخاصة- اهتماماً عند المختصين كي ينظفوها بوسائل وطرائق أخرى غير تلك التي نستخدمها نحن في مكتباتنا عادة، إنهم يحاربون الدودة الرفيعة التي تخترم أوراق الأسفار والمجلدات.

وتكاد الدودة تهيمن على الاهتمام أكثر من الأطوار الأخرى للحشرات من بيضة إلى يرقة (التي هي بداية الدودة) ثم العذراء في الشرنقة أو من دونها لتبدأ الفراشة، ذلك أن الدودة في حالتها العامة- أي عدا حالات استثنائية- تمثل الشر المتعدد والمتنوع، وعندما كان هذا الشر يتحرك في فصل الربيع بين أوراق شجيرات القطن الغضة، كانت قريتنا- ديروط الشريف - تصوغ حياتها لحساب مكافحتها، العيال- ذكورا وأناثا- يوقظهم الخولي (ريس الأنفار) مبكرا، ربما قبل الفجر كي يتجمعوا متوجهين إلى حقول القطن وكانوا يزعمون أن الوقت المبكر مناسب لجمع يرقات دود القطن والأوراق المصابة به، وأن الضوء الواهن للشمس يدفع الدود كي يعتلي الأوراق فيصبح من السهل رؤيته، كما أن دق الطبول لإحداث ضجيج مفزع لأنواع من الدود في الأرض المحروثة يثير في النفس العودة إلى العالم الفطري الذي استخدم الطبول فيما لا نستخدمه الآن.

وعندما نذكر الديدان نتوقف عند دودة القطن شراً، وخيراً دودة القز - الحرير، والتي تتغذى على أوراق التوت، وكانت أنشطتنا المدرسية في ذاك الوقت تتضمن شيئاً من الاهتمام بها مع الانتباه للنشاط الياباني والصيني في هذا المضمار الذي أنتج قماشاً كان شهيراً باسم (السكروته) مع أن كل أنحاء حياتنا يغزوها الدود، الحياة في أخطر عناصرها: التربة والخضرة والإنسان، دودة الاسكارس، والاكسيورس، والانكلستوما، والبلهارسيا في الجسد الإنساني (على قدر معلوماتي)، ثم ديدان خاصة بالبطاطا، والبلح، والعنب، والذرة، والتفاح، وديدان أخرى للبرقوق والخوخ والمشمش واللوز، غير أن أخطر دودة سببت لي رعباً- وأنا صغير- ولا تزال تداهمني في نومي، وظهرت ذات مرة في قصصي، هي دودة السنط، أو كلب السنط كما نصطلح على اسمها القروي، كانت - في موسم البرد والجوع - تداهم أوراق شجرة السنط (وهي شجرة شريرة أيضاً ذات أشواك مرعبة وظلال قليلة، وتنمو بكثرة في بلادنا دون اهتمام بمحاولاتنا الدائبة لاقتلاعها) وشكل الدودة ذات القرنين أثناء سعيها الدءوب بين إفرازات الصمغ اللزج على البشرة المتغضنة: يثير في النفس إحساساً شائكاً بمعنى الشر، أراه - حاليا - في حركة نوع من الموظفين يسعون للوقعية في مكاتب الرؤساء، وفي هذا التسلل المقيت لنوع من الكتاب يرتزق على حساب جراح الوطن وفي ذلك الشر الكامن في جوف زميل يأتي من أقاصي الأرض كي يطمئن عليك في ظروف اعتلال فلا ينطق إلا ما يزيد الاعتلال فيصبح ابتلاء،غير أن الأمر في الدود قد يصل إلى الكبد والبنكرياس- ربنا يحفظنا، في حين أن الشر الإنساني يداهم الفؤاد مباشرة، أترك المخ جانبا الآن فقد تركنا اختراقه وإفساده للدودة السياسية المنتشرة في أنحاء العالم، والعربي بالذات.

وحركة الدودة اللولبية يمكن أن تفيد في الإبداع الأدبي- وليس السلوك، فهناك هذه الحركة الناعمة في فن الرواية التي تستدرجك في نعومة كي تجد نفسك - آخر الأمر - ملدوغاً بمفاهيم تخترم ما ظل سادراً في تكوينك العقلي، وهو ما يمكن أن تراه في كتاب (الكلمات) لجان بول سارتر، وقصص تشاينبك، كما أن (الغريب) لألبير كامي تستدرجك لتسري في سراديب مفاهيمك كلها، ولا أعرف إن كان فن الباليه الموسيقي قد استفاد من حركة الدودة، بعد أن استفاد من البط، والديوك، والثعالب، والضفادع، وهو ما يجعلنا نعيد النظر في الديدان كي نكتشف أن المرعب منها يخضع لقوانين الشر التي اكتشفناها نحن، دون أن يدرك الدود ذلك بالمرة.

كلمات لها معنى

- **لماذا لا نتوقف عن البكاء على اللبن المسكوب مادام يصلنا مسحوقًا قابلاً للجمع من فوق الأرض؟**
- **من باب القسوة على الصداقة أن ننظر إليها بصفتها قمرا مضيئًا يطلع علينا في إشراق، ولا نمنحها حق الغروب - آخر الأمر - أو آخر الليل .**
- **الذكريات مثل الكتاكيت، تصوصو بصوت عال حينما تجد القوت، أو يداهمها الخوف .**
- **كثير من الصحف لا تملك عيونا ترى ا، بل أصابع تتسلل إلى الجيوب .**
- **هذه الصخور التي تبرز في قمم الجبال، لا يفوقها روعة إلا الصخور التي تبدو ساكنة تحت اهتزاز تيار الماء الصافي .**
- **يجذبنا اللون الأخضر دون اهتمام بأن أخطر العقارب ما يتصف ذا اللون بالذات .**

الضفدع

الضفدع

قائد الأوركسترا ذو الفأل الحسن وصاحب النق الأدبي

دفعني خيالي الريفي أن أتصور أن وجود الضفدع مرتبط بالريف، وبالجداول، وبالماء العذب، وبالمستنقعات، واعتقدت فترة أن نفيق الضفادع جزء من الجو الريفي، غير أن الأمور تسير في غير ما تخيلت وما اعتقدت. لا يوجد موقع يخلو من ضفدع، يطل عليك من المربع التليفزيوني الملون يقرأ نشرة الأخبار، وأحيانا تكون ضفدعة ذات دفقات صوتية معهودة توضح الطريقة التي يمكن بها تنظيم المطبخ الحديث، ولا تستبعد أن تكون للضفادع خبرة في الاهتمام بالنقد الأدبي. إن نقاد الأدب يمارسون (النق) جنبا إلى ممارسة الضفادع للنقيق، فالنق ثلثا النقد، ونعجز كثيرا عن الفصل بينهما، والعلاقة المعاصرة بين النق والنقد عضوية جدا، فالضفدع ما يكاد يخرج من طور أبي ذنيبة، ويتلاشى ذيله - أو ذنبه، وتتسع حنجرته، حتى يمتلك لحنا صوتيا محددا، قد يكون مغايرا لغيره من النقاد، لكنه لا يغير ولا يعدل في لحنه أبدا، لا يبدله ولا يطوره، قد يتوسع فيه إذا ما اتسعت المستنقعات والندوات والمؤتمرات، وقد يضيف امتدادا أو يبتر جزءا، لكنه يظل محافظا على اتساعه وعمقه ومجموع ذبذباته، ولو في الحالات التي يتراجع فيها النقد أمام لحن الرغبة في التكاثر.

أجمل ما في الضفادع قدرتها على إحداث الهارموني في النقيق الجماعي المتعدد الدرجات الصوتية، وهو ما يذكرك فورا بالفيلم الشهير الذي صاغه والت ديزني :هذا الذي يقود فيه ضفدع رصين أوركسترا عازفي الضفادع الموزعة على آكام وجزيرات مستنقع أخضر ظليل، مع المشاركة الصوتية من جمع حيوانات وطيور الموقع: غربان وحدآت وقطط ودواجن وسناجيب (جمع سنجاب)، ومشهد الضفدع القائد الممسك بعصا القيادة- مع ارتفاع وانخفاض صدره تبعا لتطور اللحن - الذي تتحرك أو تنفجر الأصوات تحت إشاراته، يشابه فان كرايان أشهر قادة الأوركسترا، الذي رحل عن عالمنا منذ شهور.

وأخطر أعداء الضفادع: الثعابين ثم الكلاب، وفي أقطار أوربا تقوم جمعيات حماية الحيوان والمحافظة على البيئة برعاية الضفادع من كوارث ردم المستنقعات وإنشاء الطرق وإقامة المباني في الخلاء، حتى أنها ترتب للضفادع من يحميها حتى أثناء هجرتها المنظمة وعبورها الطرق وهذه الحماية تشمل جميع أنواع الضفادع، المعهود منها والغريب، كضفدع الشجر، والضفدع الثور، والعلجوم- الذي هو نوع من الضفادع ذات الجلد الجاف- مع أن اسمه الأصلي ضفدع الطين. وللضفادع مزارع في أوربا وفي بعض المناطق الأمريكية والإفريقية، لها اتصالات بالمطاعم الشهيرة حيث يستحب لحمها، غير أننا في البلاد العربية لا نستسيغ ذلك- على الأقل حتى الآن - مع أن بعض مزارع الضفادع أنشئت في مصر في الحقب الأخيرة لمن يرى استثمارها في التصدير، وفي تدبير احتياجات معامل المدارس والمعاهد والكليات والمؤسسات العلمية، لا سيما أنه كائن يمكن الاحتفاظ به دون وجل.

والضفدع حيوان برمائي مسالم- وإن كان بعضه ساما- يوجد بالمياه العذبة والأحراش والأحراج، أملس الجلد أخضر اللون- في الغالب- أو بني، وهناك الضفدع، الأبقع ذو الإفرازات المهيجة أو السامة، ولا يعيش عندنا، وينبت معظم أنواعه من البيض المهجور في الطين، وتضع الأنثى البيض في باكورة الربيع- وقت أوج النشاط الصوتي للضفدع الذكر أيضا، وتعيش الضفادع على الحشرات والديدان عن طريق لسانها اللزج الطويل المشقوق (القناص.(

والضفادع تفرح بالمطر، تنصت أولا إلى بداية سقوطه، وحين تطمئن إلى أن المطر ليس حيوانا مداهما، يبدأ واحد من أكبر الذكور في إطلاق (الميلودي) الخاص به، وفي العادة يكون أجش منخفض النبرات، ويتجاوب معه ضفدع آخر، وعادة ما يكون من مكان بعيد، أو في أقصى أبعاد البركة أو المستنقع، ثم تبدأ الأصوات الأخرى في العزف قوية متداخلة، أكاد أزعم أن بعضها ينتظر فرجة اللحن كي يبدع فيه، وبعد أقل من دقيقتين :تكون الأوركسترا قد استكملت النوتة - والهارموني أيضا.

وللضفدع تراث (إنساني) قديم، دمه يستخدم في قاع كوب الحجامة كي يختلط بدم رأس المحجوم ويسهل إسالته وسحبه تحت الضغط القوي الذي يحدثه الكوب الفارغ من الهواء، كما أن الضفادع المذبوحة حين يكون القمر بدراً تفيد المرأة العقيم، لو خطت عليها عددا لا أعرفه من الخطوات، وكتابة العمل وربطه في صدر ضفدع نشط يقلب حظ الشخص المقصود وقد يودي به، والضفدع الأنثى لو أتيحت لها فرصة التسلل إلى بيت الحبيبة فسوف تعمل على تطمئن عطفها على المحبوب، والبعض يزعم أن ذبح ضفدعة أو ضفدع تحت حنجرة متلعثم أو ذي تهتهة فإن لسانه المربوط أو المضطرب ينفك، أما أخطر ما يمكن للضفدعة أن تفعله، فإنها إن قفزت من مستقرها المائي قفزات أوصلتها إلي بيت ما - فاعلم بأن الخير سوف يملأ هذا البيت، فإذا ما قطع طريقها قبل أن تصل إلى عتبة البيت، فسوف يتعرض أهله إلى مالا نستطيع تصوره من أخطار الحريق أو الريح أو سقوط الحوائط أو الولادة المبكرة أو خسران القضايا، ويحكى أن ضفدعة سمينة تخطت طريقا واسعاً ووصلت إلى عتبة بيت، وما كادت تقفز لتدخل حتى فوجئت بهدهد يدخل قبلها، وكلاهما رمز للفأل الحسن، فقيل إن صاحبة البيت لم تتحمل المشهد العظيم فوقعت من طولها. وهي رواية مقصود بها السخرية بأفكار العامة لأن الهدهد ليس في سذاجة الضفدعة، ولا يمكن أبداً أن يدخل بيتا تقف فيه امرأة، وهو أمر يصعب تجريبه الآن بعد أن تكعبت المساكن وأصبحت شققا، ليصبح الفأل الحسن - في الضفادع - مستحيلاً.

كلمات لها معنى

- **هذه السحب: ترهق نفسها كي تتكون وتتلون وتخنق الشمس وتناور الريح، ثم تتبخر دون أن تمطر قطرة واحدة .**
- **فعلا: دون تحليلات أو فلسفات أو لف ودوران: خلقت الأنثى للحب .**
- **ماذا عن هذا الذي قالها ومضى: السكوت علامة الرضا؟**
- **أنظمة وأنواع الحكم المختلفة يهمها أن تسعد مواطنا - كان سعيدا بالفعل .**
- **لاتغلقوها، هذه الثقوب التي تمزق الأثواب، إ ا تريح كثيرا من الأجساد المخنوقة .**

السلحفاة

السلحفاة

الهادئة الرصينة ذات البلادة وطول البال

والغائصة في حلم الكسالى واللامنجبين

السلحفاة حيوان زاحف، بطيء، منه البري ومنه البحري، مدرعة بصفائح عظمية قرنية عظيمة وغليظة تختصر العالم البيروقراطي كله فتكاد تصبح موظفا يبحث في الرمل عن يوم ميلادك، ويقول الدميري - عالم الحيوان العربي القديم - إنها تتغذى على الحيات والثعابين، وبذلك يكون أول من اكتشف قانون البلادة البطيئة الغليظة حينما تلتهم السرعة والمرونة والانسياب والذكاء، ولذا فنادرا ما ترى أثر السلحفاة في آثار السابقين: من جزيرة الرخ الخاصة بالسندباد شرقا، حتى الجزيرة الغامضة الخاصة بروبنسون كروزو غربا، ربما هي محققة - تمجيدا للمثابرة وللتأني والبطء والإمعان وتسفيها للحمق والرعونة وعدم الإدراك - في قصة الأرنب السريع المهمل والذي خسر السباق مع السلحفاة البطيئة الرابحة، ومع ذلك يظل للسلحفاة وقعها في النفوس بصفتها ذات تشكيل خاص يعطيك إحساسا غامرا وقويا بمغالبة الزمن، وهو ما أدى بالراغبين في تجاوز الحلقات المعروفة من العمر، أن يتغذوا بلحمها، وبالباحثين عن وسائل الخصوبة الدائمة: أن يمتصوا دمها، وبالحالمين بمواجهة الأهوال، أن يحملوا أسلحة ذات مقابض من صدفتها العظمية، وقد توقف هذا عند حدود السكاكين والمدى وبعض غدارات القراصنة حيث لا تحتاج المدافع والصواريخ والقنابل إلى مقابض. وفي الخرافة نجد أن أثمن التمائم والرقى والأحجبة وأكثرها تأثيرا ما كتب بدم الترسة - وهو الاسم الشائع للنوع البحري من السلاحف. ويرى العلماء المحدثون أن السلحفاة قادرة على تحمل الغبار الذري واحتوائه في جسدها مدة أطول من أي كائن آخر، ولعل تكويناتها الغامضة وراء عمرها المديد الذي يفوق عمر الأحياء المعروفة وهناك سلحفاة في حديقة الحيوان بالجيزة في مصر منذ افتتاح الخديو إسماعيل لها وتحيا حياة هانئة حتى الآن حيث تجاوز عمرها المائة والعشرين عاما.

ومع أن أهل السواحل لا ينزعجون منها، بل وكثير منهم يقتنونها في بيوتهم - وبالذات الصغير منها - إلا أن أهل القرى والوديان يرتاعون لمشهدها لندرة مشاهدتهم لها، وتداهمهم في الحلم فيتشاءمون ويخشون موت الذرية - كتفسير معكوس لما بين الحلم والواقع (كتفسيرهم لرؤية الميت بإشارة لطول عمر الحالم)، أو يرون فيها مكائد الأعداء، ونسيج المؤامرة والخيانة الزوجية، وكل هذا راجع للموروث المعروف من انقلاب السلحفاة على صدفتها - أو درقتها - وتعرضها - حينئذ - للموت المؤكد، ولذا فإن داود الأنطاكي يصفها علاجا لمن وقع في كارثة الشك، أو (الأمور الضائقات.(!!..

والسلاحف في طريقها للانقراض لكثرة الصيد وعمران السواحل، ومع ذلك - حفاظا على مآثرها وصفاتها دون جسدها - تراها وقد تفشت وانتشرت في ملامح المحبطين الفاشلين من الضباط، والمعزولين من السياسيين، والمنتظرين طويلا رحيل المناوئين والأعداء، والمحبوسين وراء الوظائف الكتابية في أرشيف المصالح الحكومية والمصابين بالجذام قبل أن تتساقط أعضاؤهم، والمسرفين في استخدام أدوية الكورتيزون، كما أن غباء السلحفاة وكسلها العقلي يتسلل في كتابات ذوي المناصب الثقافية والصحفية غير الموهوبين، وفي حاملي علوم التراث دون تطويع أو تشذيب أو صياغة تساير روح العصر، وفي الذين ينعمون بخيرات زوجاتهم دون عمل، وتجار مستحضرات البدانة، والمستسلمين يأسا، والخانعين ذلا، والمنتفخين غرورا - وغباء واللائذين لصدفة المنافقين ودرقة المنتفعين.

كلمات لها معنى

- **الفريك لا يحب الشريك، ومع ذلك ينام الفريك حشوا داخل الحمام، حيث لا يقبل أحد أن يتناوله بمفرده كالأرز مثلا .**
- **الأصدقاء نوع من المخلوقات ينام مبكرا وقبل أن نحتاج إليهم بنصف ساعة في أغلب الأحوال .**
- **سيظل للحمام ودورة المياه شأن عظيم في حياة المشهورين، بصفتهما الملجأ الدائم لهم هروبا من المعجبين، ومع ذلك لم تجد أثرا لهما في مذكرا م .**
- **لن يصلح الفاكس العصري الذي نجح في نقل الرسائل حتى أوامر الصرف في نقل الرسائل الغرامية، سيفقدها أجمل وأروع ما فيها: الحياء والسرية .**
- **فكرة عبقرية أن تفشل في الاقتران بمن أحببت، إذ كيف تتاح لك فرصة الإغراق في الذكريات المنتشية وسط ضجيج أنجالك من امرأة أخرى؟**
- **الأدباء الذين اقترنوا بزوجات صغيرات جديدات وهم في الحلقة السادسة من العمر، جديرون بالاحتفاء والتمجيد دون الغمز واللـ ـمز، فعـ ـ ـلوا الـ ـذي لا يزال أملاً غامضاً ومستحيلاً داخل نفوسنا .**
- **الذين يصنعون الخيوط والحبال كثيرا ما يتعثرون فيها .**
- **الصداقة كالفاكهة.. النضج يؤدي ا للفساد أو الالتهام .**

الثعبان

الثعبان اللاذع .. الناهش .. الناشر..

المنساب بين التاريخ والأسطورة والجغرافيا

كنت قد خصصت هذا الجزء للكتابة عن الأصدقاء، لكني وجدت نفسي مندفعاً إلى الثعابين، تلك التي لم تفارق ذاكرتي منذ أن كنت كيانا صغيراً يتلوى على الأرض، ولعل الثعبان - في أقصى علاقته بي - هو الكامن وراء فرع شجرة وأنا على الفرع الآخر أقاوم الريح، ولا ينقذني منه سوى الاستيقاظ من النوم فزعًا والاستيعاذ بالله، وهو منتشر في جميع أنحاء العالم قديمه وحديثه، حتى 10 داوننج ستريت - مقر الوزارة البريطانية - في لندن لم ينج من ثعبان جاءت أخباره في الصحف من أعوام، والحية ذات الأجراس لها وضع في القصص والبراري الأمريكية، كما يقوم الثعبان بدوره المؤثر في الأديان والأساطير والخرافات وقصص ألف ليلة وليلة والحكايات الآسيوية، وأستطيع مطمئنا أن أختصر الحياة المبكرة للإنسان في النار والماء والثعبان، ولا تزال هذه القدرة الخارقة لدى الحواة للسيطرة على الثعابين غامضة، قد يفسرها البعض بالتحايل أو خفة اليد أو استثارة الوهم عند العامة، لكن ما لمسناه جميعًا - ولا سيما أبناء القرى والبراري والصحراوات - يظل قائما ضد هذا التفسير الهروبي المعتل، ولذا فقد ظل الثعبان حالة تتلوى في الجغرافيا والتاريخ، وأكثرها رونقًا هذه النهاية الموفقة والدامية للملكة كليوباترا، وهو ذو الرأس المشرئب بعيونه الفيروزية التي تتألق شراسة في مداخل كنوز قدماء المصريين، وفوق هامات كثير من تماثيلهم، وفي أقوال القدماء، والحلي اللولبية في معاصم النساء، وفي الطريقة التي تتلوى بها أفكار التنظيمات السرية، وأماكن توالد الجرذان، وقريبا من الطبيخ البايت وأعشاش الحمام، وبين يدى النبي موسى ملتهما ثعابين حواة الفرعون، وشرائح البطيخ الناضج، ومواقع القنص والصيد وفي المخازن والشون (جمع شونة) ومؤسسات جمع وتوظيف الأموال، وفي دورات المياه الآسنة - بالذات في القرى والمناطق القديمة- وتحت أجنحة الترع وشواطئ البرك والجماجم المتحجرة، ومؤسسات النشر (ولا سيما النوع الثعباني المسمّى بالناشر)، وتحت أزيار الماء في الأيام الحارة، وبين شدقي الخباصين والنمامين ومبدعي الشكاوى الكيدية، وبين طيات رءوس نقاد الأدب- حتى الموهوبين- وفي مساطيح البلح (أي مسطحات البلح)، وهو إشارة للصيدليات - على أن يكون ملتفًا حول كأس، وفي عوالم التلفزيون الحيوانية، وفي مخيلة القواد الحمقى الفاشلين، عسكريين أو مدنيين، إذ إن الكثيرين منهم يعشقون اللبن والطبيخ والجرذان المشوية، وثمة نوع من الثعابين يدعى الطريشة - أي الطرشاء الصماء التي لا تسمع - قصير له جسد معقوف، يندفع مقذوفا فى وجه المخلوق - إنسانا أو حيوانا - فيودي به، وجنود حرس الحدود الذين يستخدمون الجمال يتحاشون المناطق التي قد يكون فيها، ولا علاج للدغته، وجماعات البشاريين في جنوب صحراوات مصر يلجأون- في هذه الحالة - لبتر العضو الملدوغ، ويشير الجاحظ وكذلك الدميري - إلى أن قوة الثعبان الهصور العاصر لا مثيل لها، وفي سياق مبالغاتهما الخرافية حكيا عن نوع يمكنه تكتيف بقرة وطرحها أرضا ثم السعي إلى ضرعها، لكني رأيت تصويراً سينمائيًا لثعبان ضخم ابتلع حملا، وربما يكون الثعبان الواقعي وراء كائن التنين المذهل الذي فتح نارًا في الأساطير ولا سيما الشرق آسيوية قديما، وتراه على واجهة بعض معابد فئاتهم، غير أن المدينة الحديثة أطاحت بكل الأساطير وأحالت الثعبان إلى كيان يتلوى في حدائق الحيوانات، وفي أحذية وحقائب النساء، وحتى قلبه - الذي كان يتغذى به الأبطال ليكتسبوا الجسارة المناسبة - ضاع وانقرض مع انقراض الأبطال ذوي الجسارة والأصدقاء الأوفياء.

كلمات لها معنى

- **أخيرا هجرت زوجتي تخريط الملوخية وتقشير الثوم والكلام عن نفاد النقود، كانت آية في الحسن وهي تتكلم عن الزلزال .**
- **هذا الوقت المتوتر الذي تقضيه في شهادة مزورة أمام القاضي أو عند إبداء رأي لصاحب قصة هابطة .**
- **لاحظ مثلي أن لافتات الشعارات لا ظل لها .**
- **أخطر ما قام به التلفزيون أنه أقفل باب الحكاية الجميلة عند جداتنا .**
- **كلاهما مدمر: التوجس الشديد، والغفلة .**
- **ألعن من تصفية الحسابات، أعداء لا حساب لهم .**

الفأر

الفأر من الجحر إلى المسك إلى الكارتون

يختزن العقل الشعبي للفأر موقفاً تاريخيا: فعندما رست سفينة نوح - بعد الطوفان الشهير- على قمة جبل أرارات بالأناضول، قفزت كل مخلوقات السفينة إلى البر عدا الفيران، فقد كانت قد حفرت في متون السفينة وأضلاعها وهيكلها ما لم تقم به كل الحيوانات الأخرى، غير أن أعداء الفيران - وأعداء الثورات العسكرية أيضا - لاحظوا أن نفس الفيران - (مازلنا مع سفينة نوح) كانت تقفز من السفينة إلى الماء كلما هبت الأعاصير وأحس راكبوها بالخطر، وتعود إليها فور توقف الخطر، ذلك لأن الفأر يتنسم الأخطار أكثر مما يراها، ولا تزال فيران السفن- التي تكون أول ساكنيها - هي أول القافزين منها: تعبيرا مختصرا عن الذين لا يقفون معك في وقت الشدة، والخونة، والناكصين العائدين من منتصف طرق المجاهدة، وناكري المعروف، لكن القط- أعدى أعداء الفأر- يشاركه في اللعبة الدبلوماسية التي يدركها الجميع: اعتبارا من كراسات المدارس الابتدائية، وانتهاء بالمسلسلات التلفزيونية. والفأر يعم أرجاء المعمورة قديمها وحديثها، حقولها ومصانعها ومخازنها وبيوتها، وهناك أنواع يمكنها تسلق النخيل، وهي أول ما يواجهه الرحالة بمجرد الاستقرار طويلا في بقعة غير مأهولة، وأول خطر يواجه القناطر والكباري والأهوسة (جمع هويس)، ذلك أن قدرة هذه الحيوانات القارضة على إلحاق الخطر بالمباني تقلق بال مهندسي الإنشاءات، ويمكنها أن تصيب الأغصان المثمرة وسباطات النخيل بأذى كبير، وفي المناطق الشهيرة بصناعة الأثاث- مثل دمياط مصر- أو صناعة المراكب في مرسيليا فرنسا، تجد كثيرا من العائلات المتخصصة في إبادة الفئران بالوسائل القديمة: وضع السم في الطماطم، أو بالوسائل الحديثة: تبخير السراديب والشقوق والثنايا المظلمة بالغازات الخانقة. كذلك يواجه أصحاب المنشآت الميكانيكية: مثل طواحين الدقيق، أو صناديق توزيع الكهرباء، متاعب مع الفيران، حيث تتوقف الآلة فجأة لتتعطل محتفظة بين تروسها أو توصيلاتها الكهربية بجثة الفاعل الدامي، وهذا يتناقض مع ما عرف عن الفأر من قدرته المدهشة على إدراك الأخطار،) ويبدو أنه يقع في المأزق فجأة)، غير أن أصحاب المكتبات والوراقين يجاهدون كثيرا في سبيل المحافظة على المجلدات، ولا تنجو مكتبة من القوارض، كما أن أصحاب اصطبلات الخيول يشكون من قدرة الفئران على إحداث ضرر في حوافر الجياد، ولا سيما تلك التي تركن للرقاد بسبب ظروف المرض أو الولادة.

وللفيران واد أخضر شهير، في وسط شبه جزيرة سيناء، يبدأ من جنوب أبورديس على ذراع البحر الأحمر (خليج السويس) ويتجه شرقا مائلا للجنوب حتى يصل إلى سانت كاترين، وفيه غابات من نخيل وزيتون وخوف، وتقف الجبال الشاهقة على حافة وحدود هذا الوادي صانعة مشهداً نادراً، غير أني لا أستطيع أن أجزم بوفرة الفئران فيه. وقد أنشأ شتاينبك- الروائي الأمريكي- عملاً خالداً ومشهورا هو رجال وفيران، وقد نسجت أعمال لكثيرين من أدباء الدنيا على شاكلته: قوة العقل واصطراعها مع قوة الجسد، كما أن عبقري رسومات الكارتون والت ديزني استعار الفأر بطلا لمعظم أعمال مؤسسته وهو ميكي ماوس، وهناك مؤسسة أمريكية أخرى صنعت مجدها على التقاتل أو المطاردة الأبدية بين القط والفأر في (توم وجيري)، وتنتشر الفئران- ومعظمها مسالم وحكيم- في أعمال الدانمركي هندرسون، والفرنسي لافونتين، كما أن فأرا أو فأرين تحركا في سخرية داخل قصص مارك توين، وأشعار طاغور الهندي، وعثمان جلال المصري، كما أن الشاعر الحديث جدا نصار عبدالله له حكاياته المستنبطة نظما من أخلاق الفأر، ولألبير الفرنسي عمل أدبي جميل يقوم على الفأر دون أن نراه هو: الطاعون، ويطلق المنظرون السياسيون على أنواع من المباحثات المهمة غير الرسمية وغير المعلنة: مباحثات الفيران. والفأر- بعد ذلك -هو الفداء الإنساني البديل عند العلماء، ففأر التجارب يتلقى من التجارب المعملية ما يكون المقصود منه الإنسان، وحين تكتمل التجربة- قتلاً أو حياة - تبدأ دورتها الموجهة إلينا، لا يفلت من هذه المعمليات فأر أبيض - فأر الصحارى وفأر الشمال، أو أسود: فأر القصور وشونة الغلال، أو بني فاتح فأر الجبال والتلال، أو حتى الفأر النادر الذي يعيش في جنوب شرق آسيا: الفأر الأزرق، وكلها- هذه الفيران- تجد الجو المناسب لتكاثرها المروع، بعد الحروب وبين أنقاض المدن المنهارة، وبين مرابط الخيل، وفي السفارات الأجنبية، وفي عيون نهازي الفرص، والحمقى، وطالبي المجد دون أن يمتلكوا ما يؤهلهم للمجد.

كلمات لها معنى

- **كل حاكم يأتي ومعه طبيب وقائد وحارس وكاتم أسرار وحامل أختام، ومهندس لتصميم أقواس النصر .**
- **الفرد في عين أمه غزال، فلماذا إذن يتشبث بظهرها؟**
- **المفرد: الكتابة، المثنى: العشق، الجمع: الحياة .**
- **لا تتعجل فبعضهن يبدون كالصحراء، المعايشة ستكشف لك عن كنوزهن :النساء .**
- **سقطت تفاحة على رأس نيوتن فاكتشف قوانين الحركة والجاذبية الأرضية، فما الذي سقط فوق رأس أينشتاين ليكتشف معادلة صنع القنبلة الذرية؟**

الخروف ذو السر الباتع

الخروف حيوان عالمي لا تكاد تخلو منه بقعة، يتميز بقرونه الملفوفة المشرعة فوق هامته وكأنه مستعد دائما لمواجهة تمرد،يسير وسط القطيع من الشياه والمعز في اعتزاز وكبرياء وتسلط، وكثيرا ما ينتهي به الأمر محترقاً بالأسياخ فوق نار جماعة تقضي وقتا سعيداً، وقبل أن يكتشف أهل المدن تقديم زوج من الحمام أو الدجاج للعريس ليلة الفرح، كان الخروف هو المختار الدائم لهذا الموضوع خلال التاريخ كله، وليس مصادفة أن الطريق المؤدي لمعبد الكرنك حيث تماثيل شوامخ الفراعنة، تربض على جانبيه كباش بادية السطوة والرصانة والعزة، إذ إن الكبش يتمتع بمنظر فريد من الجوانب أو المواجهة، كما أن لديه قدرة خاصة على استكشاف أي حركة تمس سطوته من خروف شاب هو في العادة ذو تجربة محدودة، وشمهورش - أحد ملوك الجن - يوصي دائما - أو يأمر دائما - مريديه في حلقات الزار الصاخب بذبح خروف رحماني تحت قدميه، والخروف الرحماني - نسبة إلى الرحمانية بدلتا مصر - يتميز بشراسة وضخامة، وذو دسم أكثر من الخراف الأوسيمي أو العبيدي المصرية أو حتى المارينو الفرنسية والإسبانية، وكثيرا ما تجد جلد الخروف مفروشاً على الأرائك الشرقية وفي مداخل حجرات الضيوف إعلانا عن تمتع صاحب البيت بسر الخروف الباتع، ويوازي ذلك ما تجده في مداخل قصور اللوردات والبارونات من جلود السباع إعلانا عن شجاعتهم في رحلات الصيد.

ويعد لحم الخروف أشهى وأدسم لحم حلال على الإطلاق، ومن المفرح أن التهامه في عيد الأضحى جاء مناسباً لرغباتنا القديمة منذ أن افتدى به سيدنا إبراهيم ابنه النبي إسماعيل، وقد حاولت أوطان أخرى أن يكون لها حيوانها الأثير كالخنزير أو البقر، لكن الخروف ظل الأشهى والأنسب والأحلى دائما.

ولعل افتقاد الخروف للفروسية والنبل والوعي - مع ما يتمتع به من منظر ذي سطوة وتحد وشراسة - هو الذي جعل الناس يلقبون خصمهم بأنه خروف، وخصمهم يسمع لكنه لا يدرك المقصود كعادته.

كلمات لها معنى

- **داهمته زوجته في المنام فسقط من فوق السرير، جاءت زوجته ورفعته إلى السرير فمات .**
- **كانت رافية هادئة مهذبة وتخلصت منه دون سكين أو حبل أو سم: فقط كانت تنمق الزهور بكثافة حول فراشه كل ليلة وتغلق النوافذ وتبتسم .**
- **أرسل صديقاً ليصلح بينه وبين زوجته، ثم أرسل نصف عائلته لاغتيال صديقه - حادث .**
- **نافد أدبي دءوب يدخل إلى النص الأدبي صباحا، وتعيده الشرطة آخر النهار إلى أهله من بين أنقاض نص أدبي آخر .**
- **كانت حياته موفقة: أنجب خمسة أبناء وقد عاش منهم سبعة .**
- **أكاد أعتقد أن التحذير الدائم من خطورة التدخين تموله شركات السجاير .**
- **المرأة الصادقة هي التي ترتكز بمرفقها فوق مكتبه، وتظل ترتكز بعد أن تتزوجه .**
- **إ ا تشكو من أن حيا ا أصبحت صحراء حارة، وهي الآن تبث عن رجل ثقيل الظل .**
- **لا تسب هذا العصر، ويكفيه أن أتاح لك فرصة الفخر بجميع الهزائم التي حافت بك .**
- **عندما قتل زوجها دون أن يرى أول أولاده منها، أصابتها موجة إخلاص جعلتها تلد دون توقف بعد رحيل زوجها بسنوات طويلة .**

البقرة

البقرة

رمز الخطب والتفاؤل والانقياد التاريخي السريع للمآسي

يرى البسطاء من النحاة والضالعين في اللغة أن البقرة جاءت من بقر البطن، اختصارا لما يعتقدون أنه عمل البقرة الأصلي، في حين يرى العارفون بأمور البقر ومنهم المؤرخون والفلاحون (المصريون بالذات) وجماعات أصدقاء الحيوان، أن البقرة طاقة خير، ومنبع إدرار، ومبعث تفاؤل، و(شارة خصب، وموطن صداقة، وفي دخولها بيته أول مرة يضمخ الفلاح رأسها بالدقيق طلبا لنزول البركة في صحبتها، ولعل ذلك- في معنى آخر- آخر بقايا علاقته بحاتحور ربة الخصب المصرية في الأحقاب القديمة، لكنها أيضا ستظل علامة السنوات المقبلة في الحلم الشهير لسيدنا يوسف (عليه السلام) جدبا أو ثراء، وهذه الصفات الميمونة في البقرة جعلتها موضع تقديس - لا تزال - عند كثير من طوائف الهند، والبقرة - بعد هذا - ستكون الحيوان العصري الوحيد الذي تظل الفائدة منه قائمة في كل أجزائه وثناياه من اللحم واللبن والزبد والأحذية والحقائب الجلد إلى الغراء والكيماويات الوسيطة (القرون والأظلاف)، حتى عظام البقر تدخل وسائط في الأسمدة وبعض الصناعات الغذائية والدوائية.

وجسم البقرة تشكيل هندسي بالغ التوازن، ولها إيقاع خاص في مشيتها، وعيناها من أجمل ما رأى الوجود من عيون، سواء كانت عيون المها- بصفتها الصنف الأكثر شاعرية وأندر وجودا- أو في عيون البقر البلدي أو الأهلي - كما يطلق عليه في كتب التراث، لكن ذلك ما لا يراه المربون في الحظائر الضخمة المقامة في المراعي الشاسعة في هولندا وفرنسا وأمريكا، إذ فقدت أبقارهم صفاتها المتألقة تحت روح التجارة والتعليب والتصدير، انظر إلى طبق البلوبيف أمامك فلن تحس بما يعتمل داخلك من شاعرية دموية مثلما يحدث لك عندما تغوص أصابعك في كتل اللحم البلدي في الثريد الوطني، الذي يصل إلى ذروته لو كان المنفرش في طبقك مخا بقريا مسلوقا تجاوره شريحتان من اللسان مع قليل من السلاطة الخضراء ذات الفلفل الحارق والطحينة البيضاء.

وللبقرة غضبها الخاص - والمزمجر - إذا ما حاق بها أو بوليدها الأذى، وهي قادرة على النطح بأقسى مما تراه في حلبة صراع الذكر منها في إسبانيا والبرتغال، لكنها في غير ذلك حيوان ودود شديد الارتياح لمرأى أصحابها، وتشارك حيوانات الحقول الأخرى في سهولة قيادتها، لكنها تختص دونها بما يطلقه العوام على المنقادين بأنهم بقرة، أما ذوو الفهم العسير فيطلقون عليهم: حمار، وليس لهذا أي علاقة بتلك الجماعات المعاصرة المنقادة بسهولة إلى حتفها الظاهر.

ويرى علماء الأجناس أن البقر زامل الإنسان منذ فجر التاريخ، وأصبح سلوك أي منهم مفسرا وشارحا لسلوك الآخر، حتى قرون البقر لم تنج من التفسير الإنساني الذي رمز به إلى الجاهل بما يحدث في حياته الخاصة من أمور، وأنت لا تستطيع أن تمنع إحساسا بقريا يداهمك عند خروجك المزدحم من السينما أو دار الأوبرا أو السوق أو المدرسة أو محطة القطارات والمطارات أو التجمعات الحزبية، ولا تستطيع البقرة أن تحول بينها وبين الإحساس الإنساني عند مثولها مع أقرانها وولائدها للغذاء، أو الاجترار أو الذبح، ولهذا تجد اللوردات والنبلاء وعتاة صيادي الحيوانات يفخرون بأن يفترشوا في مداخل قصورهم جلود السباع، ويخفون عن عمد جلود البقر، مع أن البقر نقطة ارتكاز أساسية في حياتهم: صيدا أو بقاء أو حسن تقدير للأمور، وإلا فلماذا وضع المهاجمون من التتار والقوقاز رءوس البقر ذات القرون فوق هاماتهم؟ كما وضع المهاجمون من غير التتار والقوقاز رءوس البقر ذات القرون داخل قلوبهم؟

الإجابة لا تحتاج إلى بحث آخر.

كلمات لها معنى

- **الكبير يأكل الصغير، وفي المقابل: الكبراء تودي م الصغائر .**
- **كلما رأيتها أيقنت أ ا البئر العميقة الخالية من الماء لتصبح هوة سحيقة .**
- **جميع الأمهات صالحات للدعاء الميمون، جميع الأمهات !!..**
- **أي أنثى جديرة بالحوار المتألق، على ألا تتحدث عن إنسان آخر غيري .**
- **فاتورة الكهرباء قد تعني كمية النور، لكنها - أيضا - تعني الرغبة العارمة في معالجة قلة الدفء .**
- **أكبر وقت ممكن في النظر إلى وجهها الجميل، إياك والإمعان في أصابعها، لا تغضب مني .**
- **لو استطعت أن تربت بأصابعك على خدها مجاملاً أو مواسيا، فسوف تبدو بقية الأمور واضحة في الأفق الغامض .**

الثور.. وثورات أخرى

أحسست بحرج يصل إلى حد الاضطراب حينما اقتربت من (الثور) ومادته الغزيرة الطافحة في القرى والوديان، فإذا بهذا الثور يلقي بي في (الثورة) بصفتها أنثاه من الناحية اللغوية الخالصة مستبعدا البقرة: الأنثى الواقعية، وهو أمر شائع حينما تتخلّق الأنثى بحروف تصنع لها عالما لغويا له إيقاع وصدى مختلفان عن سطوة المذكر: الجمل والناقة، الأسد واللبؤة، الرجل والمرأة، الثعبان والحية، الرفق والشفقة، أما أن يقودني الثور إلى الثورة بصفتها حالة هياج فقط: يصبح صعباً أن أغمض عيني عن حياتي وتاريخي ومفاهيمي وكتابتي وإدراكي النقدي - أو التذوقي - للنصوص الأدبية - في الشعر والقصة، دون استبعاد اللوحات الفنية والأبنية الموسيقية. إن الثورية المتأججة في الوجدان تحتاج إلى نوع من الفصل بينها وبين الثور حتى أجعلك تحس بالارتياح معي - حتى لو كان مؤقتا، كي يباح لنا أن ندرك أن الثورة تعني الكثرة، يقال: ثورة من رجال، وثورة من مال، كما أن ثورة الشفق: ما انتشر منه، إنها حمرة الشفق عندما يبدأ الليل في الزحف ضاغطاً على النهار لإزاحته من عالم النور، ولعل ثور الشفق الممتد في الآفاق بحمرته الداكنة الساحرة هو أكثر المشاهد تأثيراً في النص الأدبي منذ الأبد، حتى أن الثور يعني انبعاث الشيء قبل أن يصبح جنسا من الحيوان: ثار البركان ثم ثارت الفتنة، وثار فلان: اشتعل غضباً، وثارت نفسه أي تجشأت - ربما بسبب أمراض القولون العصبي المبكرة في الذكر بالذات حينما يمعن في غضب مكتوم على مساحة تضاريس وجه أنثاه، وقد يتطور الأمر صاعداً من أمعاء البطن إلى (الفريصة :(يقوم الرجل ثائرا فريصته: أي عصب الرقبة وعروقها التي تنتفخ - منذ الأزل - عند الغضب، وتودي به إلى الحالات العصرية - والثورية - التي نعاني منها الآن، مع أن التراب - أقـصد الغـبار، له ثـورة لا تقل شأنا عن ثورة الدخان والجراد، والطحالب أيضا حتما تنتشر على وجه الماء الساكن أو الهائج.

ويبدو أن الثور سيظل يتراجع أمام اجتياح أنثاه حتى ينتهي به الأمر إلى تلك الأطباق الشهية ذات الرائحة المخترقة لمنطقة الاشتهاء في الخياشيم، في حين تنشط أنثاه - الثورة - لتداهم الرأس الإنساني لينتشر الشعر ويتفرق، وثورة الماء من البئر تتوازى بانفعال أقل حدة من ثورة البركان، وثورة البعير من مبركه - أي المكان الذي يبرك فيه - تعني انبعاثه واقفا، وعندما تثور الحصبة بفلان: أي بدأت تنتشر، ويحتل الفلاح من الثورة ما يسمح له بأن يحرث الأرض ويقلّبها تمهيدا لزراعتها، وفي سورة البقرة {قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث} - آية 71 - وعندما يعود الفلاح كي يثير الأرض فإنما يقصد أن يصمم لاستخراج بركاتها منها، أما إثارة الأمر فتعني بحثه، ومدارسته وبالذات في التقارير السرية غير المعلنة في المؤتمرات والاجتماعات ودورات المجالس النيابية، المحلية والدولية.

إلاّ أن الثور يعود خلسة - على غير ما تعود من سلوك هائج ثائر - ليحمل اسمه ثور بن عبد مناة بن عدنان، وهو من العصر الجاهلي قبل ظهور الإسلام، وكانت منازل أهله حول جبل ثور الذي به الغار الذي لجأ إليه الرسول الكريم بعد ذلك في أثناء هجرته من مكة إلى المدينة، وقد حمل أهل ابن عبد مناة هذا الاسم، أما أبو ثور فهو إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي، وهو فقيه من أصحاب الإمام الشافعي، وكان ذا علم وفقه وورع وفضل، وقد صنّف الكتب، ومات ببغداد شيخاً بعد أن وضع الكثير من الآراء في الخلاف بين الإمامين: مالك والشافعي، أما الثوري سفيان بن سعيد من بني ثور أيضا، فقد نشأ في الكوفة، وراوده المنصور العباسي كي يلي الحكم بعده، فأبى رافضا أن يقع في خضم السطوة والسلطة، وانتقل إلى البصرة مستخفيا ليموت فيها دون أن يعرفه أحد، وله من الكتب الجامع الكبير والجامع الصغير.

وقبل ظهور الثورة بأحقاب كان الثور يعني: السيد، والمهيمن على الأسرة أو القبيلة، وبه كُني عمرو بن معد يكرب، ثم لم يلبث شأن الثور أن امتد إلى معان تنزل به من السمو والعلو إلى صفة الأحمق، بل وتدنى إلى البليد الفهم، والمجنون كما هو معروف أيضا، وقد يدعونا ذلك إلى التقاط أنفاسنا، والإمعان في هدوء إلى الوجود، وأن نبتسم قليلا، وألاّ نستبعد أجزاء الثور المتبّلة في الطبق الشهي، وأجزاء الثورة أيضا.

كلمات لها معنى

- **كل جرح له خطورته، أشدها خطراً تلك الجراح التي لا تـ ف دماً، جراح القلب بالذات .**
- **ليس هناك أعمق تأثيرا من نظرة رفيقة في وجهك الغاضب من طفلة لا تجيد الكلام، طفلتك على وجه الخصوص .**
- **أول من وصل إلى قمة الجبال: الطيور والحشرات، في دقائق أو ساعات، والإنسان أيضا خلال عدة أيام أو شهور - أو سنوات .**
- **لا أعرف حتى الآن السبب الكامن وراء اضطراب أصابعي حينما أوقع على أوراق تسلم النقود .**
- **أفكر في رواية ممتعة، أنجح عبرها في جمع كل عواصم العالم في منطقة واحدة، تاركا بقية الشعوب كي تستمتع بالدنيا الصافية دون عواصم .**

البغل صفات حرجة وطهارة لا حيلة فيها

لا بد من توفير حسن النوايا أثناء قراءة هذا الموضوع، فالبغل ـ ومثله كل ما يدور في الكون من حالات وعناصر ـ من مخلوقات الله، وهو ما نرتكن إليه كي نضع البغل في موقعه الإيجابي الذي يستحقه بدلاً من نفيه خارج الاهتمام، ويكفي البغل فخراً أنه فاق الخيول ـ (ذات الشهامة المتألقة)، والإبل ـ (ذات الصبر الراسخ(، والحمير ـ (ذات الامتثال والخنوع) في اختراق الفلوات والجبال والأنهار ليحمل الكتب والزاد إلى هؤلاء المنقطعين ـ للإيمان والعلم ـ بعيدا عن ضجيج الناس، وقد قام البغل ـ مبكراً ـ بجهد فائق في حل ما رآه علماء الوراثة المعاصرون أنه معضلة: من الذي يؤثر في نوع الجنين، الذكر أم الأنثى ـ وظهرت أبحاث عديدة متوالية تراقصت جائزة) نوبل) العالمية في ميدانها حول الخلايا الحية وتركيباتها وصولاً إلى نتيجة قام البغل بتحقيقها منذ ملايين السنين، إذ يقول الدميري في كتابه الشهير (حياة الحيوان): فإذا كان الذكر حماراً كان البغل المولود شديد الشبه بالفرس، وإذا كان الذكر فرساً كان شديد الشبه بالحمار، ليصبح مناسباً أن نشير هنا إلى أنه (ابن أمه(، والمعلومة بدائية ـ يجهلها كثيرون من أبناء العصر الحديث ـ فالبغل (عقيم لا يولد له)، ولانتفاء الذكورة والأنوثة منه حاقت به قوانين العقاب في السب وصفاً لأعدائنا والمناوئين لنا، وخصوصاً عندنا نحن الشرقيين ـ عرباً وغير عرب ـ الذين نفخر بالخصوبة بجانبيها الذكوري والأنوثي، حتى أن طالباً للعلم من بلاد البنغال احتج على بحث زميل له زعم أن لفظ (البنغال) جاء نتيجة لما اشتهر فيها من القدرة الفذة للبغال على صعود جبالها (قسم من الهملايا الهندية) حاملة ما يحتاج إليه المقيمون أعاليها من زاد واحتياجات، وهو افتعال لغوي وقع في صوتيات اللغة دون معناها.

وعموم الناس ـ في أقطارنا ـ لا يقتنون البغال، إنما هي شريحة واحدة ـ دون الفلاحين والبدو ـ تلك التي تعرف لهذا النوع من الحيوانات قدرها: أصحاب عربات الشحن (الكارو) وتجار الحبوب والأقمشة قبل أن تنتشر محلات بيعها في كثير من المواقع، وقبل أن تتفشى استخدامات السيارات بأنواعها، لاحظ أن البغل ـ الآن ـ دخل في دائرة الاندثار، بل بدأت الحمير والخيول والجمال تحس بما جرى للبغل تمهيداً للمصير المتوقع لها خلال السنوات القادمة بجراراتها الآلية فاقدة الإحساس والمشاعر.

لكن البغل لايزال مشاركاً للحمار وصفاً للغباء في فصول المدارس وساحات التعليم وإهانات الكبار للصغار في المطاعم والورش ومواقع التشغيل والبناء والمحاجر والمواني والحقول، لكن البغل ـ دون الحمار ـ ينفرد بالتسلل غير المعلن بين سطور تحليل بعض التصرفات السياسية، وحيثيات أحكام انفصال الأزواج، والقدرة على التحمل دون مناقشة، وعجز الفرد عن اكتساب خبرات جديدة (الجمود)، وبؤس العواطف، وفقدان اللماحية (الذكاء السريع)، والخوض فيما يجب عدم الخوض فيه، وارتفاع الهمة والقدرة النشطة دون أن تمتزج بالتذوق، وأي جمل أو حصان أو حمار سوف يجد من صاحبه ـ أثناء السفر ـ صوتاً شعرياً غنائياً نشوان يصنع إيقاعا يربطهما معاً: إلا البغل الذي تستوي عنده كل الأمور، يخترق جداول الماء ويقفز فوق القنوات (الجمل لا يمكنه ذلك(، وأكوام الرمال والحصا والتراب (الحمار لا يمكنه ذلك)، ولا ينشغل بعذاب حارق للزوجة والأنجال (الحصان ـ ونحن ـ لا يمكننا ذلك)، ولا يكافح طويلاً كي يعود إلى بيت صاحبه: الدار أو الوطن (كثير من السياسيين لا يهتمون بذلك.(

وقد نتج عن عدم انتباه البغل لحقوقه أن امتلأت الكتب بالنوادر، والشوارع بالنكات، وجلسات السهر الرخيص ـ والغالي أيضا ـ بالتعليقات التي تجر البغل من أذنيه، والتي تسبغ على البغل ما يظلمه ويجور على تكوينه الذي اختصره عمرو بن العاص في واقعة جاءت في كتاب (الكامل للمبرد)، حينما نظر أحدهم إلى ابن العاص وهو على بغلة قد شمط وجهها هرقاً (أي ذات وجه عجوز ذي غضون قديمة)، فقال له: أتركب هذه وأنت على أكرم باحرة.

والباحرة ـ بالحاء لا الخاء ـ جاءت من البحر صفة للفرس واسعة الجري مزجاً مع الناقة فائقة التحمل)، فقال عمرو بن العاص: إنه لا ملل عندي لدابتي ما حملت رجلي، ولا لامرأتي ما أحسنت عشرتي، ولا لصديق ما حفظ سري: إن الملل من كواذب الأخلاق، وهو ما استند إليه واحد من القضاة المصريين ـ في الستينيات ـ حينما رفض دعوى طلاق بين زوجين لم تتح لهما فرصة إنجاب لكنهما أقرا بحسن العشرة، وذلك هو المدخل الجميل الذي يمكن لي أن أتمنى أن يصعده البغل من بين الوديان وعربات الجر وخشونة الجبال، ليصبح رمزاً عصرياً لكثير من تصرفاتنا ذات النبل والطهارة، لقد حظي بذلك الحمار: شعار الحزب الجمهوري أو الديمقراطي في الولايات المتحدة الأمريكية، عذرا فقد عجزت عن التحديد الدقيق ـ والضروري ـ بين الحزبين أثناء استغراقي في كتابة هذا الموضوع.

كلمات لها معنى

- **سألته في استياء: لماذا فعلت ذلك في صديقك، فقال في هدوء: وهل لا بد لي من البحث عن واحد لا أعرفه كي أفعل فيه ذلك؟**
- **جة بالغة المرارة: مشهد أحفادي يحاولون - في صخب الطفولة - العبث في أحجار الهرم، نفس الأحجار التي كنت ألوذ بالجلوس عليها في الأيام الغابرة، كانت زوجتي - جد م - تمعن في وجهي .**
- **لانزال نحصي الديون في حدود نقود تم استدانتها .**
- **الزهور لا تنبت في المنطقة السفلى من النبات .**
- **من الممتع أن يحاول أساتذتي تقليد سارتر وسيمون دي بوفوار في علاقتهما المتميزة، دون أن ينتبهوا إلى أن المسألة بدأت منذ ريعان شبا ما .**
- **الطاقة تساوي الكتلة في مربع سرعة الضوء، رجاء مراعاة فروق الظلام .**
- **كثيرا ما نجحنا في إغلاق الباب الذي يأتي منه الريح، لكننا لم ننتبه إلى فتحة أوقات النسيم .**

الحمار صَاحب الحق الضَائع!..

الحمار أقدم أصدقاء الإنسان، ولا ينافسه في ذلك سوى الكلب، وهو - حينما يهتم به صاحبه ويزهو- تنتابه الكبرياء الواضحة، فيتراجع رأسه إلى الخلف وتبدو في عيونه مسحة الحكمة التي كثيراً ما نراها في وجوه العسكرية الفاشلة، وإن كان الحمار أكثر بروزاً في التاريخ، وتمثل تصرفات الحمار معظم التراث المرح في مختلف أركان العالم، وأكثر الحمير التاريخية شهرة: حمار جحا، وأكثرها غموضاً حمار الحاكم بأمر الله الفاطمي، الذي خرج بصاحبه - الحاكم - إلى حلوان وعاد بدونه إلى القاهرة، فلما طال قلق الرعية بحثوا عن الحاكم فوجدوا ملابسه مدماة وممزقة عند عين حلوان، ولا يزال للحاكم أتباع ينتظرون عودته إلى اليوم، وأشهر حمار أدبي في العالم هو الخاص بالإسباني خوان رامون فيمينيث (نوبل 1956) في مؤلفه (حماري وأنا)، وأشهر حمار أدبي عربي هو الخاص بتوفيق الحكيم، ثم هناك الحمار الكاريكاتيري الشهير الذي صاغه الرسام عبدالمنعم رخا (حمار أفندي)، والحمار الأخطر - صاحب الحق الضائع - هو الذي حمل السيدة العذراء وابنها السيد المسيح وهو طفل، ومعهما يوسف النجار، كي يخترقوا الحواجز والفلوات من الناصرة الفلسطينية إلي داخل صعيد مصر هرباً من اليهود، حيث تركوا آثاراً ذات شأن في المطرية (شجرة مريم) وأسيوط (الدير المحرق - جبل العذراء.(

وظل الحمار يغطي الجهد الإنساني لصنع الحضارة في الجر والنقل والركوب والحرث والري والسياسة والثقافة، وعندما أمتلك ثروة - أي في القريب العاجل - فسوف أصدر صحيفة يومية اسمها (الحمار) ويكون لها ملحق أسبوعي في الفن (الحمار المخطط(، وملحق شهري يختص بشئون الفكر فقط (الجحش)، ذلك لأن الحمار صبور هادئ رزين يرى من الأمور أكثر مما تراه المباحث والمخابرات والأقمار الصناعية والمصادر المطلعة، ويختلف الحمار عن كثير من السياسيين في قدرته التلقائية على الترحيب الصاخب عندما يرى أنثى من نوعه، ويطلق عليها اللغويون (الأتان) وقد وردت كثيراً في أشعار أدباء الهجاء وبخاصة جرير والفرزدق، وصوت الحمار - النهيق - هو أنكر أصوات المخلوقات كافة) الخنزير يطلق صوتاً كريهاً) وقد خرج صوت الحمار على القياس الأوبرالي فلا تجد له في علوم الصوتيات (لغة أو موسيقى) مثيلاً، صوت عريض لا يدانيه في ذلك إلا ذكاء الحمار نفسه فهو ذكاء عريض مستقر لا يخضع لنوبات التجديد أو الابتكار أو الإبداع، يجعل تصرفاته محدودة مرتبطة ارتباطاً يقينيا بوجود صاحبه كارتباط التنظيمات الشعبية بزعمائها، وموظفي الحكومة بمكاتبهم حينما يعجزون عن الخروج عما ألفوه واعتادوه، وليس في وصف أحدهم بأنه حمار أي سب أو شتيمة أو مجاز.

كلمات لها معنى

- **عليك أن تقول الحق مرة أخرى، حتى لا تبدو الأولى أمرا عارضا .**
- **إن الحياة تنبثق كالنافورة الجميلة، التي لا تلبث أن تغرق الطرق .**
- **الوقت كالسيف، وماذا بشأن المدافع؟ !**
- **المتنبي هو الشاعر الوحيد الذي راح ضحية نصف بيت من شعره، ومن العار أن تعيش جبانا، عندما ذكره به قاطع طريق وصرعه بسببه، ومن يومها والشعراء يرفضون أن يتذكروا شيئًا سبق أن قالوه .**
- **كانت الغيوم متهدلة، كجورب امرأة فقيرة .**
- **س: هل أنت صاحب تجارب فاشلة؟**
- **جـ: صاحبها فقط؟! وزوجها أيضا .**
- **زوجتي لا تصدق حتى الآن أن الجهات الأصلية أربع فقط، إذ تنظر إليّ في شك، فربما أكون قد أخفيت عنها واحدة .**
- **المعرفة: قطرة عين العقل، ومعجون أسنانه أيضا .**
- **دخل على زوجته فوجدها متألقة فكاد يعود خارجا متوهمًا أن البيت ليس بيته، وقد عاتبته زوجته على ذلك لأنه جاء في غير موعده .**
- **عمى القلب: أن تتشبث بالزهور دون الأغصان أثناء تسلقك الشجرة .**

الحصان

رفيق الحضارة والأدب والإستراتيجية والجمباز

حلم اليقظة التاريخي وأمنية الإنسان، أن يمتطي حصانا ولو كان يمتلك أفخر السيارات أو الطائرات، وعندما أنقذ الشاطر حسن حبيبته ست الحسن والجمال في سرعة وفروسية، فقد تم ذلك على ظهر جواد، ومن المؤكد أن الأمر لم يكن ليكتب له النجاح التام لو أن الشاطر حسن استعان بجمل أو حمار، وسوف يعوزك خيال قوي لو تصورت عنترة العبسي - فارس العرب - يغازل عبلة دون أن يمتلك حصانا، فحتى كلمة فارس جاءت من فوق ظهر الفرس، فقد كان الحصان طوال التاريخ أثيرا لدى العرب يفجر فيهم الحب والشعر والغزو بصفته حيوانهم الأسطوري والخرافي والاستراتيجي، قبل أن تدهمه الدبابات والسيارات المصفحة والطائرات والصواريخ، وهو الحيوان العربي الوحيد الذي نافس أصحابه في نسبه وأصله وفصله، فلكل حصان ثمين ملف يؤرخ له منذ نعومة حوافره وما حاق به من نزوات وتغيرات وأحداث، وأشهر الخيول - غير جواد عنترة بن شداد - حصان طروادة الخشبي الضخم الذي تسلل في بطنه جيش الأعداء ليداهموا المدينة، وحصان الشطرنج الواقف بجوار الطابية متحفزا، وحصان المملوك الشارد الهارب بصاحبه من فوق أسوار القلعة هربا من المذبحة التي دبرها محمد علي الكبير فتكا بالمماليك، وقد نجا المملوك دون الحصان، ثم حصان الجمباز الخشبي الذي تتقافز على ظهره فاتنات المعاهد الرياضية، وأكثر الخيول مرحا وسخرية حصان دون كيشوت الذي قاتل به الأوهام وطواحين الهواء في رواية سرفانتس الإسباني، أما مرافقه سانشو بانزا فقد كان يمتطي جحشا، ويقول العامة عمن كسر عموده الفقري: انكسر حصان ظهره، وفي المأثور من عموم معاني ندابات الجنائز: (رجع الحصان ودماغه محنية) أي أن الحصان عاد بدون صاحبه وقد شمله الحزن، مع أن صاحبه لا يكون قد لمس حصانا في حياته. وأكثر الجياد العصرية شهرة :الحصان الأمريكي الذي يمتطيه الكاوبوي في آلاف الأفلام السينمائية، وحصان حلبة السباق الذي تقام له احتفالات المباريات الضخمة التي يعشقها مدمنو المراهنات، وبقايا خيول (البرجاس) في صعيد مصر وصحراواتها، والبرجاس نوع من رياضة التحطيب على ظهور الجياد تسبقها مطاردات صيد يستبدل فيها شاهد خشبي بالغزال يطعن بالرمال في سرعة، وليس للحصان أية أمجاد في احتفالات نقل العرائس إلى بيوت العرسان، فقد كان ذلك وقفا على الجمال ثم السيارات، فلم نسمع عن عروس امتطت حصانا ليلة دخلتها إلا في فيلم (رابحة) لكننا رأينا خيولا تجر عربات نقل رفات موتى العسكريين والعظماء.

والجواد يستجيب لإيقاع التصفيق والطبول والموسيقى، ولعل تراقصه اللطيف يعد امتيازا خاصا لا تجيده إلا الخيول العربية الأصيلة، وهو أيضا يستجيب لحركة مروضه أو صاحبه، ويثيره التماع البرق وهزيم الرعد، ولا ينام أرضا بل يريح واحدة من قوائمه الأربع مستندا على ثلاث منها ثم يستبدل أخرى بها كلما طالت رغبته في الراحة، وقد احتاز الحصان الكريم لقب الجواد، ويمتاز بالسرعة وقوة الاحتمال وخفة الحركة، ومن ألوانه الكميت والأدهم والأشقر والأحمر والعسلي والأزرق والأسود والأشهب، ومن محاسنه الحجل (بياض فوق الحوافر) والغرة (بياض في الجبهة) ثم هناك نوع نادر اسمه الصادق حيث يغزو شريط أبيض المسافة من أسفل خطمه مرورا بأسفل الرقبة حتى بوادر صدره.

والحصان - بعد ذلك - هو المقياس العصري للقدرة الميكانيكية، ابتداء من نصف حصان لموتورات رفع المياه، وعشرين حصانا لسيارتك، وأربعين لآلات الحرث والجر، بغض النظر عن مآل كل ما ورد في هذا عن الخيول والتي ينتهي مصيرها في أغلب الأحوال إلى لحوم تغذية الحيوانات المفترسة بالحدائق، أو إلى جر عربات الركوب وكسح النفايات، وهي نهاية يصعب على الإنسان تصور أن تكون لحلم اليقظة التاريخي.

كلمات لها معنى

- **عليك أن تؤجل هجومك علينا حتى تنتهي من تدخين آخر سجائرنا .**
- **الأسورة في المعصم، والخلخال في القدم، ولايزال بعض النساء يتحلين بحلقة مخزومة في الأنف - صياغة حديثة للقيود التاريخية .**
- **مثل حل الواجبات المدرسية: العلاقات الزوجية .**
- **يقشعر الجسد بردا وحبا، يقشعر العقل إفلاسا ومكرا .**
- **لانزال مسألة التفاحة التي قدمتها أمنا حواء لأبينا آدم في الجنة، والتي أودت بهما إلى أسفل سافلين، أمرا غامضا، مع أن التفاحة لم تكن أمريكية .**
- **أدفع عمري ثمنا لأول خطاب غرامي كتبته في حياتي، علّي أمسك بأولى بذور المداهنة التي جعلتني شخصا ناجحا .**
- **لو أنني أملك أمر جائزة كتابة المقالات العصرية لصنعتها على شكل جراب الحاوي .**
- **كانت أناملها تعزف على أوتار القلب، أقول كانت: لأنني تزوجتها .**

الجمل

الصديق التاريخي الذي - كان - يجوب الأصقاع

بالأفكار والقوت والفلسفة والأشعار

بعد سنوات قليلة سوف يصدر العالم العربي كتابا تذكاريا عن الجمل، ونحاول أن نرسمه لأحفادنا في الكراسات وعلى السبورات وشاشات الكمبيوتر، بيدنا الكريمة التي توقف تلامسها مع العالم في حدود القلم والورق والجريدة ومقابض السيارات والبيوت والأزرار والمصاعد، وعيوننا الكليلة التي لم تعد تمتد إلى آفاق أكثر رحابة من أوراق البنكنوت ومذكرات الساسة وألعاب الفيديو، مع أن علاقتنا نحن العرب بالجمل لم تكن كأي علاقة أخرى مع أي كائن آخر، فإن كان الحصان شجاعة وفروسية ونبلا وسيفا وفتحا، وإن كان الثور والبقرة حرثا ودرسا وغذاء، وإن كانت الشياه لحما ولبنا وملابس، فإن الجمل كان كل ذلك ويزيد، هو هودج التاريخ يتهادى حاملا الحضارة العربية: الكتاب والزاد والأفكار والفلسفة ودواوين الشعر إلى شتى الأصقاع، ابن صحراء خالص استقطر من الصحراء صفرة الجلد والصبر على العطش وتحمل المكاره واختزان القوت والرغبة في الثأر والانتقام، طيب يحب الكلمة الطيبة كالوالدين، متحرر يعشق التنفس في الهواء الطلق بعيدا عن الأبنية ذات السقوف كقدماء الكهنة والزاهدين والمتصوفة والباحثين عن حقيقة الوجود، أحمق - ليس كالصحراء فقط - بل وكالمرأة المطلقة، هادئ كالموظفين المحالين إلى الاستيداع، ساذج - وبالغ السذاجة - أكثر قليلا من العاملين في مجال الوعظ والنصح والإرشاد، رزين رصين كالذين أثقلهم الدهر بالمصائب ليصبحوا محكمين في المجالس، طيع مطيع ودود لطيف كالعرائس في الأسبوع الأول من التزاوج، صادق كالدقائق الخمس السابقة على انتهاء الأجل، لا يحب الأذى من أقرب الناس ولو كان صاحبه شديد الاحتفاء به، رأيته في قريتنا يدك البيت بعوارضه ويقتحم المكان حتى يصل إلى صاحبه ليفترسه، لكنه في الأمان والاطمئنان يسير الهوينى وراء صبي صاحبه ولو بدون مقود، ولم يكن أكثر زهوا لعروس من الاحتفال بها في هودج جمل مزخرف بآيات من الزهور والتألق وقماش الساتان، كما كان من حظ جيلنا أن يلحق بمهرجان المحمل في المولد النبوي الشريف، كانت قريتي تخرج بجمالها المنمقة السامقة المتهادية وراء الخيول بالطبل والزمر و الصياح المتلألئ بالبشرى والأهازيج، وبالصخب نفسه كانت الجمال تخرج بالبشرى لأول رمضان المعظم، يتحاطب الفرسان أمامها وتقام حلقات الفروسية وتنطلق الأعيرة النارية ابتهاجا فلا تنزعج، وعندما داهمت السيارات الأفراح أصبحت انتقالا سريعا ضاجا يخلو من السرور والزياط وانتشاء الجماعات في مواسم التكاثر، واستبعدت الجمال من أفراحنا لتتحول إلى حمالات الحطب والقطن والقصب، ففقدت الجمال رشاقتها وشاب تكويناتها تضخم وتكاسل، وحتى الذكور ازدردت صوتها المجلجل كصوت انسكاب المياه من القلل، وابتلعت حناجرها واستسلمت للاجترار والبروك في البيوت المسقوفة كي تعاني من السأم والملل والجرب وجراح محامل الليف الخشن، ولم يبق من عالم الجمال الأصيلة إلا مجموعات متناثرة في الصحراوات البعيدة تحتفظ بنحافتها الرشيقة وسرعتها المنطلقة وكأنها بقايا قصيدة فخر قديمة، ويقوم أصحابها بتنظيم آخر مهرجانات الهجن في الإمارات والكويت والمملكة العربية السعودية، وقد تلاشى هذا من سائر الأقطار العربية الأخرى.

ولعلنا سنعاني أكثر حينما نضطر أن نشرح لأحفادنا بأن الجمل العربي حيوان طيب عايشناه وعايشنا خلال أحقاب التاريخ، وأنه يختلف عن الديناصور، وعن الزرافة، وعن الجمل ذي السنامين، وعن حيوان اللاما، ويختلف أيضا عن هذا الحيوان الهزيل المرسوم على علبة السجائر الأمريكية.

كلمات لها معنى

- أكثر من رأيت تألقا: ولد يندفع ببشرى النجاح، عازف اندمج في العزف دون أن يتوقف تحت سطوة التصفيق .
- الذين يرقبون في قلق مستقبلهم نادرا ما ينتبهون إلى حلاوة اليوم .
- لا تسافر ولا تصادق ولا تكتب، إن كنت تريد أن تكتشف البشر، ادخل السجن .
- كل وردة تن عج من خطر أصابع تسعى لقطفها، وتن عج أكثر من أمان يتركها تذبل على غصنها .
- لقد ضقت ذرعا ذا الحصار القاسي الذي تفرضه علي زوجتي، إ ا تتفانى في تنفيذ مطالبي .
- العواطف كالتربة، تحتاج بين وقت وآخر للتقليب والتهوية وتعريضها للشمس، يستحسن أن يتم ذلك خارج البيت .
- الأدباء زبدة العالم: يسيحون عند التعرض لأية حرارة، ويتكلسون كالكوليسترول عند الاحتفاظ م فترة طويلة .
- مصارعة الثيران، مصارعة الديوك، الأجمل: مصارعة نقاد الأدب .

البـغل...

ظللت أتجوّل بين تضاريس دماغي، قاصدًا أن أستريح على حجر أو صخرة أو مقعد، أتنسم خلالها روائح اللغة العربية المتهادية كالغزلان في آفاق رمال خيالي، فإذ بالاسترخاء يسحب قدرتي على التصوّر، لأمعن في مشهد سمعت عنه، ولم أشهده خلال ملايين الأعوام التي مرت من حياتي: بقعة سوداء تتحرك بين ألوان الرمال الباهتة، ثم لم تلبث هذه البقعة أن تتماوج لتصبح مجموعة حيوانات هادئة تحمل مالا أفهم، كي تصعد التلال في طريقها إلى مالا أدرك، إنها مجموعة بغال، والآفاق الممتدة تفتح لها إيقاعات الحركة المتناغمة، والشمس في طريقها للغروب، تبتسم ساخرة مني، فقد عملت - أثناء أعوام كفاحي المبكر - في مكتب واحد من المحامين، ومن بين الدعاوى القضائية، كانت قضية تعويض - مع عقاب - لواحد اتهم المدعى بأنه (بغل)، إنها لغة لعان - أو ملاعنة، إذا ما تبادل طرفا الدعوى السبّ بالاعتداء اللغوي، ويشارك الحمار البغل في هذا الاتهام، كما يشاركه في حمل الأسفار والحقائب والمرتحلين، إلاّ أن الحمار لا يمكنه الصعود بين الصخور مثل البغل، أما الجمل، فإنه يظل ذا إيقاع في الحركة الهادئة، التي يتفادى بها أي صعود أو هبوط، حتى أن من يريد أن يتسع خياله منا عليه أن يعرف أجمل سر إبداعي في الشعر العربي، حينما تمعن أو تمتطي جملاً، يفتح جمجمتك هادئة للهواء الطلق المنساب همسًا بين العشاق، حتى لو كانت القصيدة فخر فرسان الانتصار. ومن موروث التجارب القروية عندنا في صعيد مصر، أن الجمل يرفض أن يقفز ليتخطى قناة ماء أو قطعًا له عمق لا يحول دون تجاوزه أي حصان أو حمار أو بغل أو خروف، كما أن البغل لا يشارك في مباريات المناورات الرياضية المرحة - أو الجادة - في احتفالياتنا الصاخبة الخاصة بالزواج أو النجاح أو استقبال أصدقاء قادمين من بعيد. كل ذلك والبغل يظل هو الوحيد، الذي حمل الأسفار واللفائف والحقائب، ليصعد الجبال والتلال في مناطق البرانس - بين فرنسا وإسبانيا، أو منطقة (الألب)، بين إيطاليا وسويسرا، أو بين مرتفعات مناطق الشام والعراق والجزيرة العربية واليمن، والاتجاه شرقًا حتى يطل على منطقة البحر العربي من فوق تلال أقطار الإمارات والكويت وقطر والبحرين، تمهيدًا لأداء رحلاته الفريدة بين وفوق تضاريس إيران وأفغانستان وباكستان والهند، وهو ما تسلل إلينا في أنواع من رحلات شاقة، خدمة للأنبياء والمجاهدين والصالحين والرحالة، الذين كانوا وراء إحساسنا الإنساني بأن البغل هو أكثر الكائنات المعروفة قدرة على اختراق السحب، وبوادر الطوفان من رياح وأعاصير، إنقاذًا للبشر.

ومع ذلك، فإن البغل يؤدي - في الوقت ذاته - دورًا ساخرًا في روايات سرفانتس تحت قيادة دون كيشوت، ثم لم يلبث أن انتشى البغل في موسيقى الإسبان المتسللة من بين الأديرة في الجبال إلى الوديان وشواطئ البحار، كما قام البغل بدور مؤثر في الوقائع المرحة - وقد تكون المريرة أيضًا - في موروثنا العربي، أي في ألف ليلة وليلة، حينما عاد شهريار إلى قصره، تاركًا حصانه، وممتطيًا بغلاً، كي يداهم الخيانة الزوجية المعروفة والممهدة لظهور شهرزاد في حكاياتها الأثيرة - رحمة وتهدئة، ثم تمهيدًا لظهور أرقى وأعظم نص شعبي معروف في العالم.

ولقد شاءت ظروفي، أن أسافر إلى جنوب بلادنا المصرية أوائل الستينيات، ومن هناك زرت منطقة النوبة - قبل التهجير الثاني لأهلها النوبيين أيام السد العالي، وكان التهجير الأول خلال بناء خزان أسوان قبل ذلك عام 1902، ثم التعلية الأولى لجدرانه عام 1912، ثم التعلية الثانية عام 1929، ففوجئت بأن الحيوان الأثير، والمنتشر بينهم وسط التضاريس الجبلية، فوق شواطئ نهر النيل، هو البغل - وليس الحمار أو الجمل أو الحصان. كما أن الماعز المتقافز مرحًا بين الصخور والبيوت متوائم تمامًا في حياة لا يتحملها البقر والجاموس المنتشر في مناطق أخرى بعيدًا عن النوبة، ويمكن لك أن تحظى بمشاهدة غزال متسلل اختفاء بين الصخور البعيدة.

ولذا يصبح سهلاً أن نترك الاتهام الجنائي الناجم عن وصف لاعن لطرف ضد طرف، بأنه بغل كي يعود إلى ما يؤذينا حينما نعلم بأن البغل حيوان طاهر يأتي من إناث الخيل، مع ذكور الحمير في الأعم، لا يوجد في البغال ذكر وأنثى، ومقاومة البغال للأمراض عالية، وتستخدم في حمل أثقال أكثر من قوتها، إنني أنقل ذلك من الموسوعة العربية، محافظة على مشاعر البغال، ولاسيما حينما يقال: إنه بغل نغل - أي نذل - وقد تساوت كرامة البغال مع الخيول والحمير في النص القرآني العظيم﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة** ﴾، فإذا كان ثمة تشبيه لعوائق تحول دون الارتياح في حياتك، فلا تقلق، فإن بغل الجسم يعني الغلظة والشدة والتصميم، كما أن البغل صفة قد تطلق على مَن تسير في بخترة والسير السريع، لكني لاحظت أن المراجع لم تذكر أمرًا معروفًا وشهيرًا عن البغال، أنها لا صوت مقلق لها مثل نهيق الحمير المنفّر — أنكر الأصوات - أو حنجرة مجلجلة من الجمال كانسكاب المياه من الشلالات أو القُلل - جمع قُلة - إنما صوت البغل ناعم، رقيق، ليس نهيقًا ولا ثغاء، إنما هو هذا الصوت الهسيس غير المقلق، الذي حاصر حياتنا من الأصوات الضاجة الحديثة - والقديمة أيضًا.

والبغّال - مع أهمية تشديد الغين - هو صاحب البغال، إلا أن منطقة دفن الأموات في بلدتنا (ديروط الشريف) يطلق عليها منطقة البغيلي، وكانت الصفة شعبيًا تحمل تواصلاً نفسيًا مناسبًا بين المدافن ولقب ينتمي للبغال، حتى أن كثيرًا ما تصاعد صراخ الأب عندنا كي يلوم الابن الذي لا يعجبه السكن الذي أهدي إليه من أبيه :إذهب فاسكن في البغيلي، إلاّ أن الأمور تغيرت في السنوات الأخيرة، فقد زحف أهلنا من بلدتهم عبورًا على كوبري البغيلي - مع إقامة كوبري آخر لا اسم له - ليقيموا مساكن لهم وسط فراغات مدافن منطقة البغيلي، وقد حدث ذلك أيضًا في بلاد عديدة، دون أن يكون ثمة تأثير للبغيلي الذي يقع في منطقتنا فقط، وأصبح عاديًا لدرجة أنه تساوى مع إطلاق) البغلة) - وهي مؤنث لا مذكر في الحياة له - على الألواح الحديدية في الكراكات والبلدوزرات الحديثة، كما أن جزءًا من (النورج) الذي يستخدم في درس نتاج محصول القمح، تمهيدًا لفصل الحبوب عن الدريس، يطلق عليها: البغلة. وهناك أيضًا العمود العريض الذي كان يستخدم في رفع المياه من مصادر المياه العميقة حمل لقب البغل أيضًا، لكن الأخطر من كل ذلك هو أن السيارات والجرارات وآلات رفع المياه بدأت تضع البغال والجمال والحمير والمواويل وأغاني الصبر، أثناء حركة سواقي الري في موقع الاندثار، بعد انتشار ضجيج الموتورات التي أحالت البغل إلى وردة سنفتقد مشهدها قريبًا.

كلمات لها معنى

- **ليس هناك يا صديقي من هو أفضل منك في العالم، ألا تحس أن ذلك يدفع في بطء معنى آخر شريرا أنك أيضا: لست أفضل من أحد في العالم .**
- **الأمر بسيط، ولا نميل إلى الاعتراف به، عندما ينشط الجوع في الجسد تزداد رغباتنا المتوالية في الأكل، ثم في افتعال أي سبب يتيح لنا تناول أي مأكولات، ثم لا يلبث الجوع أن يصل إلى ذروته أو أعماقه، فإذا بنا نعاني هبوطًا نفسيا يودي بالجوع إلى المهالك، حتى نفتقد الإحساس بالرغبة في الأكل بشكل حاسم، ومؤسف أيضا، ونعاني بعض الوقت المؤلم في استعادته .**
- **البعض يعتقد أن الليل يبدأ فور غروب الشمس، هذا خارج أنفاق وشرايين النفس، والتي كثيرا ما تفشل الشمس في اختراق طبقا ا لإعلان حتى ظهور النهار .**
- **فوجئت بأمي مس - بالغة الشجن - في وجداني: كل مرة تأتي من العاصمة إلينا في القرية، وتزورني في مقبرتي، وتقرأ لي الفاتحة، في حزن وحب وأسى، ولا تنتبه - أيها الأديب الكاتب - أن أباك ينام في الجزء ا اور من المقبرة، ولا تتذكر أن مس له بآيات الفاتحة ولو من باب التحية، حينئذ عدت إلى منطقة المقابر، والجو حار، لكن الأمر لا يمكن تأجيله، وقريبا من شاهد مقبرة أبي طلبت من الله أن يرحمه وأن يشمله بالعطف، وحاولت أن أتذكر الفاتحة ففشلت تماما .**

القرد زميل البشر في التشريح والمرح

والاستيلاء على كل الأشياء

وقفت كثيرا على حافة ساحة القرود، متحرجا من الكتابة عنها، لاسيما وأن المنطقة التي يقع فيها مسقط رأسي تحتوي على أضخم تمثال لقرد رأته عين، فقد كانت منطقة الأشمونين - وسط صعيد مصر - تعبد إله الحكمة - ويمثله القرد - في الأحقاب الوثنية، يراه السائحون الآن مدهوشين وعيونهم ترمش بإيقاع قردي جميل، وربما تكون هذه المنطقة وراء الحكايات والخرافات التي كثيرا ما تحيل أبناء الآمرين والخطاة والعصاة إلى هذا المسخ، مع أنها تخلو من الغابات الكثيفة ونظرية داروين المرعبة .وعلماء الحيوان يصنفون القرد - بكل أنواعه - مع الإنسان في خانة الرئيسيات، وتحتهما تندرج بقية المخلوقات المعروفة، لكن القرد ظل قادرا على التسلل إلى ملامح الناس وتصرفاتهم، ابتداء من الطريقة التي يقشر بها القرد السوداني وأصابع الموز، وانتهاء بالطريقة التي يتقافز بها الإنسان صعودا وهبوطا، وبالقفز الثلاثي والرباعي وفنون الجمباز المختلفة، حتى ضاق الأمر بالقرد- في العصر الحديث - ليقف وراء أسوار حدائق الحيوان وفي ساحات السيرك ومصادقة حواة الأسواق والشوارع وصيادي الغابات، ويستمتع علماء التشريح بما اكتشفوه من تماثل القرد مع الإنسان في الجهاز الهضمي وتكوين الأصابع وحجم المخ ورغبة الذكر في السيطرة على القطيع أو العائلة، كما أن كليهما شديد المرح والسعادة بالطعام والنقود والنفاق والدفء ومداعبة الذين سيكونون ورثته، ولهما ولع بالاستعراض والمعابثة وتصدر الندوات الثقافية وسماع الموسيقى والوفاء، دعك من الطريقة التي يفتح بها السكرتير باب مديره العام أو وكيل وزارته، أو نصف الانحناءة التي يقدم بها الأديب الجديد مؤلفاته إلى رئيس التحرير، أو نصف الإغماضة التي ترمق بها جارك حين يقتني سيارة أو زوجة جديدة، أو الطريقة التي تجلس بها وسط أسرتك - متبسطا على الأرض- عند العجين والخبز والنوم كالفلاحين، أو حتى النهج الذي تسلكه حين تفكر في الاستيلاء على أشياء أصدقائك: الكتب والأقلام وآلات التصوير والرياش والإناث والمفاتيح، ذلك كله تحصيل لعلاقة تاريخية مزمنة بيننا وبين كل فصائل القرود، سواء التي لا يزيد حجمها على جرو (وليد الكلب) أو التي يفوق جرمها مارد الأساطير.

ويعاني القرد - الآن - كما يعاني الإنسان الفاضل - من الانقراض، فمنذ القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين - وأكثر - اجتاح الإنسان أنواع القرود صيدا، واجتاحته الطبيعة حرائق وأوبئة وقحطا، وداهمته الحيوانات ذات الفصائل الشرسة اقتناصا، مما ألجأ الدول (الإفريقية بالذات) إلى إقامة محميات له يعود للتكاثر، ويرجع إلى موضعه الأثير في كوابيس أحلام البشر، وإلى مركزه المعروف في علاج اضطراب الدورة الشهرية والجذام والشلل الرعاش، على أن يتم إنضاج لحم القرد على نار هادئة في ليلة مقمرة، بعد تخليصه من مؤخرته ذات المساحة الحمراء.

كلمات لها معنى

- **كلاهما يبدأ حلوا لذيذًا وينتهي بكارثة: السكر والحب .**
- **قالها رجل دون أن نعترض: كل الطرق تؤدي إلى روما .**
- **يقود الرعد الطبيعة إلى صبوة التحقق فينطلق البرق .**
- **نعم: أصبحت النصوص الأدبية تنقسم إلى عدة مدارس آخرها: مدرسة العلاقات العامة .**
- **يظل الحلم الإنساني الواسع يتقلص حتى ينتهي إلى الأمل في حفرة سليمة ومترين من قماش جديد، بدون ذلك تصبح النهاية مرعبة .**
- **قد يكون ضروريا أن تعرف أن مثانة مسكنك ترتبط بما يحمله من خوازيق .**
- **حالة نكوص تداهم القصة الحديثة، وإلا فلماذا نستحضر حوادث الغرام الأولى والمبكرة؟**
- **حكمة الله: الذين لم ينجحوا يمثلون النسبة الكبرى من البخلاء .**
- **الشدائد تصنع الإنسان، وتظل ترعاه حتى تقضي عليه .**
- **سداد الأمانة إلى أصحا ا، وحل الواجب المدرسي، والعلاقة الزوجية، عليك أن تختار أكثرها سأما وثقلا على النفس .**
- **ليس صحيحا أن المخ الذكي هو الذي يفسد الحياة، إنه المخ الشديد الانتباه والتيقظ .**
- **تحت طبلة كل أذن معسكر للشياطين .**

القط مرة أخرى

القط مرة أخرى في حركته

من كونه كان معبوداً حتى أصبح علاجاً

كل هذه الحيوانات مفترسة وأليفة وأجزاء الجسد وأكوام النباتات والظواهر الجوية والموسيقى والماء، تملأ الواحة دون أن يكون فيها قط واحد، وكان لابد أن يكون في المقدمة منذ سبتمبر 1992، إذ لا يوجد موقع به جماعة من الناس دون أن يكون مواء القط جزءاً أصيلاً من عالمهم، ويبز القط الكلب في الألفة والتسلل إلى الفراش الشخصي الشتوي، وكان هرير القطة في صدري إشارة أمان في ليالي الريف ذات الزوابع، ويزعم المؤرخون أن القط الأليف لم يظهر أليفاً وأنيساً للإنسان إلا في العصور الوسطى من التاريخ الفرعوني، آية ذلك أن مقابر بني حسن (المنيا) تحظى بعدد وافر من رسومات عادات وتقاليد فراعنة العصر القديم، حيث ظهرت كل الحيوانات والطيور المعروفة بألفتها على الحوائط دون القط، كان القط البري النافر (النفور) المتوحش الشرس يكمن على حافة وادي النيل الصحراوية ليهاجم أي مخلوق حي، وهذا القط (النفور (معروف حتى الآن في الصعيد والذي لا يتورع عن الهجوم على الإنسان الذي كثيراً ما تتردد حيوانات أخرى مفترسة في مداهمته. وفي قريتنا - ديروط الشريف - حدث ذلك مرات متباعدة كان من ضحاياها أختي التي تكبرني مباشرة، وقد ترك القط المهاجم من فوق أسوار حديقة كالغابة: آثار خرابيش دموية في بطنها وفخذها مع تمزيق ملابسها، ولولا تجمع الناس الذين هرعوا إلى صراخها لكان قد فتك بها، والقط البري المفترس أكبر وأضخم من أي قط معاصر، ويكشر عن أنيابه حتى في حالة سيره العادي، رأيت ذلك في (عالم الحيوان) - البرنامج التلفزيوني الشهير، وربما يكون هذا المتوحش هو الذي عبده القدماء قبل عصر الرسالات السماوية، وكان يسمى (شاوس) وتعني المخلوق الكاسح، وهو ما استعاره جبابرتنا الأشاوس اليوم.

وأنواع القطط الأليفة - حاليا - متعددة، أشهرها الفيتنامي الطيب الذي قد يهجرك نهائيا ويعود إلى الشارع هائما إذا ما وقع عليه اعتداء منك، وهو قابل للتوجيه في النوم وقضاء الحاجة والبعد عن مواطن الدنس، رأيت واحداً منها عند صديق لا يقرب الأكل إلا إذا كان في طبق، أي أنه لا يقرب ما قد يلقى على الأرض، كما أن القط الرومي يميل إلى المصادقة مصاحبة لحركة صاحبه - بعض الكلاب المدربة تفعل ذلك - ويشتهر القط - عموما - بالخيانة، ذلك لأن بعض أنواعه لا تقيم وزنا لأصحابها حين يتشممون رائحة الغذاء (مثل القط: يأكل وينكر)، وفي جميع الحالات يظل الفأر - والحشرات وأيضا - مهوى لذة القط، يطاردها في البيوت وعلى الحوائط وفي الحدائق والمزارع، بل ويحاول التقافز طيرانا لأعلى كي يلتقطها ويمسك بما في الجو، وفي بلاد كثيرة يحوز القط الرعاية من الناس حتى أنه اقتسم خرافة التوأم الراحل، وخلاصتها أن التوأمين اللذين يعيشان فترة من العمر، ثم يموت أحدهما، فإن الثاني الذي يظل حياً يتحول إلى قط ليلي، يسرح هائماً في الشوارع والبيوت بحثاً عن (نصفه الآخر)، وقدم لي أحد الأقارب ابنه التوأم - وهو طفل - الذي عاش دون الشق الآخر الذي هو أخوه الراحل، وكشف لي عن رقبته ورأسه لأرى الخرابيش الواضحة الناجمة عن العراك الدائم مع القطط الأخرى، كما أن ثمة خرافة أخرى ترتبط بالزوجة العقيم التي تلد في سن متأخرة، إنهم يراعون المعاملة الطيبة الحنون - والمبالغ فيها- لما قد يكون موجوداً من قطط في المنزل ساعة الولادة، إن القط هنا حارس الأرواح، ولعل ذلك راجع إلى الأحقاب المصرية القديمة التى كان فيها هذا الحيوان معبوداً، حتى أنه كان اسماً لوالدة أحد وزراء الملك أمنحتب الأول: نعم اسمها (قطة)، وكان ذلك وراء كثير من التماثيل الصغيرة والعديدة التي اكتشفت في معبد القطة بمدينة بوباسطة (تل بسطة بالشرقية)، ولبعض هذه التماثيل جسم امرأة ورأس قطة، ويمثل بعضها قططا آدمية ترضع قطيطات عادية، وبعضها كان في صورة الملكة منتصبة القامة ولها هيبة ووقار، وهي جالسة على عرشها متحلية بالجواهر وعلى أهبة الوثوب أو الهجوم، وكانت هذه التماثيل - التي يحتفظ المتحف المصري القديم ببعضها - من البرونز، وذات تشكيل متقن، قطعة فنية رائعة - كما يقول جورج بوزنر وزملاؤه واضعو كتاب معجم الحضارة المصرية القديمة، والذي ترجمه أمين سلامة.

والقطة مشهورة بانزعاجها على ولائدها، تنقلها - فور الولادة من موقع لآخر، ثم يؤدي بها الاضطراب إلى التهامها، ورأيت أمي وهي تحمي القطيطات من تلك الحالة الدموية النابعة من الحب الأموي القوي العارم أصلاً، كما أن كثيرا من القطات الوالدات قد تفتك بذكرها بعد الولادة حينما يحاول مداعبة أبنائه منها، يظل القط نائما قريباً من المخبأ وعيونه متوجهة نحو أولاده دون الاقتراب أكثر. وفي الحقيقة القائمة على التجربة فإن كون هذا النوع من الحيوانات في حجرك أو تحت لحافك - في البرد ليلا - يثير في النفس قدرا مذهلاً من الحنو والحب والإشفاق، يصلح جزء منه - ولو قليلاً - للتصالح الجميل مع العالم.

كلمات لها معنى

- **السلالم صنعت للصعود، لا تنس أ ا تؤدي مهمة الهبوط أيضا .**
- **قيمة الزفاف الحقيقية أنه يحدث لمرة واحدة، سلوان جيد للفقراء .**
- **الجرذان لا تجيد تناول الطعام في الهواء الطلق .**
- **سيظل اللص خفيف اليد: خفيف الدم أيضا .**
- **صعود السماء لا يحتاج منك إلى صاروخ أو مركبة فضائية، بل عقل واسع الآفاق حتى ولو كنت أسير الفراش .**
- **كلاهما يسبب الذهول: عدم الفهم، أو الفهم الأعمق .**
- **الإدارة علم، رجاء عدم إلغاء الموهبة .**
- **جمال ملامح وجه الأنثى صنع أصلاً من تكوينات ساقيها .**
- **بيض الأسماك أثمن من بيض النعامة .**
- **البيت لابد له من جدران، من دو ا يكون من الخرائب، إني أقصد الشعر الحديث جدا .**

محمد مستجاب

من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

محمد مستجاب



محمد مستجاب

ولـد في
1938
أسيوط ، مصر

توفي في
26يونيو2005
القاهرة

محمد مستجاب أديب مصري معاصر، كتب القصة القصيرة والرواية والمقال الأدبي، تميزت أعماله بالاستخدام الراقي لمفردات اللغة وصياغة إبداعاته في جو يختلط فيه الحلم مع الأسطورة مع واقعية ساخرة.

السيرة الذاتية

ولد محمد مستجاب عام 1938في محافظة أسيوط، وعمل في الستينات في مشروع بناء "السد العالي" في مدينة أسوان وثقف نفسه بنفسه بعد أن توقف دراسيا عند مستوى شهادة الثانوية. ثم التحق بمعهد الفنون الجميلة ولكن لم يكمل دراسته بالمعهد. عمل بضعة أشهر في العراق وبعد عودته إلى مصر عــمل في مجمع اللغة العربية وأحيل إلى التقاعد بعد بلوغه سن الستين عام 1998.

العمل الأدبي

نشر أول قصة قصيرة وكانت بعنوان" الوصية الحادية عشرة "في مجلة الهلال في أغسطس 1969، وقد جذب إليه الأنظار بقوة، وأخذ بعد ذلك ينشر قصصه المتميزة في مجلات عدة.

صدرت روايته الأولى" من التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ "عام 1983التي حصل عنها على جائزة الدولة التشجيعية عام 1984وترجمت إلى أكثر من لغة. تلتها مجموعته القصصية الأولى" ديروط الشريف "عام .1984ثم أصدر عدة مجموعات قصصية منها" القصص الأخرى "عام 1995ثم " قصص قصيرة "عام 1999، ثم "قيام وانهيار آل مستجاب "عام 1999 التي أعيد طبعها ثلاث مرات بعد ذلك. ثم "الحزن يميل للممازحة "عام 1998وأعيد طبعها أيضاً عدة مرات. ثم أصدر روايتين هما" إنه الرابع من آل مستجاب "عام 2002 و" اللهو الخفي " التي صدرت قبل شهرين من وفاته. وحولت إحدى قصصه إلى فيلم سينمائي عنوانه (الفاس في الراس).

الكتابات الصحفية

- كانت له كتابات صحفية ثابتة في عدد من المجلات والجرائد العربية أشهرها زاويته "نبش الغراب" في مجلة العربي الكويتية وقد جمعها في كتاب حمل نفس الاسم صدر سنة 1999 ،
- زواياه " بوابة جبر الخاطر "في جريدة أخبار الأدب وجمعها أيضا في كتاب من جزئين حمل نفس الاسم وصدر عام 1999.
- كتاباته الثابتة في عدد من الصحف والمجلات أبرزها" الأسبوع "المصرية و "الشرق الأوسط " و" سيدتي "و" المصور "وقد جمع هذه المقالات في كتب عدة منها" حرق الدم"، و" زهر الغول"، و" أبو رجل مسلوخة"، و" أمير الانتقام الحديث"، و" بعض الونس"، و "الحزينة تفرح."

وفاته

توفي يوم السادس والعشرين من يونيو 2005م عن 67 عاما بعد أن أصيب بفشل كبدي.